الجزء السادس

سورة النحل

فضل السورة

عن الامام الباقر (ع) قال:

"من قرأ سورة النحل في كل شهر كفي الغرم في الدنيا ، و سبعين نوعا من أنواع البـلاء ، أهونه الجنون و الجذام و البرص ، و كان مسكنه في جنة عدن و هي وسط الجنـان. "

نور الثقلين - ص ٣٨ - الجزء ٣

عن النبي محمد (ص) قال:

"من قرأها لم يحاسبه الله تعالى بالنعم التي أنعمها عليه في دار الدنيا ، و ان مات في يوم تلاها أو ليلته ، أعطى من الأجر كالذي مات و أحسن الوصية "البيان - ص ٣٤٧ - الجزء ٦

الإطار العام

لأن سورة النحل تذكرنا بنعم الله . حتى سميت بسورة النعم عند البعض . و سورة النحل (و العسل واحد من أفضل انواع الشراب) عند الآخرين . فان الأطار العام للسورة - كما يبدو لي - هو كيف نتعامل مع نعم الخالق .. و جملة القول في ذلك.

-1ضرورة توحيد الله و نفي الشركاء عمن أنعم علينا .

-2تكميل نعمه التي لا تحصى باعظم نعمة و هي الوحي و الرسالة.

-3الألتزام بحدود الله في الاستفادة من هذه النعم)التقوى. (

كل ذلك يجعلنا من اتباع ابراهيم الخليل الذي كان شاكرا لأنعم الله.

و تكاد آيات الدرس الأول تذكرنا بكل موضوعات السورة جملة واحدة.

و تستوقفنا للتدبر الآية الثانية : " ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده * ان انذروا انه لا اله الا انا فاتقون " و هكذا تذكرنا بالوحي . و التوحيدو التقوى . و هي الموضوعات الرئيسية في السورة . و التي يريدنا الذكر الحكيم . ان نستفيدها من نعم الله . و نجعل الأيمان بها شكرا عليها:

ثم تذكرنا بآيات الله . تمهيدا لذكر النعم و اعظم الآيات خلق السموات و الأرض و ثم خلق الانسان من نطفة . و خلق ما يحتاجه من الأنعام..

و بعد ذكر أهم المنافع للأنعام . تبين الآية (٩) ان السبيل القويم للحياة الطيبة . و بالتالي لطريقة الأنتفاع بنعم الله . انما هو السبيل الذي يهدينا اليه الله سبحانه اما السبل الآخرة فهي جائرة .و هكذا يصل السياق بين نعمة الوحي و سائر النعم باعتبارهمتمما أساسيا لها.

و في الآيات (١٠ / ١٨) يذكرنا الرب بنعم الماء و الزرع و الثمرات و كيف سخر لنا الشمس و القمر . و

سخر البحر و ما فيه من نعمة الأسماك و الطرق البحرية للتجارة . و نعمة الجبال و ما فيها من فائدة حفظ الأرض و مخازن الماء و كيف جعل النجوم علامات.

و يأمرنا بالتفكر و التعقل و التذكر و الشكر . لعلنا نهتدي الى حقيقة التوحيد . و ان الله الذي يخلق ليس كالشركاء الذين لا يخلقون.

و تتابع الآيات (١٩ (29 / التذكرة بالخالق . الذي يحيط بنا علمه . وان علينا الخشية منه . و الا نستكبر او نستنكف عن عبادته سبحانه . لأنه يعلم ذلك منا و انه لا يحب المستكبرين.

و يحذرنا من انكار الرسالة . و يذكرنا بمصيرالمستكبرين كيف أتى الله بنيانهم من القواعد فاذا بالسقف يخر عليهم في الدنيا . اما في الآخرة فلهم الخزي و النار ، و انهم أسلموا حين جاءهم ملائكة الموت فادخلوهم جهنم لأنهم تكبروا.

و يستمر السياق (٣٨ (44 /في معالجة حالة الاستكبار (و لعلها اعظم عقبة في طريق الايمان بالوحي) و ذلك بالتذكرة بالبعث . و كيف ان الهدف منه بيان الواقع الذي يتمثل في كذب الكفار.

و في الآية (٤١ / ٤٢) يذكرنا الرب بأجر المهاجرين لماذا ؟ لعل ذلك تنبيه الى ضرورة مقاومة اغرار النعم . إذا خير المؤمن بينها وبين الحق.

و يعود و يذكرنا بالوحي . و كيف ان النبي ليس بدعا من الرسل.

و مرة أخرى (٤٥ / ٥٥) يذكرنا الله سبحانه بان الذين مكروا السيئات لا امان لهم من مكر الله . و لعل ذلك لكي يعالج غرور الاستكبار في النفس ثم يذكرنا بان كل شيء في الطبيعة يسجد لله سبحانه و ان الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله . بل يخافون ربهم و أن الله قد نهى عن اتخاذ شريك له و أمر بالخوف منه و تقواه . او ليست النعم منه . و اذا فقدنا منها شيئا اولسنا نجأر اليه ؟ و مع ذلك يشركــون بالله بعد ان يكشف عنهم الضر.

و يستمر السياق في تسفيه فكرة الشرك . و الاعتقاد بأن النعم من غير الله . و نسبة الأمثلة السيئة الى ربهم سبحانه مثلا . ان الواحد منهم يكره البنت و لكنهم يزعمون ان لله البنات سبحانه.

كلا لله المثل الأعلى . و للمشركين مثل السوء . و ان لهم النار و ان الشيطان وليهم.

و لعل آيات الدروس الأخيرة هذه تهدينا الى ضرورة التسليم بان النعم من الله .و عدم الانبهار بالنعم و بمن يملك النعم من البشر . او بما هي وسيلة للنعم من مصادر الطبيعة . اقول عدم الانبهار بها لكي يهبط الأنسان الى حضيض الشرك فينسى انالمثل الأعلى لله سبحانه.

و هكذا الآيات (٦٤ (74 / فهي في الوقت الذي تذكرنا بان الرزق و الوحي من الله . تبين لنا : مجموعة مــن النعم مثل الماء الذي ينزله الله من السماء فيحي به الأرض . و يرزقنا شرابا لذيذا من بين فرث و دم لبنا خالصا . و يرزقنا السكر من ثمرات النخيل و الأعناب . و شراب ثالث يرزقنا من النحل فيه شفاء للناس.

تلك نعم الله فلماذا نشكر غيره ام نعبد سواه ؟ و يقلب الله البشر من حياة الى موت . و ربما الى هرم و يفضل بعض الناس في الرزق . فهل نعبد سواه . فهل يملك الرزق غيره ؟

و هو الذي جعل للناس من انفسهم ازواجا و اولادا و حفدة . و رزقهم من الطيبات فلماذا يكفرون بنعمة الله . و يعبدون غيره وهو لا يملك رزقا . او يقرنوه بسواه و يضربون له الأمثال سبحانه ؟

و يبدو الآيات هذه تخفف من (سورة (الانبهار بنعم الله . لكي يخلص المرء لربه عبادته . و يمحضه حبه.

و هكذا الآيات (٧٥ / ٨٣) تذكر الناس بان الله وحده يملك ناصية الأقدار بينما الشركاء المزعومون هم كعبد مملوك لا يقدر على شيء . فمن هو أحق بالعبادة ؟ و ان الله يملك غيب السموات و الارض . كما يملك امر الساعة . و هو الذي انعم على البشر بالعلم بعد أن خرجمن بطن امه لا يعلم شيئا . و هذه الطيور في جور السماء ما يمسكهن الا الله.

هكذا الولاية لله . و انه السلطان القائم بأمر العالمين و هكذا نعم السكن الدائم او المتنقل كالخيم و نعمة الاثاث و المتاع . و نعمة الظلال . و الاكنان و الثياب ايامالسلم و الدروع للحرب أو ليست من تمام نعمة الله ؟ فلماذا الكفر و انكار نعمة الله ؟

و يستمر السياق و عبر الآيات (٨٤ / ٨٩) ينذر الكفار و الظالمين و المشركين الذين يبعثون ولا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون . و لا ينقذهم شركاؤهم و القوا جميعا السلم الى الله . بيد ان كبراءهم اشد عذابا . ويؤكد السياق على شهادة الرسول هنالك . و ان الكتاب لابد ان يقرن بالشاهد على الناس . و انهما لن يفترقا.

و يعود القرآن الكريم (٩٠ / ٩٧) يبين واحدا من أهم نعم الله . و هو الكتاب الذي أوحاه الرب لعبده يتم نعمته على الناس . و يبين السبيل الى الأنتفاع بالنعم و جملة القول في تنظيم الحياة حتى تكون طيبة : هي العدل . و الاحسان و ايتاء حقوق ذوي القربى . و اجتنـــاب الفحشاء و المنكر و البغي . و هكـــذا الوفاء بعهـد الله . و الالتزام بالايمان . (و يشدد عليها القرآن توكيدا و ربما لأنها أهم منظم للعلاقات الاجتماعية. (

و رعاية التساوي امام القانون . لكي لا تستضعف طائفة طائفة ثانية . بل لما تعتقد انها ارجى منها . و اجتناب استغلال اليمين استغلال سيئا.

ثم الصبر (و لعله لمقاومة إغراء الشهوات. (

و يشجع السياق العمل الصالح لأنه مفتاح الحياة الطيبة . و هكذا يبين الكتاب منهاجا كاملا للحياة الطيبة ..

و لكن كيف نستفيد من القرآن ؟ لأن الشيطان قد يغوينا عنه . أو يجعلنا نحرف آياته فان الآيات (٩٨ / ١٠٥) تبين لنا منهاجا لفهم القرآن.

أولا : بالاستعاذة بالله حين قراءته من الشيطان.

ثانيا :بالتسليم لكل آياته لأن روح القدس قد نزله بأمر الله فلا اختلاف و لا نقص فيه و شبهات الكفار مرفوضة حيث قالوا بان رجلا اعجميا يعلم الرسول هذا القرآن الذي هو قمة البلاغة.

ثالثا : اجتناب الأفتراء على الله " الكذب . "

السبيل الى الايمان التعالي عن الحياة الدنيا . و استحباب الآخرة عليها . و هكذا تكون النعم في الدنيا نافعة لمن ملكها و أما من ملكته النعم و استحب الحياة الدنيا على الآخرة فان الله لا يهديه لأنه يكفر بالله و برسالاته.

هكذا تبين الآيات (١٠٦ / ١١٣) الموقف السليم من نعم الله . و يبدو ان الذين يستحبون الحياة الدنيا . ويفضلون نعمها على نعم الله في الآخرة هم الذين يشرحون للكفر صدرا فيسلب منهم الرب ادوات الوعي . و اولئك هم الغافلون.

أما من يسمو بنفسه عن الدنيا . و يهاجر بعد ان يفتن في الله و يجاهد و يعبد فان الله بعدها لغفور رحيم .

أن تساميه عن الدنيا ينفعه يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها.

و إن الكفر بالله يسلب النعم في الدنيا ايضا . كما ضرب الله مثلا قرية أسبغ الله عليها نعمة الأمن و الرزق فلما كفرت أذاقها الله لباس الجوع و الخوف.

هكذا جزاء من امتلكته الدنيا و لم يسمع لنداء الرسول . و بالتالي لم يستفد من نعمة الوحي التي تحافظ على سائر النعم.

و هذا لا يعني أبدا ترك نعم الله . كلا . بل يعني :

اولا : تنظيم العلاقة معها . بحيث لا تنسينا ذكر الله.

و ثانيا : تنظيم الأستفادة منها كما أمر الله.

و هكذا تبين الآيات (١١٤ / ١١٩) حدود الله في الانتفاع بنعمه . و هذا بعد من ابعاد التقوى التي جاء الآيات الأولى في هذه السورة لتأمرنا بها.

علينا الا نحرم الطيبات على انفسنا . بل نأكل منها و نشكر الله على نعمه.

أما المحرمات فهي الميتة و الدم . و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به (الا عند الاضطرار. (

و حرام الأفتراء على الله ، و الكذب عليه بان هذا حلال و هذا حرام.

أما اليهود فقد ظلموا انفسهم فحرم عليهم اشياء بسبب ظلمهم.

أما رحمة الله على هذه الأمة فهي واسعة حيث ان الله رفع القلم عمن عمل سوء بجهالة ثم تاب و أصلح.

و يعطي القرآن الكريم و عبر الآيات (١٢٠ / ١٢٣ (أسوة للذين آمنوا من قصة ابراهيم كيف كان شاكرا لأنعم الله . و علينا اتباع ملته.

أما قصة السبت و حرمة الصيد فيه . فهي خاصة بالذين اختلفوا فيه (١٢٤. (

و الرسول مهبط وحي الله يدعو قومه بالحكمة و الموعظة الحسنة . و هو المثل الأعلى للعدل و الاحسان و للصبر و الاستقامة . و سعة الصدر . و سيرة الرسول شاهدة على صدق رسالته . وان الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون . (128 / 125)

و هكذا تحدد سورة النحل العلاقة السليمة مع نعم الله .حيث يزداد المؤمن بها ايمانا لربه . و تسليما لرسالات ربه و نبذا للشركاء و استقامة امام المفسدين و الحمد لله رب العالمين.

و على الله قصد السبيل

هدى من الآيات

[بسم الله الرحمن الرحيم]

بإسم الله ، برحمته الواسعة الدائمة ، بعلمه و حكمته ، بقدرته و تدبيره ، تشرع هذه السورة.

يستعجل المشركون دائما جزاء أعمالهم ، زاعمين أن التأخير دليل العدم ، كلا .. فها هو أمر الله المتمثل في تحقيق ما أنذر به الرسول قد أتاكم ليجازيكم على شرككم ، دون أن يقدر الشفعاء على انقاذكم من عذاب الله.

و تهبط الملائكة بين حين و آخر من أمر الله ، بالروح الذي يحمل رسالة ربه إلى الناس بالإنذار بضرورة التوحيد ، و الأمر بالتقوى . و لا أحد يفر من الجزاء ، لأن خلق السماوات و الأرض قائم على أساس الحق ، و لا إله ينقذ البشر من عذاب الله . تعالى الله عن شركهم.

و من الذي يستكبر على الله ؟! إنه هذا الانسان الذي كان أصل خلقه نطفة ، فإذا به يديم الجدال و بكل وقاحة في الحقائق ، بالرغم من انه لا يزال بحاجة الى نعم الله ، فهذه الأنعام خلقها الله للإنسان يستدفئ بها ، و ينتفع منها ، و يأكل منها ، و يتخذ منها وسائلالزينة ، و وسائل النقل الى بلد بعيد يشق على الأنفس الوصول إليه ، كل ذلك آية رحمة الله و رأفته بالبشر ، كما خلق الرب الخيل و البغال و الحمير لكي يمتطيها البشر ويتخذ منها زينة ، هذه نعم ظاهرة ، و هناك نعم باطنة لا نعرفها ، و الله الذي هيأ النعم حدد البرامج التفصيلية للإنتفاع الأفضل منها ، حين بين لنا بفضله السبيل المستقيم إليها ، و لكن دون أن يفرض علينا السير عبره ، و لو شاء الله لهدى الناس جميعا.

بينات من الآيات

بين الخلق و الأمر

[1]يبدو ان أمر الله هو إبداعه و انشاؤه الذي يتم باحداث الإرادة ، ويعبر عنها القرآن بكلمة - كن - قائلا : " إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون " و يبدو أن هناك فرقا بين الأمر و الخلق ، فالخلق قد يكون بالواسطة ، و حسب السنن التي أجراها الله ، بينما الأمر هو الخلق المباشر الذي لوحظ فيه الإنشاء و الإبداع . و عذاب الله للأمم المنحـــرفة ، كما و رسالة الرسل أمران إلهيان إبداعيان ، لا يخضعان للسنن المعروفة لدينـا.

و حين جاء الرسل بالإنذار استعجل الكفار ما انذروا به ، و اتخذوا من التأخير دليلا على عدم وجود الجزاء ، و جاءت الآية تنذرهم بإقتراب ساعة الجزاء..

[أتى أمر الله فلا تستعجلوه]

و الواقع أن شركهم بالله ، و زعمهم ان هناك آلهة تمنعهم من دون الله ، هو الذي جعلهم يطمئنون ولا يأخذون الانذار بجدية كافية ، و نفى ربنا ما أشركوا به..

[سبحانه و تعالى عما يشركون]

فهو منزه و هو أسمى من أن تساويه بشريك ، و هو خالق كل شيء.

روح رسالات الله

]ينزل الملائكة بالروح[

[2]و الله ينزل الملائكة ملكا بعد ملك ، مؤيدن بالروح ، و الروح - حسبما يظهر من النظر في مختلف الآيات التي تحدثنا عنه - هو : ذلك الملك العظيم الذي يؤيد الله به رسله ، و الذي يأتي الى الأرض في ليلة القدر مع الملائكة و هناك قول آخر يقول : " ان الروح كلمة الحياة التي يلقيها الله سبحانه الى الأشياء فيحيبها لمشيئته ، و عد القاءه و انزاله على نبيه إيحاء في قوله " : و كذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا " (١) فإن الوحي هو الكـلام الخفـي و التفهيم بطريق الإشارة و الإيماء ، فيكون إلقاء كلمتهتعالى - كلمة الحياة - الى قلب النبي (ص) وحيا للروح إليه " (٢)و إذا كان الروح ملكـــا ، فإن الباء هنا تدل على الإستعانة ، أي مستعينا بالروح و مؤيدا ، أما اذا كان الروح جوهر الرسالة المركب من نور العلم و الهدى ، وهو الذي يحي البشر كما قال سبحانه : " استجيبوا لله و للرسول اذا دعاكم لما يحييكم "فإن الروح يكون النور الذي جاء به الملائكة الى الأرض ، و هذا المعنى قريب أيضا من(١) الشورى / ٥٢

(2)الميزان للعلامة الطباطبائي / ج ١٢ - ص ٢٠٦

قوله سبحانه : " يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده. "

]من أمره[

و الملائكة تصدر انطلاقا من أمر الله ، فلا تعمل حسب أهوائها ، لذلك فهم يهبطون الى عباد الله المصطفين.

[على من يشاء من عباده]

فالرسل عباد الله و ليسوا أنصاف آلهة ، أما محتوى الرسالة و جوهرها فهو التالي:

[أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون]

إخلاص العبادة لله في كل الشؤون ، و الذي يتجسد في التقوى ، هو جوهر الرسالات الإلهية.

[3]و حين ينذر ربنا عباده من الإنحراف عن خط التوحيد ، فان ذلك ينسجم مع أساس الخلق ، حيث خلق السماوت و الأرض بالحق ، و انه هو المهيمن عليها دون شريك ، فالبشر اذا شذوا عن سنة الكون ، فلا أحد ينقذهم من جزاء إنحرافهم ، لأن ربنا تعالى عن الشركاء الذينيدعوهم الكفار أندادا له سبحانه فلا يغنون من عذاب الله شيئا.

]خلق السموات و الأرض بالحق تعالى عما يشركون[

[4]و من هو هذا الإنسان الذي يخالف سنة الكون ؟! أو لم يخلق من نطفة ، فاذا به يتحول الى مجادل يلقي الحجة بعد الحجة . و يختار رأيه الخاص به ، ويفند سائر الآراء بل تراه قد يتحدى سنة الحق بلا استحياء. !!

]خلق الإنسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين[

[5]و الانسان بحاجة الى الطبيعة من حوله ، يتفاعل معها ، فلابد ان يكيف نفسه مع السنن العامة التي تحكمها ، فنرى الانعام كالغنم و البقر و الإبل خلقها الله لكي ينتفع بها البشر من عدة أبعاد.

أولا : انها تدفئ جسد الانسان ، بأصوافها و أشعارها.

[و الانعام خلقها لكم فيها دفئ]

ثانيا :ان للانعام (و هي الإبل و البقر و الغنم) منافع أخرى في أنها تحمل الإنسان . أوليس الإبل سفينة الصحراء أو لم تكن الأبقار أفضل وسيلة للزراعة سابقا ؟! فهي تحرث الأرض و هي تروي الأسرة باللبن و مشتقاته و هي الى جانب ذلك ثروة عظيمة بسبب سرعة تناسلها.

[ومنافع]

ثالثا : يأكل الإنسان من الانعام باعتبارها أفضل للغذاء ، و أنسب طعام للإنسان ، و من أخصب الحيوانات نسلا ، و اسرعها نموا..

[و منها تأكلون]

[6]رابعا : و هي تشبع حاجة نفسية للبشر ، حاجة السيطرة على الطبيعة ، و تسخيرها لأهدافه ، و التفاعل معها . إن منظر الأنعام حين تعود من مراعيها بالليل ليريحها أصحابها في مرابضها . إن هذا

المنظر يملأ العين بهجة و القلب سرورا ، و يشبع كل أبعاد النفس البشرية التي تحن إلى أمها الطبيعة . كما أن منظرها و هي تسرح أول الشروق ، يطلب أصحابها لها الرزق ، يشبع غرور المسؤولية عندالبشر .

]و لكم فيها جمال حين تريحون و حين تسرحون[

إن الحيوانات الأليفة تشبع تقريبا ذات الحاجة النفسية التي يشبعها الأولاد عند أبناء آدم و لكن بدرجة أدنى.

إن خالق الإنسان و جاعل الغرائز في نفسه ، هو خالق الأنعام التي تشبع هذه الغرائز ، و هذا هو الحق الذي أرسى عليه الله بناء السماوات و الأرض.

[7]خامسا : و يحتاج البشر الى مراكب في البر كحاجته إليها في البحر ، و في ذات الأنعام و بالذات في الإبل هذه الفائدة الكبيرة ..

[و تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس]أي تحمل الأنعام أحمالكم الى البلاد البعيدة التي يشق عليكم بلوغها.

[إن ربكم لرؤوف رحيم]

وفر هذه النعم جميعا لكم لأنه ذو رأفة و رحمة ، و ربما الفرق بين الرأفة و الرحمة يكمن في أن الأول يلاحظ النفع الحالي ، بينما يلاحظ في الثاني النفع حالا و مستقبلا.

[8]و الى جانب الأنعام خلق الله للإنسان حيوانات أخر للركوب و الزينة ، فيها - تقريبا - ذات المنافع و لكن بدرجات متفاوتة لا يعلمها البشر..

]و الخيل و البغال و الحمير لتركبوها و زينة و يخلق ما لا تعلمون]من أنواع المنافع المادية و المعنوية التي لا نعلم مدى حاجتنا إليها.

[9]و الله الذي خلق كل هذه النعم فصل لنا كيف نستفيد منها ، و وضع البرامج التي تمنع الإسراف أو الإفساد فيها ، أو الشذوذ في الإستفادة منها.!!

[و على الله قصد السبيل]

فقد كتب على نفسه الرحمة فبين بفضله الطريق القاسد المستقيم إلى الغايات النبيلة ، فلأنه الذي خلق تلك الأحياء لفائدة البشر ، فهو العليم بمنهاج الإنتفاع بها ، فهو الذي يبين لنا السبيل المستقيم في ذلك ، و لكنه لم يجبرنا على ذلك جبرا ، فمن الناس من يسلكون السبيل الجائر المائل عن الحق.

[و منها جائر و لو شاء لهداكم أجمعين]

لعلكم تهتدون

هدى من الآيات

بعد ان ذكرنا الرب بآياته . من خلق السموات و الأرض ، ثم خلق الأنسان من نطفة ، و اعطائه النطق ثم خلق الأنعام . و الخيل و البغال و الحمير . مبتدء بالخلق الأعظم فالأعظم و انعمه الأكبر فالأكبر . اقول : بعد ان ذكرنا الرب بها في الدرس السابق لعلنا نخلص العبادة لله ، و نترك الشركاء من دونه.

أخذ السياق - بعدئذ - يتدرج عبر سائر النعم الأقرب منها الينا فالأقرب . فذكرنا بالمنافع التي جعلها في المطر . و تغيير الأنواء و اختلاف الليل و النهار . و ما فيها من منافع و نتساءل من الذي انزل المطر من السماء فاخرج المراعي و الثمرات و وفر الماء للشرب ؟

إنه الله.

و من الذي انبت في الأرض زرعا بماء السماء ، و انبت اشجار الزيتون و النخيلو الاعناب و ألوانا من الثمرات الأخرى ؟

انه الله ، و لكن المتفكرين من الناس هم الذين يهتدون بهذه الآيات و سخر الليل و النهار للانسان ، و سخر الشمس و القمر كما سخر النجوم . كل تجري في فلك .أن هذه الآيات ينتفع بها من ينتفع بعقله ، و هيء في الأرض للبشر الوان المنافع ، فمن تذكر اهتدى بهذهالآيات الى الله . خالقها و مدبرها.

و جعل الله البحر بحيث يستفيد منه الانسان لحما طريا ، كما اودع في قاعه انواع الزينة ، و هيأه للسفن التي تمخر فيه ، كل ذلك لكي يسعى الانسان من اجل رزقه ثم يشكر الله عليه.

و اذا خرجت الى البر رأيت الجبال التي تقوم بدور المراسي (١) تحافظ على تعادل الأرض و تمنع ميلانها ، و اودع فيها مخازن المياه التي تتفجر انهارا ، كما جعل فيها طرقا يسلكها البشر و يهتدي فيها بعلمه ، و لعله يهتدي الى ربه بذلك العلم.

و اللـه سبحانـه اودع في السماء علامات يهتدي بها البشر ، و وراء كل آية حقيقة ، و وراء آيات الكون حقيقة الالوهية ، فهل الذي يخلق كمن لا يخلق ، لماذا لا نتذكر ؟

كـل تلـك النعم - التي لو عديتها لما احصيتها - شاهدة على ان الله غفور رحيم بعبـاده.

بينات من الآيات

[10]الله الذي قدر الكون بحيث انزل لكم و من اجل استمرار معاشكم ماء من السماء تشربون منه ، كما ينبت لكم الله به مراع لانعامكم ، و لو لا المطر من اين(١) المراسي : جمع مرساة بمعنى أنجر السفينة الذي تقف به في البحر.

تأكل الأنعام ؟!

[هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب و منه شجر]قال الازهري : الشجر ما ينبت من الأرض قام على ساق أو لم يقم . و هذا الرأي أقرب الى السياق هنا ، كما هو الأقرب الى اصل معنى الشجر و هو ظهور الشيء او اختلاطه ببعضه .

[فيه تسيمون]

الكلمة مأخوذة من الاسامة ، و هي الرعي يقال اسمت الأبل أي رعيتها.

و قال بعض المفسرين : ان الآية تدل على ماء الشرب انما هو من السماء فقط . و هو كذلك واقعا.

[11]و الماء الواحد يهبط على الأرض الواحدة ، فاذا بها تنبت به الوانا مفيدة من الثمرات.

[ينبت لكم به الزرع]

و اكثـر طعام البشرية من الحنطة و الحبوب و الخضروات و بالتالي من الزرع.

[و الزيتون و النخيل و الأعناب]

وهي الثمرات الأكثر نفعا للجسم البشري ، و الاكثر انتشارا في مختلف الاقاليم.

[و من كل الثمرات]

يوفر الله لكل ارض ما يناسبها ، و يناسب حاجة اهلها ، ففي ثمرة كل ارضالمواد الاشد ضرورة بالنسبة الى سكان تلك الارض.

[إن في ذلك لأية لقوم يتفكرون]

مراحل العلم و هدف الانعام:

[12]تختم هذه الآيات بالكلمات التالية " يتفكرون - يعقلون - يذكرون - لتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون - تهتدون " فما هي العلاقة بينها ؟ و لماذا جاءت متدرجة . علما بأن التدبر في نهايات الآيات يفهمنا معاني الآيات و لربما اعطانا علما جديدا ؟ يبدو ان مراحل تكون العلم عند الانسان هي التالية:

ألف :مرحلة جمع الحوادث و ربطها ببعضها و التعرف على علاقتها الثابتة ببعضها ، و الحصول منها - بالتالي - على قانون عام يحكمها ، و هذا يحصل عن طريق التفكر ، لان التفكر - حسبما يبدو لي - هو تقليب المعلومات و خلطها و اعادة فرزها جاء في المنجد (الفكر جأفكار : تردد الخاطر بالتأمل و التدبر بطلب المعاني).

و الآية الماضية ربطت الحوادث الظاهرة (هطول الامطار ، و اخضرار الارض و أختلاف الثمرات) ببعضها ، و جعلتها جميعا آية الخلق عن طريق التفكر ، فقال ربنا : " ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون " لأنه بسبب تقليب المعلومات نحصل على انها آية الله.

باء : مرحلة تخزين التجارب و الاستفادة منها في فهم الحوادث الجديدة ، ويبدو ان هذه العملية تسمى بالعقل - حسبما تدل عليه الكلمة - إذ أن أصل العقل مستوحى من العقال ، و هو الذي يحفظ الناقة ، و جاء في الحديث:

"العقل حفظ التجارب"

و ربطت هذه الآية بين العقل و بين التعرف على سر تسخير الطبيعة للبشر ، لانفهم هذه الحقيقة اصعب و بحاجة الى تجارب مختزنة اكبر . يقول ربنا:

[و سخر لكم الليل و النهار]

فاختلاف سنن الله في الليل من الظلام و السكون ، و ركون الطبيعة الى الراحة . اختلافها عن النهار و ما فيه من الضوء و الضوضاء ، و النشاط في السعي كل ذلك جاء لمصلحة البشر ، كما سخر الله الشمس و القمر.

[و الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمره]

و قد لا تكون النجوم جميعا مسخرات للبشر إلا انها تنفع البشر ، و ترتبط بتسخير الشمس و القمر ، آيتي النهار و الليل.

[إن في ذلك لأيات لقوم يعقلون]

فعن طريق تخزين التجارب و الاستفادة منها سوف يبلغ البشر درجة من العلم تؤهله لمعرفة سر الطبيعة ، و ان كل شيء فيها قد نظم لمصلحة البشر ، و ان عليه ان يستفيد منها لحياته ، و لكن لا يزال امامنا مسافة حتى نصل الى ذروة العلم ما هي تلك المسافة ؟ انها التذكر.

[13]بعد العقل يأتي دور التذكر و هو المرحلة المتقدمة في مسيرة المعرفة.

جيم :و هي مرحلة استيعاب التجارب من اجل العمل ، فكيف نستفيد من الطبيعة المسخرة لنا ؟ هل كل شيء فيها صالح في كل وقت و لكل شخص ؟ كلا .. اذ ان حقيقة الأشياء مختلفة ، و كل شيء نافع لوقت و لشخص ، بالرغم من انها جميعا خلقت للبشر.

[و ما ذرأ لكم في الأرض]

ما اظهره الله في الأرض و ما أنشأه و فطره من اجلكم و لمنفعتكم .

[مختلفا ألوانه إن في ذلك لأية لقوم يذكرون]

[14]و الله سخر الطبيعة للانسان ، و لكن على الانسان ان يسعى هو بدوره من اجل انجاز هذا التسخير في بعض الأحيان ، فليس النعم تأتي دائما كما السماء ، بل قد تحتاج الى معالجة جادة و الى المخاطرة كالصيد في البحر . و السفر عبره للتجارة.

[و هو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا و تستخرجوا منه حيلة تلبسونها]فالبحر مثل مخزن كبير لأفضل انواع اللحوم تحصل عليها فيه بأقل جهد و كذلك للحلى.

[و ترى الفلك مواخر فيه]

المخر : شق الماء عن يمين و شمال . و يحدث هذا الشق صوتا يشبه صوت العاصفة ، و هنا يذكرنا القرآن بمرحلة رابعة للعلم هي:

دال : مرحلة الاستفادة العملية من العلم ، تلك التي نسميها اليوم التقنية ، و ربما يسميها القرآن بالأكتساب.

[و لتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون]

أي تسعوا في البحار للحصول على رزقكم الذي هو فضل الله ، و بعدها تأتي المرحلة الخامسة و هي:

هاء :مرحلة الرضا النفسي ، ذلك الذي يفرزه الشكر فان اشباع الحاجات الجسدعن طريق النعم لا تكفي ، اذا ظلت النفس قلقة ، تحرص ابدا على شيء مفقود ، اما اذا شكر الانسان ربه ، و عرف ان النعمة ليست من حقه ، بل هي من فضل الله ، و تذكر الايام التي كان يحتاج اليها و كيف حصل عليها بسعيه او برزق الله ، فان نفسه تمتلأ سكينة و هدوءا " لعلكم تشكرون. "

و تبقى امامنا درجة نعرج فيها الى ذروة الكمال في درجات العرفان ، و هي درجة الهداية التي تذكرها الآية التالية.

[15]كما السفينة في اعالي البحار بحاجة الى مرساة تحفظها وسط الأمواج المجنونة ، كذلك الارض التي تسبح في الفضاء تدور حول محور الشمس ، بحاجة الى ثقل يرسيها و يوقف اهتزازها ، و الجبال هي تلك المراسي.

[و ألقى في الأرض رواسي]

أي وضع الله فوق الارض جبالا عالية.

[أن تميد بكم]

أي لكي لا تتحرك بكم فتزعجكم إن الجبال متصلة من الداخل ببعضها ، لتكون حصنا منيعـا للأرض يمنع الزلازل و الهزات التي يتعرض لها كوكبنا بسبب الغازات الداخلية . كما ان الجبال تمنع العواصف الشديدة التي تجوب سطع الأرض باستمرار ، و تمتص قوتها و هي - في ذات الوقت - تعطي قوة اضافية للأرض لمقاومة جاذبية القمر ، و فجر خلال الجبال عيونا . بسبب مخازن المياه العظيمة في بطن الجبال.

[و أنهارا]

و لقد كان من الممكن ان تمنع الجبال اتصال البشر ببعضهم ، بيد ان الله هيأ بينهما سيلا و هذه من أعظم النعم الإلهية حيث انك لا تجد سلسلة جبال متراصة كالجدار يفصل بين الأراضي.

[و سبلا]

كيف يهتدي الانسان الى مآربه في الارض عبر هذه السبل ؟ هكذا ينبغي ان يهتدي الى الحقائق من وراء الآيات ، إذ الآيات هي السبل المؤدية الى الحقائق.

[لعلكم تهتدون]

[16]يهتدي البشر عن طريق معالم السبل الى غاياته في الدنيا ، و هكذا ينبغي ان يهتدي عن طريق الآيات في الارض و في السموات الى حكمة الله وقدرته.

[و علامات]

كتلك التي يضعها على السبل.

[و بالنجم هم يهتدون]

و اذا كان البشر يهتدي بالنجم الى سبيله في الارض ، و العلاقة خفية بين النجوم في السماء و سبل الارض ، فكيف لا يهتدي الى الله عبر آياته ؟! و آيات الله اوضح شهادة . و أصرح دلالة و من آياته في الأرض النبيون و الأوصياء عليهم السلام يهتدي بنورهم المؤمنون.

أفلا تذكرون

[17]كيف لا يميز بين الخالق و المخلوق ، بين اله السماء و الارض ، و بين

الأرباب المخلوقين العاجزين ؟!

[أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون]

[18]و أنى ألقينا بنظرنا ، وجدنا آية عظيمة من آيات الله تدلنا على أحديته ، و أنى تقلبنا فانما تحيط بنا نعم الله التي لا تحصى ، فلماذا الجهل ؟ و لماذا الكفر ؟!

[و إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم]ان كل سنة الهية نعمة ، و كل موهبة نعمة ، و كل قدرة نعمة ، و كل عضو بل كل جزء من عضو ، بل كل خلية نعمة ، ان خلايا المخ تعد بالبلايين و فقدان كل خلية يسبب نقصا.

و ربنا الغفور ذو الرحمة ، فلو لا غفرانه ، إذا لسلبنا بعض النعم بسبب غفلتنا عنها و عن شكرها ، كما انه برحمته ، يفيض علينا من نعمه التي لا تحصى.

التكبر اسبابه و جزاؤه

هدى من الآيات

من الذي تحق عبادته ؟ الذي خلق و انعم و غفر و رحم أم الذي لا يخلق ذبابا ؟ حول هذا كان الدرس السابق.

و نكرر من الذي تحق عبادته ؟ الله الذي يعلم السر و أخفى ، أم الذين يدعوهم المشركون ، من الأصنام التي لا تخلق شيئا وهم يخلقون ؟ و ليس فقط لا يعلمون السر ، بل ولا يملكون الحياة ، و لا شعور عندهم حتى يبعثون يوم القيامة ؟!

و الله إله الخلق أجمعين ، واحد لا شريك له ، أما المشركون فهم لا يؤمنون بالآخرة و السبب ان قلوبهم جاحدة للحق لصعوبته عليها ، و لأنهم يفتشون عن العلو فهم مستكبرون.

حقا يعلم الله سرهم و اعلانهم ، و الله لا يحب المستكبرين الذين يبتغون علوا في الارض ، فيخالفون الحق بوعي و اصرار ، لذلك يستصغرون الحق الذي هبط عليهم من الله ، و يقولون انه اساطير الأولين.

و هؤلاء يحملون اثقال ذنوبهم من دون ان تنقص عنهم بالتبرير ، و يحملون أيضا شيئا من ذنوب الناس الذين يضلونهم و لبئس ما يحملون.

و أن المستكبرين يمكرون في آيات الله ، و يحاولون منع الناس عنها بشتى الحيل ، كما فعل الذين من قبلهم ، و لكن الله ينسف بناءهم من الأساس فاذا بالسقف ينهدم عليهم و يهجم عليهم العذاب من حيث لم يحتسبوا.

أما في يوم القيامة فان الله يذلهم بان يقول لهم شماتة : اي الذين كنتم تعبدونهم من دون الله و تشقون عصى الوحدة من أجلهم ؟! فيسكتون . أما اهل العلم فانهم يقرون للمشركين الخزي و السوء لكفرهم.

و من هم الكافرون ؟

انهم الذين يظلمون انفسهم ، و عند الموت يتبرأون من افعالهم ، و ينكرونها ، و يدعون انهم لم يكونوا يعملوا شيئا من السوء ، بيد ان الله يخبرهم بعلمه بأعمالهم فيدخل كل منهم في النار ، من باب الذنب الذي أرتكبه و يبقى خالدا فيها ، و تلحقه اللعنة بسبب تكبره في الارض.

بينات من الآيات

من نعبد ؟

[19]علم البشر محدود و يتكامل عبر مراحل ، و يختص بظواهر الأمور ، و الله محيط علما بالسر و العلن ، و بالسر قبل العلن ، لأن كل شيء يقع في السر قبل ان يعلن عن ظهوره.

]و الله يعلم ما تسرون وما تعلنون[

[20]و من يعلم السر والعلن احق بالدعوة ، ممن لا يخلق ولا يعلم!!

]و الذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا و هم يخلقون]و السؤال من هم هؤلاء ؟

قالوا :هي الاصنام ، و يبدو لي أنهم الطغاة و المستكبرون الذين ترمز اليهم الأصنام ، و وفق هذه النظرة نجري في تفسير الآيات التالية.

[21]إن اول صفات الالهة المزيفة هي انها أموات ، لا علم لهم و لا قدرة الا بقدر ما يهب الله لهم من علمه و قدرته.

[أموات غير أحيا]
وربما جاء التأكيد على انهم غير احياء ، لان المراد بالأموات ليس حقيقة الموت ، فوجب التأكيد.

[و ما يشعرون أيان يبعثون]

أي انهــم ينتظـرون الجزاء لكفرهم من دون معرفة يومه ، فهم مسؤولون أمام اللــه.

قال الطبرسي (ره) و هو يفسر الآيات : الاصنام اموات غير احياء ، و أكثر كونها امواتا بقوله غير احياء ، لنفي الحياة عنها على الإطلاق ، و ما يشعرون ايان يبعثون معناه : و ما تشعر هذه الأصنام متى تبعث للجزاء ، و قيل في الآية هم اموات يعني الكفار في حكمالأموات ، لذهابهم عن الحق و الدين و لا يدرون متى يبعثون ! (١)و إذا فسرنا الآيات بالارباب الذين هم بشر ، لا نحتاج الى هذه التفسيرات و الوجوه البيعدة عن ظواهر الآيات.

(1)عن كتاب نور الثقلين / ج ٣ - ص ٤٨

[22]أما الاله الحق الذي ينبغي ان تخلص العبادة له فهو الله . و ليس عدم ايمان البعض به الا بسبب نقص فيهم ، حيث ان قلوبهم منكرة تستبعد ما يرد عليها من الحق.

[إلهكم إله و احد فالذين لا يؤمنون بالأخرة قلوبهم منكرة]و سبب جحودهم هو طلب العلو و الإستكبار.

[و هم مستكبرون]

[23]و لكنهم يخفون السبب الحقيقي لجحودهم وهو الأستكبار ، و تكريس عبادة الذات ، بينما الله يعلم اسرارهم و اعلانهم ، و يكره حالتهم هذه.

[لا جرم أن الله يعلم ما يسرون و ما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين]كلمة لا جرم مأخوذة من الكسب (حسبما جاء في المجمع عن أبي مسلم) يعني لا يحتاج معرفة هذا الأمر الى اكتساب علم ، لأننا نفهمه بلا تكلف و بوضوح . و قال البعض إن (الجرم) بمعنى قطع التمر من الشجر و إذا أضيف إليه (لا) فانه يعني ليس هناك شيء يقطع هذاالأمر أو يخالفه.

[24]و لكي يغلفوا استكبارهم بتبرير مقبول عند الناس ، تجدهم يحسبون انفسهم تقدميين ، و ينسبون الأفكار الصحيحة الى العصور الماضية ، و كأن الزمن يعتق الحق و يجعله باليا.

[و إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا اساطير الأولين]و الأساطير جمع أسطورة - في مثل وزن أحدوثة - و هي ما كتب و ربما توحي اللفظة بما كتب باطلا.

جزاء الاستكبار

[25]إن المستكبر يرى في الحق عدوه الخطير ، لأنه يريد ان يستغل الناس و يبسط عليهم جناح طغيانه ، و اذا كان الناس عارفين بالحق فلن يسمحوا له بذلك ، لذلك يبث الدعاية تلو الدعاية ضد الحق ، و لكن ما هي العاقبة ؟

ان عاقبته تحمل اوزار الذين يضلهم بدعاياته ، بالأضافة الى اوزاره.

]ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة و من أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون]و الأوزار هي اثقال الذنوب ، باعتبار ان الذنب لا ينتهي بل سوف يبقى كثقل يتحمله صاحبه يوم القيامة ، و قد يشترك اثنان في تحمل وزر ذنب دون ان يخفف احدهما عن الآخر ، و قد جاء في الحديث النبوي الشريف:

"مـــن سن سنة حسنة كان له اجرها و اجر من عمل بها دون ان ينقص من أجره شيء ، و من سن

سنة سيئة كان له وزرها و وزر من عمل بها "و الآية توحي بان فرض السيطرة على احد ، إذا لم تكن في طريق يعلم الفرد سلامته ، يعتبر جريمة كبيرة.

[26]و لا يكتفي المستكبرون بالدعاية ، بل يتأمرون ضد الحق و جبهته بشتى انواع المكر و الخدع ، و مكرهم يشبه مكر الذين كانوا من قبلهم ، و كيف ان الله نسف أساسهم حتى وقع عليهم السقف.

]قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم]هبط السقف بسبب تزلزل القواعد التي قام عليها و هم تحته.

[وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون]

فهم كانوا يزينون السقف ، و يحاولون المحافظة عليه ، فاذا السقف ينهدم بسبب نسف قواعده.

ان آيات سورة العنكبوت قد تكون افضل تفسير لهذه الآية ، حيث ان الكفار الذين اعتمدوا على الماء ، و بنوا بناءهم على قواعد الحضارة ، غرقوا في البحر فتلاشوا كقوم فرعون ، و كذلك الذين ركنوا الى مناعة بيوتهم كعاد دمروا بالريح و بالصخور التي بنوا بناءهم بها و هكذا كل قوم اعتمدوا من دون الله على قواعد مادية اتى عليها الله ، و دمرهم بها و هم لا يشعرون ان خطأهم الأكبر كان اعتمادهم على هذه القوة الزائلة.

[27]ثم عذابهم في الدنيا لا العذاب في الأخرة بل ان استكبارهم سوف يجر اليهم العار و الخزي.

[ثم يوم القيامة يخزيهم و يقول أين شركآءي الذين كنتم تشقون فيهم]أن تشقون عصى الوحدة من أجلهم ، أو بتعبير آخر كنتم تتعبون انفسكم دفاعا عنهم ، تناضلون جبهة الحق من أجلهم ، و كان الحري بكم ان تحاربوهم.

[قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم و السوء على الكافرين]فلهم عذاب نفسي هو العار ، و عذاب جسدي يسؤوهم ، و هذه الآية توحي بقيمة العلم و فائدته . حيث ان أعظم سبب لإستكبار المستكبرين و استغلالهم للناس هو انعدام العلم عند الناس.

[28]و هل الكافرون هم الذين يجحدون بالسنتهم ، أو ان كل مستكبر عن الحق و ظالم لنفسه يواجه ذات العذاب ؟

[الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم]

أي في الوقت الذي كانوا يظلمون انفسهم ، أما من تاب قبلئذ فحسابه يختلف.

[فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء]

بالرغم من انهم قبل ذلك كانوا يستكبرون ، و يحسبون انفسهم فوق الحق ، و فوق المسؤولية ، فوق القانون و يستضعفون الناس.

[بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون]

إن الإستكبار يبدأ من ظلم الناس و استصغارهم و قد يرتكبه واحد من ادنى الناس تجاه من هو ادنى منه . جاء في نص شريف مأثور عن الأمام أمير المؤمنين) عليه السلام: (

"و من ذهب يرى ان له على الآخر فضلا فهو من المستكبرين. "

فقلت :انما يرى ان له عليه فضلا بالعافية اذا رآه مرتكبا للمعاصي ؟ فقال " هيهات هيهات فلعله أن

يكون قد غفر له ما أتى ، و أنت موقوف تحاسب أما تلوت قصة سحرة موسى " (١. (

[29]آنئذ يساقون الى ابواب جهنم ، كل جزء منهم يدخلها من الباب الذي اختاره في الدنيا لنفسه ، فمنهم من اختار باب الطغيان على العباد ، و منهم من اختار باب طاعة الطغاة ، و منهم من يدخل من باب الفساد في الأرض و هكذا.

(1)الجزء ٦ - الصفحة ٣٥٥) الكلام منقول بتصرف و اختصار. (

[فأدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين]الذين استكبروا عن الحق ، و استكبروا في الأرض و كانت قلوبهم منكرة.

و آيات هذا الدرس اذا ما قسناها بآيات الدرس السابق التي كانت حول العلم رأيناها تعالج حالة التكبر عن الحق التي هي أخطر أعداء العلم ، و تتدرج من الإنكار الى الإستكبار الى التكبر . كما ان الآيات السابقة كانت تتدرج من التفكر الى التعقل الى التذكرة الىالشكر فالهداية.

بينات من الآيات

جزاء المتقين

[30]تلك كانت نظرة المستكبرين الى الرسالة ، أما المؤمنون الذين أتقوا فلم تحجب الذنوب عقولهم عن فهم الحقائق فإذا سئلوا عن الرسالة قالوا أنها خير.

]و قيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا[

و لا يذوق حلاوة الايمان غير المتقين و ابرز سمات المتقين هو الأحسان الذي يثمر حسنات في الدنيا و الآخرة.

]للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة و لدار الآخرة خير و لنعم دار المتقين][٣١] أما دار المتقين فهي متمثلة في جنات خالدة.

]جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون]و هذا الإطلاق يدل على ان اهل الجنة تتحقق امانيهم هناك ، فهم راضون عن وضعهم بالكامل ، و هذا الرضا لا يتحقق ابدا في الدنيا ، حتى قال قائلهم : ما كلما يتمنى المرء يدركه ! و هذا فارق كبير بين أهل الجنة و أهل النار.

]كذلك يجزي الله المتقين[

أما غيرهم من المؤمنين فأنهم يظلون في نار جهنم حتى تذهب آثار الذنوب التي ارتكبوها ، و بعدئذ يدخلون الجنة.

[32]و المتقي يبقى في خطر عظيم حتى يأتيه اليقين و هو الموت ، اذ يخشى ان تزل قدمه قبل ان يصل الى نهايته فاذا استمر على الهدى حتى الموت فهو الطيب.

]الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون]و بالرغم من أن هناك مسافة زمنية واسعة بين الموت و دخول جنات الخلد ، الا ان الملائكة تبشر المتقين عند موتهم بانهم داخلوها حتما ، مضافا الى أنهم يعيشون خلال الفترة في جنان و رياض مماثلة بجنات الخلد ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

[33]أما غير المتقين ، فان أكبر خطأ لهم انهم ينتظرون احاطة الخطر بهم حتى يعترفوا به ، و آنئذ لا ينفعهم ايمانهم ، ذلك أن الدنيا دار اختبار و انما يختبر مدى ايمان الفرد و تقواه ، و قوة ارادته و عقله إذا

انذر بالخطر و أبلغ بالحقائق قبل ان يراها ، أمابعدئذ فكل الناس سواء ، و كل شخص يهرب من الخطر الذي يبصره ، و لكن العقلاءوحدهــم يتجنبون الخطر في الوقت المناسب ، و عندما تأتيهم نذره . و تظهر لهم ارهاصاته.

]هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة[

أي هل ينتظرون الملائكة حتى يؤمنوا ، و اذا نزلت الملائكة انعدم الإبتلاء.

]أو يأتي أمر ربك[

من العذاب ، فآنئذ يؤمنون ، و ماذا ينفعهم ايمانهم اذ رأوا العذاب ؟

]كذلك فعل الذين من قبلهم[

فدمرهم الله شر تدمير.

]و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون[

ان مــثل هؤلاء كمثل رجل يبصر بعينه بئرا فلا يعترف بها حتى يقع فيها و تتهشم عظامه ، فيقول الآن آمنت انها كانت بئرا ! فلماذا إذا زودت بعين ، أو ليس لكي ترى أمامك الطريق ؟! و تتجنب البئر قبل الوقوع فيه.

لماذا زود الانسان بالعقل ؟ أوليس لكي يبصر الغيب ، أما الشهود فيحس به حتى الحيوان !و لماذا زود بالارادة ؟ أو ليس لكي يتحدى الشهوات ، أما الاسترسال معها فانه ليس بشيء ! هكذا الخطر متى يقدر الانسان على معالجته ؟! عندما ينتبه له بسبب علاماته المبكرة، أما اذا أحدق به فكيف الفرار ؟!

[34]هكذا قامت الدنيا على أساس الانتفاع بالعقل و الارادة ، و الكفار لم يستفيدوا منهما.

]فأصابهم سيئات ما عملوا و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤون]اي حل بهم الفكر الذي استهزؤوا به ، فقد انتقم منهم الفكر الحق الذي سخروا منه ، كما ان افعالهم السيئة ، تحولت الى مشاكل و صعوبات دمرت حياتهم.

[35]إذا فأن انتظار تحول الحق المبلغ به الى واقع مشهود خطأ كبير ارتكبه الهالكون من قبلنا ، و علينا تجنبه ، و خطأ آخر هو القدرية ، و الاعتقاد بان الله لم يتركنا أحرارا في تصرفاتنا ، الا لأنه فوض الينا شؤون الحياة فيه نفعل كما نشاء ، و لو كان يريد غير ذلك لأجبرنا على ترك عبادة الطغاة.

]و قال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء]فلا عبدنا المال المتمثل في الرأسمالية ، و لا عبدنا القوة المتمثلة في الطاغوت ، و لا عبدنا التراث المتمثل في الاباء.

]نحن و لا آباؤنا و لا حرمنا من دونه من شيء[

فقلنا هذا حلال و هذا حرام حسب اهوائنا ، كما فعل الجاهليون ، حينما حرموا البحيرة و السائبة ، و كما يضع الجاهليون اليوم قوانين تكبل طاقات الناس . و بتعبير آخر لم نخضع لسيادة السلطة الفاسدة ، و لم نطبق التشريعات البشرية.

]كذلك فعل الذين من قبلهم[

عبدوا الطاغوت ، و شرعوا لأنفسهم ، و ادعوا ان الله فوض اليهم ذلك الأمر ، و لكن لماذا بعث الله الرسل ؟

[فهل على الرسل إلا البلاغ المبين[

فلا الله فوض أمر الحياة الى البشر ، لأنه بعث الرسل ، و لا أنه يريد ان يكره الناس على الهداية ، فاذا لم يكرهم فهو راض عنهم ، لأن مهمة الرسل تنتهي عند البلاغ ، لتبدأ مسوؤلية الأنسان نفسه.

الكلمة البالغة

[36]و هكذا بعث الله الرسل بكلمة بالغة الوضوح : عبادة الله و رفض الطاغوت.

[ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله و اجتنبوا الطاغوت]الطاغوت يفرض نفسه على الناس و لا يكفي السكوت عنه ، بل انه رجس يجب الإجتناب عنه ، يجب التحصن منه ، يجب الحذر ، يجب التمرد و الثورة عليه ، إذا لم يفوض الله أمر العباد اليهم ليختاروا لأنفسهم حكومتهم ، أو ليسكتوا ان شاؤوا عمن يريد استغلالهم و تضليلهم، كلا .. بل اتم حجته عليهم بان بعث في كل أمة رسولا يأتمون به ، و يتفاعلون مع بعضهم ، حتى لا يبقى أحد منهم يقول لم أكن أعلم.

و لكنه لم يشأ ان يكرهم على قبول الهداية.

[فمنهم من هدى الله و منهم من حقت عليه الضلالة]

الذي يهتدي فالله يهديه و لكن بعد ان يختار ذلك ، و الذي يضل فالله يضله و لكن بعد ان يختار ذلك ، لذلك قال ربنا : " حقت عليه الضلالة " أي وجبت ضلالته بعد أن أختار ذلك ، و كل يتحمل مسؤوليته.

[فسيروا في الارض فأنظروا كيف كان عاقبة المكذبين [فلو ان الله يرضى لعباده الكفر ، إذا لم يعذب الكافرين ؟!

[37]و مرة أخرة يؤكد ربنا ان الهدى ليس جبرا من الله ، و لذلك فلا ينتظر أحد ان يأتي نبي يكرهه على الهداية ، و لا يقولن اذا لم يأت من يجبره فما تقصيري . كلا .. انت مسؤول ، و الرسول ليس مسؤولا عنك.

[إن تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل و ما لهم من ناصرين]فلا يسلوا أنفسهم بهذه التبريرات ، ولا ينتظروا أحدا لينصرهم ، كلا لا أحد ينصرهم ، الله وحده هو الناصر ، و أنت اذا اهتديت اليه حصلت على سعادتك المنشودة.

آثار الإيمان بالآخرة

هدى من الآيات

و لكي يتهرب الكفار من صعوبة العلم بالآخرة ، حلفوا بالله الايمان المغلظة ان الله لا يبعث من يموت ! فأكد الله لهم انه قد وعد أن يبعثهم فلن يخلف الله وعده ، و أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة.

والهدف من البعثة تبيان الحق في اختلافاتهم ، و إثبات كذب الكفار لهم ، و ليست هناك صعوبة في البعث فانما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

و في المقابل نجد الذين يتحملون مسؤولية ايمانهم بالحق ، فإذا هم يهاجرون عن أرضهم حين لا يجدون حرية العمل بالحق ، فيعدهم الله حسنة في الدنيا و أكبر منها في الآخرة ، حيث أخفيت عنهم نعمها التي لا توصف ، لأن هؤلاء يصبرون على الأذى ، ويتوكلون على الله في مقاومة الكفار.

و بعضهم يناقش في صدق الرسول لأنه بشر كسائر الناس ، علما بان الله قدبعث من قبله رجالا لا يميزهم عن غيرهم سوى الوحي ، ألا فسألوا أهل العلم الذين ذكروا بالبينات و الزبر . و القرآن ذكر أنزل على محمد (ص) بهدف توضيح الرسالة التي نزلت عليهم تدريجيا ، و الغاية الأسمى لها اثارة عقولهم ، و تحريضهم على التفكير.

بينات من الآيات
العلم دليل الحقيقة

[38]السياق القرآني يتبع عادة أكثر من خط فكري واحد خلال درس أو سورة ، لانه كتاب الله الذي لا يشغله شأن عن شأن ، و اذا تدبرنا في نهايات آيات هذا الدرس الكريم تبين لنا أن السياق يحدثنا أيضا عن العلم ، بالإضافة الى حديثه عن الإيمان بالبعث ، و عن الهجرة في الله ، و عن الرسالة ، بل يكاد العلم يكون الخط الرابط بين موضوعات الآيات هذه ، ذلـــك ان العلم مسؤولية خطيرة لأنه قرين العمل ، و يهتف به فإن وجده و إلا ارتحل ، و لولا العمل بالعلم فإن القرآن لا يسميه علما ، ذلك ان العلم - في الإسلام - ليس مجرد تراكم المعلومات في الحافظة البشرية كما تراكمها مثلا في الكمبيوتر ، بل هو انكشاف المعلومات بوضوح أمام العقل النير . و عندما تنكشف الحقائق فإن العمل وفقها نتيجة فطرية لها .

و لكن هل العمل بالعلم سهل ؟ كلا .. أولم يقل الحديث الشريف:

"حديثنا صعب مستصعب"

فإن أمام العمل عقبات نفسية و واقعية لابد من تجاوزها و التغلب عليها.

و لكي يتهرب البعض من مسؤولية العلم يجهلون ، ويحلفون الإيمان المغلظة على جهلهم.

ومن جهة أخرى فإن العلم بالآخرة يبدو كحجر الزاوية في العلم ، لأن فهم الدنيا و ما فيها من مسؤوليات و قيم و حقائق لا يمكن دون الإعتراف بالآخرة ، و إلا فكل شيء في الدنيا يبدو لغزا و سرا كبيرا.

و من هنا كان إنكار الآخرة بمثابة جهل مطبق بالحياة الدنيا ، هذه التي قد تنتهي في أية لحظة و من حكمة معروفة.

و من جهة ثالثة : العلم بالآخرة ، يجعلنا نؤمن بان هناك حقا ثابتا في هذا العالم ، و اننا سوف نعرفه و نحاسب على أساسه في يوم ما لذلك لابد أن نبحث عنه و ان نجعله هو المحور لتفكرنا و عملنا.

و فقدان محورية الحق يشبه سقوط قاعدة البناء ، كل شيء فيه ينهدم ، فاذا لم يكن هناك حق و باطل واقعيان ، و اذا لم يكن هناك حسن و قبح عقليان - حسب تعبير الفلاسفة - فلماذا ترانا نبحث في العلم ؟ و ما هو المقياس في الصراعات ؟ هل المقياس هو الأنا ، أم الأقوى ، أم ماذا ؟

و يبدو ان الآيتين توضحان هذه الحقيقة:

[و أقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت]القسم فيما لا يعلم الفرد دليل على تأكيده على جهله و فراره من العلم بالحق ، و إلا فلماذا التأكيد على القسم على ان الله لا يبعث الموتى ؟

[بلى وعدا عليه حقا و لكن أكثر الناس لا يعلمون]

إن وعد الله حق ، و قد وعد أن يبعث من يموت ، و أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

يقول العلامة الطباطبائي : (أي لا يعلمون انه من الوعد الذي لا يخلف ،و القضاء الذي لا يتغير لاعراضهم عن الآيات الدالة عليه ، الكاشفة عن وعده و هي خلق السماوات و الأرض ، و العدل و الإحسان ، و التكليف النازل في الشرائع الإلهية) . (١)و قال البعض : أن المعنى لا يعلمون وجه الحكمة في البعث فلا يؤمنون به . (٢)و يبدو أن القرآن ، ينفي علم أكثر الناس كعلم ، لكي لا تتخذ الأكثرية مقياسا ، بل يكون المقيـــاس هو الحق الذي يتبين في الآخرة ، و تنتهي الآية الى بيان حقيقة العلم و مقاييسه ، و الله العالم.

لماذا البعث ؟

[39]من أهداف النشور بعد الموت تبيان الحق ، و كشف زيف الكفار ، و هكذا يكون من حكم الزمان بالآخرة ، الإيمان بوجود مقياس ثابت للحق ، يرجع إليه الناس ، فيحكم بينهم فيما اختلفوا.

[ليبين لهم الذي يختلفون فيه و ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين]فلا يستطيع أحد من أن يبدل الحق بالباطل ، و يخدع نفسه ان الباطل قد أصبح حقا ، لأن راي الأكثرية - حسبما يزعم أغلب الناس - هو مقياس فهم الحق و الباطل ، كلا .. ان وراءنا يوما يميز فيه الحق عن الباطل بوضوح كاف.

[40]و يزعم الكفار أن البعث مستحيل ، و لا يعلمون ان الله لو أراد شيئا ، قال له : كن فيكون.

(1)الميزان / ج ١٢ - ص ٢٤٧ .

(2)مجمع البيان / ج ٥ - ص . 360

[إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون]و تكرار كلمة (القول (ربما جاء لبيان ان الإرادة ليست نعمة في القلب ، أو ترويا في النفس ، كما هي لنا نحن البشر ، انما هو كالقول (فعل) يبدعه الله إبداعا ، و قد جاء في الحديث الشريف عن أبي الحسن - عليه السلام - حينما سأله أحد أصحابه عن الإرادة : من الله أم من الخلق ؟ قال (ع):

"الإرادة من الخلق الضمير ، و ما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل ، و أما من الله تعالى فإرادته أحداثه لا غير ذلك ، لأنه لا يتروى ولا يهم و لا يتفكر ، و هذه الصفات منفية عنه و هـي صفات الخلق ، فإرادة الله الفعل لا غير ذلك يقول له : كن فيكون بلا لفظ، و لا نطق بلسان ، و لا همة ، و لا تفكر ، و لا كيف لذلك ، كما انه لا كيف له " . (١)

واجب الهجرة

[41]و كثير من الناس يتركون ما يعلمون ، ويعملون بالجهل خشية المجتمع الفاسد و الطاغوت ، بينما ينبغي أن يتمردوا عليهما فإذا ظلموا ، و لم يجدوا حيلة ، هاجروا من تلك الأرض ، و أرض الله واسعة ، دعهم يهاجروا لكي يعودوا أقوى الى بلادهم.

[و الذين هاجروا في الله]

أي في سبيل الله ، و من أجل العمل بأوامر الله.

[من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة]

فسوف يهيء الله لهم : أرضا رحبة ، و حياة حسنة ، و حرية و أمنا.

(1)الميزان / ج ١٢ - ص ٢٥٩

[و لأجر الأخرة أكبر لو كانوا يعلمون]

و عليهم ألا يبحثوا فقط عن أجر الدنيا ، و فائدة العلم انه ينقلنا الى رحاب الآخرة و ما فيها من أجر كبير.

[42]كل ذلك بشرط أن يتحملوا الأذى في سبيل الله ، و ألا يستسلموا لضغوط الطاغوت ، ولا ينسوا قضيتهم الرسالية.

[الذين صبروا و على ربهم يتوكلون]

سبيل المعرفة

[43]إنهم يجادلون في رسالة محمد (ص) لأنه رجل مثلهم ، و هل بعث الله إلا رجالا أهم ما يميزهم عن غيرهم الوحي ؟!

[و ما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم]

و على الإنسان أن يبحث عن الحقيقة بنفسه ، فإذا لم يجدها يبحث عمن وجدها من الذين صاغت المعرفة شخصياتهم ، فتميزوا عن غيرهم بمعرفة البينات و الزبر.

[فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون]

فإن كنتم تعلمون فلا يحق لكم تقليد الآخرين ، كما لا يجوز إتباع من لا يعرف شيئا عن البينات و الزبر ، أو يعرف و لكن لم ينتفع بها عمليا فلم يتذكر هو شخصيا بالوحي ، و لم يتعظ بمواعظه الرشيدة ، و هذه الآية و التي بعدها تحدد شروط التقليد ، أو بتعبير آخرتحدد شروط اتباع الجاهل للعالم ، و هما يشيران الى حقائق عقلية فطر البشر عليها.

البينات و الزبر

[44]عالم الطبيعة و عالم التاريخ و عالم الطب و من أشبه ، لا يمكن تقليد أحدهم في شؤون الحياة مما يتصل بالدين ، بل عالم الدين الذي تذكر بالأدلة و عرف المحتويات.

[بالبينات و الزبر]

البينات هي الشواهد الواضحة ، أما الزبر فانها الكتب التي تحتوي على العلوم الإلهية . و لان البينات قد جاءت في آيات قرآنية أخرى مقارنة بكلمة الهدى ، مثل قوله تعالى " :شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان "،فان معناها - حسبما يبدو لي - هو التفاصيل الواضحة للتعاليم السماوية ، بينما الهدى أو الزبر التي تحتوي عليه ، هي البصائر و الإشارات (المحكمات .. (التي فصلت بعضها فقط.

و بناء على هذا التفسير فإن كلمة بالبينات و الزبر متعلقة بقوله تعالى : " أهل الذكر " و قال البعض انها متعلقة بقوله سبحانه : " و ما أرسلنا " و قال العلامة الطباطبائي : (أي أرسلناهم بالبينات و الزبر ، و ذلك ان المعنى في الآيةالسابقة ، أنما هي ببيان كون الرسل بشرا على العادة فحسب ، فكأنه لما ذكر اختلج في ذهن السامع انهم بماذا أرسلوا ؟ فأجيب عنه فقيل بالبينات و الزبر ، أما البينات فلإثبات رسالتهم ، و أما الزبر فلحفظ تعليماتهم) . (١)و أقول : كما أرسل ربنا رسوله بالبينات و الزبر ، كذلك كان أهل الذكر يتذكرون بها ، علما بان المتعلق أقرب الألفاظ السابقة ، و الأقرب هنا : الذكر ،(١ (الميزان / ج ١٢ - ص ٢٥٩ - و قريب منه في المجمع و غيرهما.

خصوصا بإضافة الأهل ، و لا سيما و الكلمة غامضة و أكثر إثارة للتساؤل من كلمة " ارسلنا " ثم إن المتعلق ينبغي أن يكون حسب رأيهم كلمة الوحي لا أرسلنا ، فتدبر.

هدف البعثة

و هكذا انزل الذكر الى الرسول بهدف تحقيق واحد من أمرين:

الأول : أن يكون الرسول قدوة يتبع ، و هذا يشبه التقليد.

الثاني :أن يثير عقول الناس و يحرك الراكد من أفكارهم ، فيحصلون على العلم مباشرة . و الهدف الأول يشمل جميع الناس ، بينما يختص العقلاء بالثاني.

[و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم و لعلهم يتفكرون]

إنما هو إله واحد
هدى من الآيات

ان الذين يعملون السيئات بمكر ، و يعالجونها بأفكارهم معالجة ، ينبغي الا يأمنوا من مكرهـــم ، فقد يخسف الله بهم جانبا من الأرض ، أو يتعرضون للعذاب من حيث لم يتوقعوا ، أو يحيط بهم عذاب الله و هم يبحثون عن المعاش في البر و البحر ، فلا يستطيعون رد العذاب عن أنفسهم ، أو يأخذهم الله بعذابه و هم متيقظون في كل وعيهم فلا يستطيعون رده ، و لكن الله يؤخر عنهم العذاب لأنه رؤوف بهم رحيم.

و لماذا يمكرون السيئات ؟ لماذا لا يعبدون ربهم ؟ أو لا يرون الى خلق الله أنى نظروا كيـف يتحول ظلاله عن اليمين الى الشمائل ، و كل هذا الخلق يسجدون لله خاضعيـن ، بلـى كل ما في السماء ، و كل ما في الأرض يسجد لله ، من الأحياء و الملائكة ، دون ان يستكبروا شيئا ، و هم يخافون ربهم ان يأتيهم عذابه من فوقهم ، و لذلك يطيعون الله في كل ما يأمرهم به.

أما الناس فبعضهم يتخذون الشركاء من دون الله ، بينما أمرهم الله الا يعبدواالهين اثنين ، لأنه لا اله إلا الله الها واحدا ، ينبغي ان يرهب جانبه ، و ان لله كل شيء في السماوات و الأرض ، و له الحاكمية الواجبة ، فلماذا يحذرون غير الله فيعبدونه ؟ !بينما النعم منه و عند النعم يستغيثون اليه ، و لكنهم اذا كشف الضر عنهم يشركون بالله ،كافرين بما آتاهم الله من خير و من كشف الضر ، فدعهم إذا يتمتعون فسوف يعلمون غدا مصيرهم المحتوم.

بينات من الآيات
الحاكمية الإلهية

[45]الله هـو الحاكم ، و له الدين الواجب ، أما الذين يشرعون لأنفسهم الأنظمة الباطلة ، ويبتدعونها بقوة خيالهم ، من أجل الوصول الى أهدافهم السيئة التي يخططون للوصول اليها تخطيطا واعيا ، فانهم لا يأمنون عذاب الله.

[أفأمن الذين مكروا السيئات]

أي مكروا مكرا يعملون به السيئات ، فالهدف كان شيئا ، و لكنهم استخدموا حيلتهـم الشيطانية للوصول اليها ، فهم أكثر ذنبا ممن يعمل السيئات مخطأ أو حسب الصدفة ، فهل أمن هؤلاء مكر الله ؟ مثلا:

]أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون]من فوقهم أو من اطرافهم.

يقول العلامة الطباطبائي : هذه الآية و الآيتان بعدها إنذار و تهديد للمشركين ، و هم الذين يعبدون غير الله سبحانه ، و يشرعون لأنفسهم سننا يستنون بها في الحياة ، فما يعملون من الأعمال مستقلين فيها بأنفسهم ، معرضين عن شرائع الله النازلة منطريق النبـــوة ، استنـادا الى حجج داحضة (واهية (اختلقوها لأنفسهم ، كلها سيئات . و أضاف قائـــلا : السيئات مفعـول مكروا بتضمينه معنى عملوا : أي عملوا السيئات ماكريـن . (١)و كلمة الدين واصبا في السياق تدل على ما استوحاه العلامة الطباطبائي من معنى التشريع في الشرك.

[46]و البشر بحاجة الى الكسب ، و الإكتساب محفوف بالأخطار ، و الله سبحانه يحفظ الانسان حين يسعى لرزقه ، و لكنه اذا شرع لنفسه قوانين باطلة لسعيه ، فقد يتركه الله فريسة للأخطار.

[أو يأخذهم في تقلبهم]

أي في سيرهم في البر و البحر لإكتشاف الرزق.

[فما هم بمعجزين]

لا يهربون من ملاحقة العذاب ، و لا يفلتون من يد العقوبة.

أنواع العذاب الإلهي

[47]عذاب الله الوان:

الأول : العذاب الفجائي الذي لا ينتظره ، و يأتي من دون سابق انذار مثل الخسف و الزلازل.

الثاني : العذاب الذي يسببه البشر بأخطائه كأن يركب البحر فتنقلب به(١) الميزان / ص ٢٦٢ - ج ١٢

السفينة.

الثالث :العذاب التدريجي كأن يعذب الله أمة بالقحط فيموتوا بالتدريج . و لكل لون من العذاب ألم خاص يدعنا نتحذر منه ، و قد حذرنا القرآن منها جميعا . فعن اللون الأول من العذاب و الثاني حذرتنا الآية الأولى و الثانية ، أما عن اللون الثالث فيقول سبحانه:

[أو يأخذهم على تخوف]

قال الطبرسي : التخوف و التنقص و هو ان يأخذ الأول فالأول حتى لا يبقى منهم أحد ، و تلك حالة يخاف منها الفناء و يتخوف الهلاك ، و يقال : تخونه الدهر (1) .و جاء في الحديث المأثور:

"التخوف هو التيقظ"

و الواقع ان معنى التخوف الأصلي هو التيقظ اشتقاقا من كلمة الخوف ، و لكن يسمى الهلاك التدريجي بذلك ، لأن الانسان يخشاه و يسعى جهده لتجنبه ، فلا يستطيع ذلك مما يسبب له ألما جسديا و نفسيا ، و ربما كان هذا اللون من العذاب هو الأكثر ألما ، و لذلك طمأن ربنا عباده بأنه رؤوف رحيم.

[فإن ربكم لرؤوف رحيم]

فبالرغم من استحقاقهم العذاب التدريجي ، الا انه يتابع نعمه عليهم برأفته و رحمته.

(1)مجمع البيان / ص ٣٦٣ - ج ٦.

آيات الخلق و حقيقة العبودية

[48]لماذا الشرك بالله العظيم ؟ أو ليس الكون كله ساجد لله ، خاضع لمشيئته ؟!

[أو لم يروا إلى ما خلق الله]

أو لا يرون ناظرين ما خلق الله من أشياء!!

[من شيء يتفيؤ ظلاله]

أي يتحرك ظلاله من اليمين الى اليسار.

يقول الطبرسي : التفيؤ التفعل من الفيء ، يقال فاء الفيء يفيء اذا رجع و عاد بعدما كان ضياء الشمس قد نسخه ، ويضيف قائلا : الفيء ما نسخه ضوء الشمس ، و الظل ما كان قائما لم تنسفه الشمس ، و يستنتج من ذلك ان معنى الآية يتميل ظلاله عن جانب اليمين و جانب الشمال.

[عن اليمين و الشمائل]

و ربما جاء السياق بلفظ اليمين مفردا بينما جمع الشمائل ، لأنه قد اتخذ جانب اليمين مبدأ الحركة ، بينما جعل جانب الشمال مآلها ، و الحركة تبدأ من مكان و لكنها تسير في اماكن مختلفة.

[سجدا لله و هم داخرون]

كل شيء يسجد لله داخرا خاضعا صاغرا ، بالرغم من أننا نراها و كأنها واقفة ، حيث لا يتحرك الا ظلاله فقط ، و لكنها في الواقع تسجد لله ، تسبحه و تستجيب أوامره ،و في السجود معنى لا نفهمه من الخضوع و هو معنى الفعل.

[49]و كما الأشياء الجامدة التي تتحرك حولها الظلال و هي جامدة ظاهرا ، لكنها تسجد لله ، كذلك الأحياء في الأرض و الملائكة في السماء.

[و لله يسجد ما في السموات و ما في الأرض من دابة و الملائكة و هم لا يستكبرون [بالرغم من عظمتهم بالنسبة الينا نحن البشر الذين نستكبر و نتحدى ارادة الله.

[50]و كل شيء يخشى ربه الذي يشعر انه فوقه قاهره .

[يخافون ربهم من فوقهم]

العـذاب يأتي من فوق و كذلك الثواب ، يقول ربنا : " و في السماء رزقكم و ما توعدون "و هذا هو شعور الفرد أيضا تجاه ربه المحيط به علما و قدرة..

[و يفعلون ما يؤمرون]

[51]و يبقى الانسان بين الخلق أجمعين يخضع لما هو خاضع لله ، يخضع للشمس و القمر و النجوم ، يخضع للأنوار و الأشجار و الأحجار ، يخضع للثروة ، و القوة و الدعاية.

[و قال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد]فلماذا نرهب جانب الطبيعة ، حتى نعبدها ، و لماذا نرهب الطاغوت حتى نستسلم له ؟! ألا فلنخشى ربا واحدا صمدا.

[فإياي فارهبون]

"و مـن خاف ربه اخاف الله منه كل شيء ، و من لم يخف ربه أخافه الله من كل شـيء "إن أكثر ما تتم العبادة من جانب البشر للأشياء ، انما تتم بسبب الهيبة و الرهبة ، الا فلتسقط هيبة الطبيعة الا فلنرهب ربها ! و خالقها فقط!!

تجاوز الخوف شرط العبادة

[52]و اذا تجاوزنا الخشية من الطبيعة ، و تحررنا من رهبتها أسلمنا الوجوه لرب العالمين ، و خضعنا لحاكميته و سيادته القانونية ، و بالتالي لدينه الواجب .

[و له ما في السموات و الأرض]

و من بيده ناصية الطبيعة له السيادة التشريعية.

[و له الدين واصبا]

قال الطبرسي : و صب الشيء و صوبا إذا دام ، و وصب الدين وجب . (١)[أفغير الله تتقون[

لماذا نتحذر ممن لا سيادة له ؟

إن السيادة لله ، و ان التشريع الذي يعكس هذه السيادة هو لله ، و ان مخالفة تشريعه و سيادته هي ما نحذر منه.

[53]و عمليـــا نحن بحاجة الى الله في كل صغيرة و كبيرة ، فما من نعمة الا و هي لله ، و عند فقدها نستغيث به ليعيدها علينا . فله السيادة أم لغيره ؟!

(1)مجمع البيان / ص ٣٦٥ - ج ٦.

[و ما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجئرون]الجؤار : الإستغاثة برفع الصدمة.

[54]و لكنه ما ان يرفع الضر حتى تعود حجب الشرك تفصل بين قلب البشر و ربه.

[ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون]و الشرك هنا قد يعني الخضوع لقانون غير قانونه ، إن لحظات الحاجة هي أكبر شاهد على سفاهة الشرك ، لأننا آنئذ نرى بوضوح شديد عجز الشركاء ، فهل الطاغوت و السلطة السياسية الفاسدة التي تخضع لها هي التي تنقذ من امواج البحر حين تكاد تبتلع السفينة ؟!

أم ان الثروة و الأثرياء تقدر ان تنقذ طفلنا المشرف على الهلاك في غرفة العناية القصوى ؟! من الذي نتوسل اليه آنذاك ؟ أو ليس الله ، فلماذا نعود و نخضع لقانون البشـــر ؟!

[55]إن ذلك كفر بنعم الله التي وهبها الله لنا.

[ليكفروا بما ءاتيناهم]

و الشكر هو الذي يدعم النعم ، أما الكفر بها فصاحبه ينتظر اليوم الأسود.

[فتمتعوا فسوف تعلمون]

فان المتعة اليوم ، تستتبع ندما طويلا طويلا.

لله المثل الأعلى

هدى من الآيات

إن الشرك يقتضي أن يتنازل البشر عن جزء من نعم الله عليه لمصلحة الالهة التي يزعم ان لها تأثيرا حقيقيا عليه ، و لا يحق له ذلك و هذا كذب على الله يتحمل المشرك مسؤوليته غدا.

و ينسبـــون الى ربهم الأمثال السيئة ، فمثلا لأنهم يكرهون البنات ، يجعلون لربهم البنات ، بينما يجعلون لأنفسهم الذكور الذين يشتهونهم ، فحين يبشر أحدهم بمولود أنثى ، يبقى وجهه مسودا لزيادة الغضب الذي يكظمه ، و تراه يتخفى عن الناس ، و هو متردد هل يخفيابنته في التراب أم يبقي عليها على ذلة و هوان ؟

و ساء ما يصفون به ربهم . انهم لإفتقارهم الى مقياس الحق ، و ذلك بسبب كفرهم بالآخرة ، يتخذون أسوأ القدوات لأنفسهم.

فدعهم في غيهم - بالرغم من نسبتهم السيئة لله - فإن الله لو أخذ الناس كلماظلموا أنفسهم ، لما ترك عليها من دابة ، و لكنه - و لحكمة - يؤخرهم الى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة و لا

يستقدمون.

و تراهم يصفون ربهم بما يكرهون لأنفسهم ، و يزعمون أن لهم الحسنى بينما ليس لهم إلا النار ، و انهم مجموعون إليها ، و هذا ليس خاصا بهم ، فلقد بعث الله الأنبياء بهذه الرسالة للناس ، فزين لهم الشيطان أعمالهم ، و هو وليهم اليوم و لهم عذاب أليـــم.

بينات من الآيات

الشرك عبودية و ذل

[56]الشرك عبودية و تقيد ، و فقدان لإستقلال البشر و حريته أمام قوى الطبيعة أو القوى الاجتماعية ، و يتجسد الشرك في الأغلال التي يضعها الإنسان لنفسه باسم الأنظمة و القوانين و يقيد بها حياته ، و عادة ما يقدس البشر هذه الأنظمة.

و بكلمة : الشرك هو تنازل طوعي عن رزق الله لمصلحة الطبيعة أو لمصلحة مراكز القوى.

[و يجعلون لما لا يعلمون]

من الأصنام ، و رؤساء القبائل ، و قادة الأحزاب ، و قوى التسلط ، و كلما لا يعلم الإنسان ان الله أمر باتباعها ، و ان في اتباعها مصلحة الإنسان الحقيقية ، يجعل المشركون لهؤلاء..

[نصيبا مما رزقناهم]

أي جزء من نعم الله ، و ذلك بسبب جهلهم بواقع الأصنام الحجرية و البشرية ،و انها لا تملك لهم شيئا ، و الله لا يرضى أن يتنازل البشر عن حريته و كرامته و عن حقوقه شيئا ، لأنه هو الذي رزقه له لا لغيره.

[تالله لتسئلن عما كنتم تفترون]

[57]للحياة مثلان ، و فيها خطان ، الأول : مثل القيم السامية الكريمة ، و خط القوة و العلم و الحريـة ، و الثاني : مثل الشهوات و الأهواء ، و خط الضعف و الجهل و العبوديـة.

و المشرك يجعل نفسه محور عقيدته ، فيقيس العالم كله بما يشتهيه و يهواه ، و تنقلب عنده المعايير ، و يتخذ مثله من أرذل المثل ، كما يتبع خط الضعف و الجهل و العبودية.

إنـه يصبح أنانيا الى درجة ينسب كل خير الى نفسه و ينسب الى ربه تعالى الكذب ، و بالرغم مـن أن الخيـر و الشـر عنده ليسا هما الخير و الشر في الواقع ، إلا أنه ينسب الى ربه ما يراه هو شرا . إنك تراه ينسب الى الله البنات اللاتي يزعم أنهن منقصة لأبيهن و لكنه يرفض أن تكون له البنات ، و يبحث دائما عن الذكور ، فإذا افترضنا - جدلا - ان البنين خير فلماذا لا تنسب الخير لربك ، بل لنفسك فقط ؟.!

[و يجعلون لله البنات سبحانه و لهم ما يشتهون]

من الأولاد.

مكانة المرأة في الجاهلية

[58]بينما الواحد منهم يشتد غضبه إذا أخبر بانه رزق مولودا أنثى.

و هذا مثـل من واقع المشرك الذي يحرم نفسه من أفضل نعم الله من ريحانته من الدنيا ، من بهجة البيت ، من البنت النظرة ، بسبب جهله و شركه و خضوعه للأعراف الجاهلية ، انه حكم سيء جدا.

ولقد كانت عادة وأد البنات من أسوأ العادات الشركية ، و أول ما بدأ لهم ذلك أن بني تميم غزوا كسرى فهزمهم ، و سبى نساءهم و ذراريهم ، فأدخلهن دار الملك ، و أتخذ البنات جواري و سرايا ، ثم اصطلحوا

بعد برهة و استردوا السبايا فخيرن في الرجوع الى أهلن ، فامتنعن عدة من البنات ، فاغضب ذلك رجال بني تميم فعزموا ألا تولد أنثى إلا وأدوها و دفنــوها حية ، ثم تبعهم في ذلك بعض من دونهم ، فشاع بينهم وأد البنــات . (١)[و إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا[

من شدة الحنق و الغضب.

[و هو كظيم]

يكظم غيظه لأنه لا يجد من ينفس عنه غيظه.

[59]و يتهــرب من الناس خجلا ، و لكي يختلي الى نفسه و يفكر في حل لمشكلته ، فهل يدفن أبنته حية في التراب ، أم يبقيها و يتجرع الهوان و الذل على نفسه ؟

[يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون]أي يحتفظ بالمولود بما فيه من ذل و هوان.

[أم يدسه في التراب]

أي يخفيه في التراب.

[ألا سآء ما يحكمون]

(1)الميزان / ج ١٢ - ص ٢٧٧

عبادة الذات جذر الإنحراف

[60]و الجاهلي الذي لا يؤمن بوجود مقياس للحق غير ذاته ، حيث يجعل أهواءه و شهواته و نزعاته الفردية و الإقليمية ، و الإستكبار على الناس ، و ظلمه للضعفاء ، و يجعل خيالاته و أساطيره الموروثة ، يجعل - بالتالي - كلما يتصل بجانب الضعف و العجز و الاستسلاممثلا أعلى لنفسه ، لأنه لا يرى أن هناك يوما يطبق فيه الحق بلا لبس و لا خداع ولا نقيصة ، فلماذا البحث عن الحق ؟ و لماذا يجعله أساسيا لحياته ، و مقياسا لتقييم الأشياء ؟

و شيئا فشيئا يرحل عن قلبه ذلك الضوء الذي كان يهديه أبدا للحق ، فلا تبقى في قلبه إلا ظلمات الشهوات.

[للذين لا يؤمنون بالأخرة مثل السوء]

و هذه الآية الكريمة تشهد بما شهدت به الآية الأخر في سورة (ص) : " فاحكم بين الناس بالحق و لا تتبع الهوى ، فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب " . (١)فلقد كان نسيان الحساب و يومه سببا للضلالة.

(1)سورة ص / ٢٦

[و لله المثل الأعلى و هو العزيز الحكيم]

إن أعلى مثل يتطلع لتحقيقه البشر ، هو الوصول إلى القوة و الفضيلة ، لكي يحقق الفضيلة بما يملكه من قوة ، و الله عزيز و حكيم ، و من يتبع مثل الله فهو يصل إلى العزة و الحكمة بإذنه.

و القرآن يهدي بهذه الكلمة الى ما يحب به كل منا بوجدانه ، إذ أن هناك خطان خط الهدى و العقل ، و خط الظلم و الطغيان . و من يؤمن بالآخرة سيصل بايمانه بيوم الحساب الى الخط الأمثل.

حكمة الأجل

[61]و لكن لماذا يترك الله العزيز الحكيم الناس يخالفون الحق ، بل ينسبون الى الله الأمثـــال السيئة ؟ أفلا يدل ذلك على رضا الله بما يفعلون ؟ كلا .. انما هي حكمته و رحمتــه.

[و لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة و لكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة و لا يستقدمون]إن كل دابة في الأرض تظلم في أي وقت و بالنسبة إلى أي شيء ، تكفي سببا لعذاب الله ، و لأن الله الذي خلق الأحياء للإنسان و سخرها له ، فان ظلم الإنسان يكفي سببا في هلاك الدواب جميعا ، و هكذا أغرق الله فرعون و جزء من دوابه ، و أهلك الله عادا و ثمود و المؤتفكة و قوم لوط بدوابهم و مواشيهم.

[62]و يكفي الجاهليين ذنبا ما يفترون على الله ، أفلا نرى كيف يجعلون لله تلك البنات التي يكرهونها لهم ؟!

[و يجعلون لله ما يكرهون و تصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى]و يزعمون أن الأولاد الذكور شيء حسن ، و انهم لهم ، كلا .. أن الأولاد فتنة ، و عدم الوفاء بحقوقهم يؤدي بهم إلى وسط النار.

[لا جرم أن لهم النار]

أي حقا ، و بلا حاجة إلى تفكر.

[و أنهم مفرطون]

أي معجلون إلى النار من قولهم : فرط و إفراط ، اذا تقدم ، و الإفراط الاسراف ، و سره ان صاحبه يتقدم الآخرين ، و معنى الآية - على هذا التفسير - ان أصحاب هذه النظرية أول من يدخل النار.

لماذا التسافل ؟

[63]و يبقى السؤال : لماذا هبط هذا الفريق الى هذا الحضيض ؟ لماذا افتروا على الله الكذب ؟

لأنهم عملوا السيئات فزين لهم الشيطان أعمالهم ، فاصبح الشيطان أقرب صديق لهم ، و كان لهم العذاب الأليم.

[تالله لقد أرسلنا إلى إمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم]ربما يدل لفظ اليوم على مرحلة ما بعد التزيين ، سواء في الدنيا أو بعد الموت ، أماهنا فان انحرافهم عن الحق يجعلهم يبحثون أبدا عن شياطين الأنس لاتباعهم ، أما في الآخرة فان هؤلاء الأشخاص يقودونهم الى نار جهنم.

[و لهم عذاب أليم]

الكتاب مقياس الحق و مظهر الرحمة

هدى من الآيات

إن للحق مقياسا يتجسد في الآخرة في الحساب ، و يتجلى في الدنيا بالكتاب الذي أنزله الله لفــض الخلافات ، و إيصال الناس إلى صميم الحق ، و توفير الرفاه لمن يؤمن منهم بــه.

و الكتاب مظهر لرحمة الله ، كما ماء السماء الذي يحيي به الله الأرض بعد موتها ، و من يسمع حق السمع يستدل بهذه النعمة على رحمة الله ، فلا يضرب لله الأمثال الباطلة ، بل يهتدي إلى أن لربه المثل الأعلى ، أو ليس الله أودع في حياة الأنعام عبرة ، كيف يسقيالله من بعض الأجهزة و الأعضاء المودعة في بطونها المحتوية على فرث و دم ، يسقينا لبنا خالصا هنيئا لمن يشربه ؟!

و من رحمته انه رزقنا من ثمرات النخيل و أنواع التمور ، و من ثمرات الكروم ، و أنواع الأعناب ما نتخذ منه سكرا حلوا ، و رزقا حسنا ، إن هذه عبر أخرى و آية لقوم يعقلون.

و قد أوحى ربنا الى النحل لكي تتخذ من الجبال بيوتا ، و كذلك تبني بيوتا في الشجر ، و فيما يبنيه الناس من العمارات المختلفة ، ثم أمرها الله بأن تأكل من كل الثمرات ، ثم تتحرك عبر السبل التي جعلها الله لها ، فإذا ببطونها تصبح بإذن الله ينبوعا لشراب مختلفألوانه فيه شفاء للناس ، و هكذا يصل المتفكرون إلى ما وراء هذه الظاهرة من آثار رحمة الله.

و تقلبات الحياة البشرية كيف أنه يخلقه الله ثم يميته ، و البعض من الناس يطول عمره و يصل إلى وضع غير محمود ، حتى لا يعلم بعد علم شيئا.

و هكذا فضل الله بالناس بعضا على بعض فيما رزقهم إياه بحكمته ، فلا يستطيع ذوي الفضل أن يعطوا رزقهم لمن هو دونهم ، و يملكونهم حتى يصبحوا سواء ، و لكن مع كل ذلك نجدهم يكفرون بنعمة الله ، و يتخذون من الرزق وسيلة للاستعلاء.

و هكذا جعل الله للناس ازواجا من أنفسهم ، و رزقهم الذرية و الأولاد ، و رزقهم من الطيبات ، و مع ذلك يتركون نعمة الله و يؤمنون بالباطل المتجسد في الشركاء من دون الله ، الذي لا يملكون شيئا من الرزق من السموات و الأرض ، و لا يستطيعون شيئا.

كل هذه الآيات و غيرها تدل على أن لله المثل الأعلى ، و لا يجوز لنا ان نقيس ربنا بخلقه ، و نضرب له الأمثال الباطلة ، فان الله يعلم الحق و نحن لا نعلم ، و لا يجوز أن يحكم الجاهل على العالم سبحانه!

بينات من الآيات
الكتاب ميزان الحق
[64]كما أن للحق مقياسا ثابتا يتجلى في اليوم الآخر على شكل جزاء ، فلا

تختلط هنالك الشهوات بالعلم ، و لا الخرافات المزيفة للنفس بالحق ، كذلك في الدنيا أنزل الله كتابا ينطق بالحق ، و يفرق الحق عن الباطل.

[و ما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه]و لكن ليس هذا هو الهدف الوحيد ، بل لكي يبلغ الانسان بالكتاب عمق الحق فيهتدي اليه ، ثم ينال بتطبيقه على ذاته رحمة و رفاه جم.

[و هدى و رحمة لقوم يؤمنون]

ان من لا يؤمن بالحق ينتفع بالكتاب فائدة واحدة هي : رفع الخلاف الظاهر بينه وبين الآخرين ، كما استفاد الأعراب من الاسلام قبل أن ينفذ الإيمان الى قلوبهم ، فقد خضعوا للإسلام كحكم سياسي ، فنفعهم تسليمهم له وحدة سياسية ، و لكن بعد أن آمنوا وصلوا بأنفسهمالى الحق ، و نالوا الخير الواسع.

القرآن مطر الرحمة
[65]و كتاب الله كماء السماء يحيي الله به الأرض بعد موتها.

[و الله أنــزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لأية لقوم يسمعون]سوف نستمع الى ثلاث عبارات جاءت كشرط مسبق لإستيعاب عبرة الحياة ، و فهم خلفيات الطبيعة و هي بالتدريج . السمع ، و العقل ، و التفكر ، و هي مراحل العلم الذي يهب الله للإنسان نوره ، ثم يسلبه اذا بلغ أرذل العمر ، و هي مرحلة الإحساس المباشر ، أو التجربة البسيطة الآتية عن طريق السمع ، وهي أقرب الاحاسيس إلى الشؤون العقلية ، كما أنها وسيلة حضارية لنقل تجارب الأجياللبعضها ، و لنقل تجارب

الناس المعاصرين لبعضهم ، ثم تأتي مرحلة الحفظ و تراكم التجارب التي هي العقل حسبما جاء في الحديث الشريف:

"العقل من العقال"

و ان " العقل حفظ التجارب " في النهاية تأتي مرحلة التفكر ، و ذلك بربط التجارب إلى بعضها مما نسميه نحن بالتحليل أو التعقل ، و يبدو أن المعرفة الحق لا تحصل من دون اجتياز المراحل جميعا ، و لكن القرآن الحكيم ربط بين كل مرحلة و بين آية إلهية لحكمة بالغة قد لا نفهمها الا بالتدبر.

الأنعام عبرة و رحمة

[66]و يتجلى اسم الرحمة الإلهي في الأنعام التي نعتبر بها عند أدنى نظرة ، و نتعرف من خلال النظر إليها على الهدف من خلقها ، و ما يتصل بهذا الهدف من هدف أسمى لخلقة البشر هو العلم و العمل.

]و إن لكم في الأنعام لعبرة[

فمن خلال النظر فيها و التدبر في أمورها ، ننفذ إلى الهدف منها ، و لكن كيف ؟

[نسقيكم مما في بطونه من بين فرث و دم]

كيف يميز الله اللبن عن الفرث ، و هي الزيادة التي تهبط إلى الكرش قبل ان تخرج فتصبح سرجينا ، و عن الدم الذي يجري في العروق ليصبح.

[لبنا خالصا]

من الشوائب و الجراثيم.

[سائغا للشاربين]

ففيه الفائدة لخلوصه ، و اللذة لأنه هنيء يحبه الطبع البشري.

[67]و آية أخرى هي الثمار النافعة كالرطب و العنب ، و ما ينتهيان اليه من السكر و التمر و الزبيب.

[و من ثمرات النخيل و الأعناب تتخذون منه سكرا و رزقا حسنا إن في ذلك لأية قوم يعقلون]و لا ريب أن ثمرات النخيل و الكروم من أفضل الرزق مذاقا ، و فائدة طيبة ، أما السكر فقد اختـــلفت كلمات العلماء فيها ، و أمثل القول ما جاء مأثورا عن ابن عباس أنه قال : " السكر ما حرم من ثمرها ، و الرزق الحسن ما حل من ثمرها " (١.)

و قد يوسع في معنى السكر حتى يشمل عدم الأنتعاش ، و لا ريب أن العنب و التمر يسببان انتعاشا ، و الإنتعاش بها لا يبلغ مستوى فقدان العقل حتى إذا زاد منه الشارب.

النحل آية بينة

[68]و هناك رزق الهي يختلف عما ينبت من الزرع أو يجري من الضرع هو : العسل الذي هيأ الله النحل له ، حيث ألهمه أن يبني بيوته السداسية الشكل ، البارعة و البالغة الدقة ، و ذلك في كنف الجبال ، أو في سوق الأشجار ، أو في الأبنية.

(1)مجمع البيان / ج ٦ - ص 371

[و أوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا و من الشجر و مما يعرشون [وقال بعضهم أن العرش هو : الكروم التي تقام فوق ساباط مرتفع.

معنى الوحي

و نتساءل : كيف الوحي ؟

قبل الإجابة لنعرف معنى الكلمة ، و التي يقول عنها اللغوي الراغب : الوحي الإشارة السريعة ، و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز ، أو بصوت مجرد عن التركيب ، أو بإشارة و نحوها.

و قال العلامة الطباطبائي : و المحصل من موارد استعماله : أنه القاء المعنى بنحو يخفى على غير من قصد إفهامه.

(1) فالالهام بالقاء المعنى في فهم الحيوان من طريق الغريزة من الوحي " : و أوحى ربك الى النحل. "

(2) و كذا ورود المعنى في النفس عن طريق الرؤيا " : و أوحينا الى أم موسى القصص " (القصص / ٧ .)

(3أو ورود المعنى في النفس عن طريق الوسوسة " : ان الشياطين ليوحون الى أوليائهم " (الانعام / ١٢١).

(4) و من الوحي التكليم الإلهي لأنبيائه و رسله " : و ما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا " (الشورى / ٥١).

و الوحي من الله الى النحل يتناسب و جو الآيات العام ، الذي يهدينا الى آيات الله في الحياة ، ليبرز دور الالهام في العلم ، ابتداء من إنزال الكتاب إلى العلم الذي يسلبه الله عمن يبلغ أرذل العمر.

حيث ان الآية هذه تشير الى دور الإلهام المباشر من قبل الله في حياة النحل ، فكيف بالانسان ، و ان من يتعالى على الوحي المنزل من السماء فانما يتكبر على أوضح و أبسط الحقائق التي يعيشها في حياته ، و هي النور الذي يضيء له دروب الحياة ، و قد يكون ذلك سببالتسمية هذه السورة المباركة بإسم النحل.

[69] ثم أمر الله النحل بان تأكل من زهرة الأثمار ، و التي هي خلاصة مواد الثمر قبل بروزه ، متخذة السبل الإلهية ، و الأنظمة التي وضعها الله للحياة ، حتى تتحول تلك الزهرات الى شراب سائغ.

[ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا]

أي الطرق المعبدة التي هيأها الله لك ، فقد جعل الله للهواء سبلا كما للأرض ، و هي الأيسر سلوكا و الأقل مطبات هوائية ، و يتعرف عليها الطيارون بصعوبة ، بينما أوحى الله بها إلى النحل و غيره مما يطير بجناحيه.

[يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه]

و العسل يلقيه النحل من فيه ، بعد أن يتفاعل في بطنه ، و لذلك عبر ربنا عن ذلك بأنه يخرج من بطون النحل.

[فيه شفاء للناس]

من أمراض مختلفة ، و يعطي الجسم حيوية و مناعة عن الأمراض.

[إن في ذلك لأية لقوم يتفكرون]

إن النحل هذا الحيوان المستهان في الدنيا ، يأمره الله بأن يحقق هذا الهدف ، و علمه وسائل ذلك و كيف يبني بيته ؟ و كيف يتخذ لنفسه يعسوبا ، و كيف يتوالد ؟ كل هذه السنن الإلهية تستقطب اهتمامنا ، و تجعلنا نعترف خاشعين بأن للكون المهيب إلها يدبر شؤونه سبحانه ، و يبدو أن معرفة أسرار النحل بحاجة إلى بحث مثابر ، و لذلك عقب الله الآية بأن النحل آية للمتفكرين ، بينما لا تحتاج آية الثمرات إلى ذلك الجهد الفكري ، بل إلى حفظ التجارب الزراعية ، لذلك بين السياق هناك ان الثمرات آية لمن يعقلون ، واكتفى في مراقبة الأمطار بالسماع فقال : " لأية لقوم يسمعون " و هكذا تختلف أسرار الحياة فبعضها تفهم بأقل دراسة ، بينما بعضها الآخر تفهم بدارسة معمقة ، و تبقى بعضها متوسطة.

دليل التدبير

[70]و تطورات الحياة البشرية تهدينا إلى تلك الإرادة التي توجه حياتنا ، لقد خلقنا الله و حين يشاء يسترد أمانته منا فيميتنا ، و قد يشاء أن يعمر الفرد طويلا حتى يبلغ سن الدناءة ، فاذا به يفقد ما حصل عليه أيام شبابه من علم و خبرة.

[و الله خلقكم ثم يتوفاكم و منكم من يرد إلى أرذل العمر]أي العمر الأكثر هبوطا ، كما كان في ايام الصبا و الطفولة.

[لكي لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير]

فأصل علم الإنسان هبه الهية . و يزداد بالسمع و الإعتبار و التعقل و التفكر ، بينما علم الله واسع دائم.

حدود الحرية البشرية

[71]و الإنسان حر في الحياة ، و لكن حريته محدودة ، مما يهدينا إلى أن يد الغيب تدبر حياته ، و أن الحرية المحدودة التي يملكها إنما هي لإختباره و ليست من ذاته ، لذلك ترى مواقع الناس في المجتمع و الدرجات العليا أو الدنيا التي يتفاضلون عبرها ، إنها نفوذ إلى إصول تكوينية صعبة التغيير ، أو مستحيلة التغيير ، فلقد فضل الله بعض الناس على بعض في الذكاء ، أو في النشاط ، أو الصحة ، و تهيئة فرص التقدم ، فهل يقدر هؤلاء على تحويل صفاتهم إلى أولئك ؟؟ كلا..

[و الله فضل بعضكم على بعض في الرزق]

و هو النعمة التي يهبها الله للإنسان بسعيه ، و طيب نفسه ، أو امتحانه و ابتلاء الناس به مثل : العلم ، و العافية ، و الأمن.

[فما الذين فضلوا برآدي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء]فلا يقدر الذين فضلهم الله أن يعطوا رزقهم الإلهي لمن هم دونهم ، و لمن هم محكومون لهم.

و التعبير القرآني : " ما ملكت ايمانهم " يوحي بالرقية التي كانت شائعة في أيام نزول القرآن - و يبدو لي - أنه يشمل أيضا كل المراتب الاجتماعية التي يقتضيها التفاضل بين الناس في الكفاءات الطبيعية ، ذلك لأن الكفاءة تقتضي - بالطبع - هيمنة صاحبها على من هو دونه فيها ، فالعلم و القوة يعلوان الجهل و الضعف ، و صاحبهما يملك و لو بنسبة معينة من لا علم و لا قوة له.

و لا أحد ينكر اختلاف الناس من الكفاءة الطبيعية ، و ان هذه الكفاءة لا تقبل التحول من صاحبها الى من هو دونه ، حتى يصبحوا جميعا سواء فيها.

إن نظام الكون قائم على التفاعل بين أجزائه ، و قد أمرت سنة الله في الناس ان يتعاون بعضهم مع بعض مثلما تتفاعل أجزاء الكون ، و لكي يتعاونوا احتاج بعضهم إلى البعض الآخر ، و اختلفت كفاءاتهم ، و لو استغنى الناس عن بعضهم إذا لبقوا كالحيوانات يعيشون أفرادا ، و لم يتقدموا و لا خطوة واحدة في

طريق الحضارة.

[أفبنعمة الله يجحدون]

إن نعمة التفاضل التي تنتهي إلى التعاون و التقدم نعمة كبيرة ، لابد من شكرها عن طريق رضا الناس بها و قبولها كواقع ، ثم انطلاق كل واحد من موقعه في سبل الخير و الفضيلة.

نعمة الأزواج

[72]و الى جانب نعمة التفاضل الطبيعي ، و نعمة الحاجة المتبادلة ، و بالتالي نعمة التعاون الذي فرض على البشر فرضا ، نجد نوعا آخر من الحاجة المتبادلة و التي تؤدي إلى التعاون و هي الحاجة الى الزوج .

[و الله جعل لكم من أنفسكم أزواجا و جعل لكم من أزواجكم بنين و حفدة]فلو لا الحاجة النفسية و الفيسولوجية و الإجتماعية القائمة بين الزوج و الزوجة لما تم هذا التعاون العميق و الواسع بين الزوجين.

إنها نعمة كبيرة ، أسبغها الله علينا ، إذ جعل لنا من أنفسنا أزواجا ، و كأنهنفلقة منا ، انتزعت من كل ابعاد وجودنا ، و كأن كل جزء في الذكر أنفصل عنه جزء في الأنثى ، و انه يبحث عنه حتى يلتقي الذكر بالأنثى ، فتلتقي كل اجزاء وجوديهما الجسدية و النفسية و العقلية.

و من الأزواج ينسل البنين و البنات ، و ازواج البنات و هم الحفدة ، أو ابناء البنين كما جاء في تفسير آخر ، أو أبناء البنات كما جاء في حديث كريم ، و اصل الكلمة مشتق من لفظة الحفد و هو : الإسراع في العمل ، و منه قيل للأعوان " حفدة " لإسراعهمفي الطاعة (١).

و يبدو أن الحفيد هو الفرد الذي يخدم الشخص ، سواء كان ابن ابنه أو ابن بنته أو زوج بنته أو إبنها.

[و رزقكم من الطيبات]

و كلما كثر نسل الفرد زادت نعم الله عليه ، بينما يقتضي الحساب البشري ان يتناقص ، أو لا يدل على أن الله هو الرزاق ؟

[أفبالباطل يؤمنون]

و يزعمون أن رازقهم الأغنياء أو الدولة أو الأصنام .

[و بنعمت الله هم يكفرون]

أي هؤلاء الذين أنعم الله عليهم ، تراهم يكفرون بنعمته ، حيث يتوجهون تلقاء الشركاء من دونه .

(1)مجمع البيان / ج ٨ - ص 373

لماذا الاصرار ؟

[73]أترى الغباء و السفاهة ؟ كيف يترك البشر خالقه الرزاق ، و يتوجه بالعبادة و الطاعة لمن لا يملك رزقا ، و لا يقدر على أن يسلبه رزقه ؟!

]و يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات و الأرض شيئا و لا يستطيعون]و ربما توحي كلمة الاستطاعة بالقدرة التي يكتسبها البشر اكتسابا ، بينما الرزق و الملك قد يأتيان بلا تعب ، و الأصنام لا تملك و لا تستطيع ، أو بتعبير آخر : لا تقدر على شيء من الرزق سعت أو لم تسع في سبيل القدرة .

[74]كيف يشبه البشر ربه بخلقه ؟

[فلا تضربوا لله الأمثال]

فتقولوا : فلان يرزقنا.

[إن الله يعلم و أنتم لا تعلمون]

الله يعلم انه الخالق الرازق ، و البشر لا يعلم شيئا الا بما علمه الله ، فلا يحق للبشر أن يتخيل ربه أو يتوهمه سبحانه ، أو يحدد لفعله كيفا أو مكانا.

يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها

هدى من الآيات

قد يفقد البعض منا القدرة الطبيعية ، إما لقانون إجتماعي أو لنقص طبيعي ، فيقعد به العجز عن أي عمل ، كالعبد المملوك أو الأبكم ، ويضرب القرآن بهما مثلا على واقع الكافر الذي يفقد قدرة الايمان و العدل و الحق.

و الله سبحانه الذي يؤمن به المؤمنون عالم ، قادر ، فعنده غيب السماوات و الأرض ، و تتجلى قدرته في الساعة ، فأمرها مثل خطفة أو أقرب.

و الله مصدر العلم ، أو لم يخرجنا الله من بطون الأمهات لا نعلم شيئا ؟ ثم وهب لنا السمع و الابصار و القلوب بهدف الشكر له!

و الله مصدر القدرة ، فهو الذي سخر الطير في جو السماء ، لا يستطيع أحد أن يحفظهن الا الله ، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون.

و الله مصدر الرحمة ، فقد جعل للناس سكنا في بيوتهم ، كما وفر لهم من جلودالانعام بيوتا خفيفة في السفر و الحضر ، و هيأ لهم من اصواف و أوبار و أشعار الانعام متاع البيت . من فراش و دثار و معاش الى حين الانتقال من دار الدنيا الى دار القرار.

و هو الذي وفر للانسان الظلال و الملابس السلمية و الحربية ، لتقيه من عارية الطبيعة و من بأس بعضهم ، و اتم نعمته على البشر لكي يسلم وجهه الى الله ، و لكنه يتولى و يعرض ، ويكتفي الرسول بابلاغ الرسالة ، لأن الأدلة واضحة إذ يعرفون نعمة الله و لكنهم ينكرونها ، و اكثرهم كافرون بربهم.

بينات من الآيات

ظلم الطاغوت

[75]عندما كانت الملكية المطلقة نظاما سائدا في المجتمعات قبل انتشار نور القرآن ، و كان العبد المملوك لا يقدر على شيء إلا بأذن مولاه . يضرب القرآن بذلك العبد مثلا على واقع ذلك الانسان الذي يقيد نفسه باغلال الشرك ، فيجعل نفسه عبدا لغيره و قد خلقه الله حرا.

[ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء]

و يمكننا ان نضرب ذات المثل من واقع الشعوب التي استعبدها الأقوياء ، و لم يتركوا لها شيئا يتصرفون فيه بحريتهم ، هل هم سواء و من انعم الله عليه بالايمان ، و حرر نفسه من اغلال الشرك و عبودية ذوي الثروة و السلطة و التضليل ؟!

[و من رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا و جهرا هل يستوون]كلا .. الذي اعطاه الله الحرية و زوده بحب الخير فهو لا ينفق رياء ، و لا يكتم انفاقه عن الناس خوفا ، بل ينطلق في انفاقه من ارادته الحرة ، يستهدف مرضاة الله ،و لا يرجو و لا يخشى أحدا.

[الحمد لله]

الذي هيأ للانسان كل فرص الخير ، و وفر له الحرية الكاملة ، و زوده بالأحاسيس الخيرة.

[بل أكثرهم لا يعلمون]

و الجهل آفة الحرية ، و لأن الجهل يتفشى في الأمم الضالة ، فانه يسهل استعبادهم من قبل الطغاة.

ظلام الجبت

[76]كان لك مثلا ضربه القرآن الحكيم من واقع شخص سلبه الطاغوت حريته ، و حوله الى موجود عاجز ، و يضرب الله مثلا آخر من واقع من يسلبه الجبت حريته ، فاذا به كالأبكم الذي ولدته أمه و أذنه صماء لا تسمع شيئا ، فلم يتعلم اللغة و لم يتفاعل مع الحضارة ، و بقيت تجاربه محدودة بحدود ذاته ، كالإنسان الذي ينمو في غابة ، هل يستوي هو و من أوتي العدالة و الاستقامة ؟

[و ضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء و هو كل على مولاه]أي ثقيل على من يلي أمره و يشرف عليه..

]أينما يوجهه لا يأت بخير[

كلما يبعثه الى مكان لا ينفع شيئا.

[هل يستوي هو و من يأمر بالعدل]

فهذا الذي يأمر بالعدل فصيح اللسان قوي الجنان لا يخضع للضغوط و لا يخشى من التهديد.

[و هو على صراط مستقيم]

فهو قادر على أن يحقق أهدافه من أقرب الطرق ان هذان مثلان للمشرك و الموحد ، فبينما المشرك منغلق على ذاته ، لا يكاد ينفتح على العالم من حوله ، بل يجحد بآيات الله و يعبد ذاته ، و لا يسمع و لا يعقل و لا يتفكر ، و لذلك فهو ليس فقط لا يقدر على التخطيطالسليم لنفسه ، بل إذا خطط الآخرون له شيئا لا يقدر على إنجازه ، أقول : بينما المشـــرك هكـذا ، ترى الموحد ليس فقط عادلا بنفسه ، بل و يقود الآخرين نحو العدالــة.

و هذان المثلان يمكن تطبيقهما على الجاهل و العالم ايضا ، لان السياق يتحدث عن العلم ايضا.

[77]و العلم و القدرة عند الله ، و العلم مفتاح القدرة.

[و لله غيب السموات و الأرض]

و لعلمه المحيط بكل شيء.

[و ما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب]

فهو يأمر بها في اقل من رمشة العين فتأتمر.

[إن الله على كل شيء قدير]

و من أراد العلم و القدرة ، فعليه أن يؤمن بالله ، و يتوكل عليه .

[78]هل العلم من ذواتنا نحن البشر ؟ إذا لكنا عالمين منذ الميلاد ؟

كلا ..حينما اخرجنا الله لم نكن نعلم شيئا ، ثم هيأ الرب لنا وسائل العلم الظاهرة و الباطنة ، فأعطانا السمع و الابصار ، كما أعطانا الأفئدة.

[والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا و جعل لكم السمع و الأبصار [و السمع هو : الإحساس الذي يتقدم ذكره في القرآن ، لأنه الاداة الأولى لنقل تجارب الأجيال الى بعضها عبر اللغة ، كما انها تنقل ايضا المفاهيم العامة التي تتجاوز الظواهر الجزئية ، ففائدتها اهم و التعبير عنها يأتي بصيغة مفرد (فلا يقال اسماع) لأن المفاهيم العامة اقرب الى المجردات الكلية ، و يلاحظ فيها العموم الذي يتجلى بالأفراد ، بينما الجزئيات التي تعرف عن طريق البصر يلاحظ فيها التنوع ، فهي اقرب الى الجمع.

[و الأفئدة]

و هي القلوب التي تجمع الأفكار و تحلل المعلومات ، و لولاها لما كانت الحواس مفيدة الا بقدر فائدتها للحيوان أو أقل.

لعلكم تشكرون

[لعلكم تشكرون]

الهدف الأسمى لنعم الله على البشر ليس التكامل الجسدي و المادي ، بل المعنوي و الروحي ، و التعرف على النعم و على اهميتها ، و على الفوائد الكبيرة لها ،و الإنتفاع بها فيما أمر الله ، و فيما خصصت النعم لها ، و التعرف من خلالها بالتالي إلى ينبوع الخير و معدن الرحمة ، إلى الرفيق الأعلى .. كل ذلكم أسمى من الاستفادة الجزئية لهذه النعم حسب الحاجات العاجلة ، و كل ذلك يجمعه معنى الشكر.

و الآية هذه لا تعني أن العقل و بالتالي العلم ينشأ بتكامل طبيعي عند البشر ، بل بالعكس تماما ، إذ أكدت الآية على ان ربنا جعل لنا الأفئدة التي هي مركز العقل ، فمن دون هذه النعمة كيف كان يتسنى لنا العلم ؟

[79]و اشرف العلم معرفة الله ، و لا تتم المعرفة من دون الايمان ، إذ تبقى الشهوات و صفة الشرك كالسدود المنيعة التي لا تدع تيار المعرفة ينفذ الى القلب.

ان الجاحد لا يرى في الطيور التي تسبح في الفضاء الا ما تسجله اداة التصوير ، بينما المؤمن تنفذ بصيرته الى معرفة الله الذي امسك الطيور في جو السماء.

[ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون]اي في الهواء المحيط بالأرض ، و لولا الهواء لما كانت الطيور قادرة على البقاء في الجو ، ولولا الجاذبية المحيطة بالأرض لقذفت الطيور بمجرد صعودهن في كرة أخرى ، أو في الفضاء اللامتناهي.

[80]و هكذا القلب المؤمن الذي أسلم لله يعرف ما وراء نعم الله من عبر و أهداف.

[و الله جعل لكم من بيوتكم سكنا]

اي محلا تسكنون اليه.

[و جعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم و يوم إقامتكم]اي بيوت الجلد التي هي خفيفة للسفر و الحضر.

[و من أصوافها و أوبارها و أشعارها]

أي أصواف الضأن و اوبار الإبل و اشعار المعز.

[أثاثا]

كالفراش و الدثار التي يتمتع بها الإنسان لأجل مسمى.

[و متاعا إلى حين]

[81]تلك كانت نعمة السكن ، و أمتعة الانسان التي تحفظ البشر من اختلاف الحر و البرد ، و ظلال الاشجار تقي السائر في الصحراء حر الظهيرة ، و الكهوف تحمي الانسان من عادية البرد و الحر ، و من الوحوش الضارية.

[و الله جعل لكم مما خلق ظلالا]

كالأشجار التي أنبتها الله في الأرض ليستظلها الانسان.

[و جعل لكم من الجبال أكنانا]

اي مواقع تستترون فيها.

[و جعل لكم سرابيل تقيكم الحر و سرابيل تقيكم بأسكم]فهناك ملابس السلم تقي حر الجو ، و ملابس الحرب) كالدروع) تقي حرالسيف.

[كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون]

هكذا يحوط الله برحمته الواسعة الإنسان الضعيف ، ليعلم حاجته الى ربه ، فيسلم اليه وجهه ، و لا يتجبر عليه.

إذا الهدف الأسمى لنعم السكن و ما يحفظ البشر من شرور الطبيعة هو : دفعه الى التسليم لربه ، ليحافظ بذلك على نفسه من غضب الله.

الهداية بين الإكراه و الإختبار

[82]و لكن لا تبلغ قوة الدفع درجة الإكراه ، فالله يريد ان يهدي الإنسان بما يوفر له من نعم ، و لكنه لا يريد أن يجبره على ذلك ، فاذا أعرض عن الرسالة فليس على الرسول سوى ابلاغ الرسالة اليه.

[فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين]

[83]و ليس النقص في الآيات ، أو في وسائل المعرفة عند البشر ، بل في ارادة الكفر التي عقدوا العزم عليها.

[يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها و أكثرهم الكافرون]

لا يؤذن لهم و لا هم يستعتبون

هدى من الآيات

الذين يتولون و يعرفون نعمة الله و ينكرونها - حسبما ذكرهم الدرس السابق - ينتظرون يوم العذاب الأكبر ، حين يبعث الله شهيدا من كل طائفة من الناس ليشهد عليهم ، فاذا شهد لزمهم العقاب دون أن تجري محاولة لاصلاحهم كما كان في الدنيا ، ثم حين العذاب لا يخففعنهم شفقة بهم ، و لا تعطى لهم مهلة

لدخولها ، و لا تبقى لديهم حيلة الا محاولة يائسة لإلقاء مسؤولية انحرافهم على من اطاعوهم و اتبعوهم من دون الله و هم الشركاء يتبرؤون - بدورهم - من أمرهم ، و سكت الجميع و استسلموا لله ، و تبخرت الافكار التبريرية التي كانوا يفترونها من دون الله.

و لكن الكفار الذين اضافوا الى كفرهم جريمة اضلال الناس ، و قطع الطريق على من أراد مرضاة الله ، لهؤلاء المزيد من العذاب بسبب افسادهم في الأرض و اضلال الآخرين.

بينات من الآيات

من الشاهد ؟

[84]كل جيل من البشر ، و كل فريق من الناس يعيشون في قرية أو ضاحية ، يشهد عليهم واحد منهم ، يكون افضلهم سلوكا و اقربهم الى الله زلفى ، ابتداء من الأنبياء و الاولياء ، و مرورا بعباد الله الصالحين و العلماء العدول ، و انتهاءا بكل من يسبق من حوله في طريق الله خطوة واحدة ، فحتى هذا الأخير شهيد على الآخرين بنسبة تلك الخطوة التي سبق الناس بها الى الله.

[و يوم نبعث من كل أمة شهيدا]

و هذا الشهيد هو امام قومه عند الله ، فان اتبعوه ظاهرا قادهم الى الجنة ، و ان خالفوه ساقهم الى النار ، و شهد عليهم عند رب العالمين.

يقول العلامة الطبرسي : بين سبحانه أنه يبعث فيه (يوم القيامة) من كل أمة شهيدا وهم : الأنبياء و العدول من كل عصر ، يشهدون على الناس باعمالهم . و قال الصادق (ع: (

"لكل زمان و امة امام تبعث كل امة مع امامها](1) "ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون[

اي انهم لا يمكنهم ان يعتذروا ، و لا يحاول أحد ارضاءهم او اصلاحهم كما كان الشهداء يفعلون في الدنيا ، فيسعون من اجل اصلاحهم و الاستماع الى حديثهم.

[85]و يوم القيامة يعرض الظالمون الذين غصبوا حقوق الآخرين ، و اعتدوا(١) مجمع البيان / ج ٦ - ص 378

على حرمات الله ، يعرضون على النار ثم لا يخفف عنهم العذاب و لا تعطى لهم مهلة.

[و إذا رءا الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم و لا هم ينظرون]اما قبل ذلك في الدنيا فانهم قادرون على تخفيف العذاب عن انفسهم بالتوبة ، و تأخيره بالدعاء.

مسؤولية الإنحراف

[86]و يبدأ يومئذ الصراع الساخن بين المشركين ، و بين من عبدوهم من الطغاة و رموز الفساد السياسي و الاجتماعي و الإقتصادي ، فيتبرء كل فريق من الآخر.

[و إذا رءا الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك]و طلبوا من الله ان ينزل بهم العذاب و يتركهم ، لأنهم كانوا - في زعمهم - مجبورين ، كانوا شعبا اعزلا لا حول لهم في مقاومة الطاغوت ، كانوا ابناء قبيلة لا قوة لهم في التمرد على رئيس القبيلة ، كانوا جميعا رعاع لا علم لهم حتى ينتقدوا علماء السوء و وسائل الاعلام المضللة ، إذن ينبغي أن يتحمل القادة العذاب عنهم ، و لكن الشركاء و هم طغاة السياسة و الاجتماع و الاقتصاد تبرؤوا بدورهم.

[فالقوا إليهم القول إنكم لكاذبون]

اي القوا هذا الكلام.

[87]و خضع الجميع ، الشركاء و المشركون بهم ، لله رب العالمين.

[و ألقوا إلى الله يومئذ السلم]

فرفعوا ايديهم خاضعين لله.

[و ضل عنهم ما كانوا يفترون]

فقد زالت عنهم نخوة الجاهلية ، و تلك الافكار الباطلة التي زينوا بها شركهم ، زالت عنهم الاسماء البراقة ، و العناوين ، و الشعارات ، و ما فلسفوا به تسلطهم الباطل ، و ما افتروا على الله كذبا.

عذاب المضل أشد

[88]و لكن لا يعني هذا أن الشركاء متساوون في العذاب مع المشركين ، كلا .. القادة الذين ضللوا الناس أشد عذابا ، لأنهم أفسدوا عقول الناس ، و منعوهم من ممارسة حريتهم و السير في طريق الله.

]الذين كفروا[

بأنفسهم .. كفروا بالله ، و لم يشكروا نعمة الجاه و المال و العلم.

]و صدوا عن سبيل الله[

فاتخذوا هذه النعم وسيلة للتسلط على الناس ، و منع الناس من ممارسة عبودية الله و تطبيق مناهجه .

]زدناهم عذابا فوق العذاب[

أي فوق جزائهم الطبيعي من العذاب.

]بما كانوا يفسدون[

لأنهم صدوا الناس عن سبيل الله ، و افسدوا فطرة الناس بتضليلهم و افتراء الكذب عليهم ، كما صدوا عن سبيل الله عمليا بالإرهاب ، فافسدوا على الناس حياتهم بسلب الحرية و الاستقلال عنهم ، و الآية هذه تدل على أن التضليل نوع من الافساد.

[89] و يبعث الله الرسول شهيدا على الناس في عصره و العصور من بعده ، بعد ان زوده بكل ما ينفعهم ، كتابا .. فيه تفصيل مناهج الحياة ، و يهتدي به من اسلم وجهه الى الله ، كما يوفر له افضل حياة ، و يبشر بحياة افضل في الآخرة.

[و يوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء و نزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء و هدى و رحمة و بشرى للمسلمين]

العلاقات المثلى في المجتمع الاسلامي

هدى من الآيات

لقد بينت الدروس السابقة فضيلة العلم و قيمة التقوى و حاجة الانسان الى المدينة ببنائها و امتعتها و الى نظام اجتماعي توحيدي بعيد عن الشرك ، و الى قيادة سماوية تتجسد في الرسول ، و ها هو هذا الدرس يأمرنا بالعلاقات الاسلامية المثلى بين أبناء آدم . بان يعطى كل فرد حقه ، و أن يزاد له بالاحسان ، و أن يبني الحياة الأسرية على أساس العطاء ، و ان يتقي الفحشاء و المنكر و الاعتداء ، تلك هي موعظة الله الهادفة لتوجيه الانسان.

و ان يحترم الجميع عهودهم و أيمانهم التي أشهدوا عليها الله ، و الا ينكثوا ايمانهم التي أكدوها بينهم ، كتلك المرأة الخرقاء التي كانت تنقض آخر النهار ما غزلته أوله ، فلا تجعلوا اليمين وسيلة للغدر للحصول على نصيب أوفر من الدنيا . و لا لكي يتعالى بعضكمعلى بعض ، ان الله يختبركم باختلافاتكم الطبيعية ، و غدا يبين لكم من كان منكم على حق و من لم يكن ، و لو شاء الله لبين ذلك هنا ، فنصر صاحبالحق بالغيب الظاهر ، و لكنه شاء أن يدعكم احرارا ليسألكم عن اعمالكم ، و لكي يضل من يشاء و يهدي من يشاء حسب حكمته.

فلا تجعلوا الدين وسيلة للغايات المادية ، فتحلفوا كذبا و غدرا فتزل بالكفر قدم كانت ثابتة بالايمان ، و يصيبكم سوء الجزاء بسبب انهيار الثقة بينكم ، و صدكم عن سبيل الله المتجسد في العهد ، كما يسجل لكم عذاب عظيم.

و عهد الله الذي تخونونه أعظم شأنا من المصلحة المادية التي تبيعونه لها ، فان ما عند الله لمن ثبت على عهده خير من مصلحة الدنيا التي تفنى و يبقى ما عند الله فقط ، و الله يجزى الصابرين بخير ما عملوا.

ذلك الخير هو توفير حياة طيبة لهم ، في الدنيا و جزاء حسن في الآخرة.

بينات من الآيات

العدل سنة اجتماعية و واجب الهي

[90]على كل واحد من أبناء المجتمع الاسلامي ان يكون عادلا ، يعطي كل شخص حقه الفطري و القانوني ، و ليس الحفاظ على العدل مسؤولية الدولة فقط ، لان المجتمع الذي لا يشعر أبناؤه بضرورة تطبيق القانون و احترام حقوق الآخرين ، لا يمكن للدولة فيه أنى كانت أنتجبره على ذلك.

[إن الله يأمر بالعدل]

و العدل لا يتنافى مع اختلاف الدرجات الذي تشير اليه الآية الآتية ، إذ قد تكون المساواة أقبح ظلم ، فليس سواء الجاهل و العالم ، الكسول و النشيط ، المضحي بنفسه و الجبان و .. و .. ألخ.

و بالرغم من حاجة المجتمع إلى قانون يحدد أبعاد العدالة ، و حقوق الطبقات المختلفة ، حسب مساعيهم و حاجاتهم و حاجة الناس إليهم ، و مما يجعل للعدالة معان مختلفة حسب القوانين و الأعراف .

إلا ان العدالة واقع فطري لا يختلف البشر في خطوطه العريضة ، و ان اختلفوا في التفاصيل.

ولكن قد يتعاسر الناس في تطبيق العدالة ، فنحتاج الى القضاء الذي لا يرضى عنه كل الخصماء ، كما لا يطمئن الانسان الى نتائجه مائة بالمائة.

الإحسان ضرورة العدل

و لذلك يأمر القرآن بالاحسان ، الذي هو التنازل عن بعض الحقوق للآخرين ، و الذي يسع رحابه العدالة و يزيد .. فيقول:

[و الإحسان]

و يؤكد الاسلام على الاحسان لذوي القربى ليشكل الخلية الأولى في الكيان الاجتماعي.

[و إيتاء ذي القربى]

و جاء في بعض النصوص الاسلامية ان تفسير ذي القربى هو : " أهل بيت الرسول عليهم افضل الصلاة و

السلام " و ان الايتاء هو الخمس المذكور في الآية (41)من سورة الانفال ، وقد نستوحي ذلك من سياق الحديث عن شهادة الرسول على الأمة في الدرس السابق.

[و ينهى عن الفحشاء و المنكر و البغي]

الفحشاء كما قال في المفردات : ما عظم قبحه من الأفعال ، و يبدو من أصل اللفظة أن الفحشاء هي تجاوز الحد ، و الذي يتناسب مع الإسراف و التبذير ، و من المعلوم : ان الإسراف أصل كل خطيئة و رأس كل رذيلة.

اما المنكر فهو الذنوب التي ينكرها الناس.

و يبـــدو ان معناه هو كل فحشاء قبيحة عند الناس ، و هي أشد من سائر أنواع الفحشاء ، بينما البغي هو تجاوز حقوق الناس بصورة علنية ، أو عن طريق الغش و الخداع و .. و..

[يعظكم لعلكم تذكرون]

انها حقائق فطر قلب البشر عليها و هو بحاجة الى من يذكره و يعظه بها.

الوفاء لا النقض

[91]المجتمع الذي يمتلك اساسا لعلاقاته ، و ركيزة يعود اليها عند الضرورة ، يستطيـع ان يتبادل بسهولة ، و المجتمع الاسلامي قائم على اساس الإلتزام بالعهد و اليمين ، اللذين يؤكدان اسم الله.

[و أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها و قد جعلتم الله عليكم كفيلا [فلأن ابناء المجتمع يتمسكون بقيمة التوحيد ، و لأنهم لا يضحون بأيمانهم ابتغاء عرض الحياة الدنيا ، فإنهم يعتمدون على بعضهم في أمورهم الاقتصادية ، و حتى في شؤونهم السياسية.

إن الثقة المتبادلة هي أعظم رصيد يملكه المجتمع المسلم في معاملته مع بعضه ،ذلك لأن شرف التوحيد يأبى لهم ان يغدروا ببعضهم و هم يؤمنون برعاية الله عليهم.

[إن الله يعلم ما تفعلون]

[92]تروي قصص العرب أن امرأة قرشية خرقاء كانت تغزل هي و جواريها عرض النهار ، فاذا أمسى نقضت الغزل ، و تركته كحالته السابقة انكاثا ، لا فتل فيه ولا ابرام ، فنهى القرآن الحكيم أن نكون مثلها ، نتعب أنفسنا في أمر الدين حتى اذا أحكمناه عدنا ننقضه بنكثالعهد و نقض القسم.

[ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة]

اي مثل " ريطة بنت كعب " خرقاء مكة التي غزلت بقوة ، ثم نقضت من بعد قوة.

[أنكاثا]

جـاء فـي)المجمع) : و كل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث ، حبلا كان أو غـزلا.

[تتخذون أيمانكم دخلا بينكم]

أي تستخدمون اليمين وسيلة للغدر ، و الدخل - في الأصل - كلما دخل الشيء ، و ليس منه ، و يكن به عن الخدعة و الخيانة.

[ان تكون أمة هي أربى من أمة]

أي بهدف ان تكون أمة أعلى من أمة اخرى و تتسلط على اختها و تحافظ على سيطرتها بالخداع.

و ما الحلف و العهد ، و ما نوازع السلطة و الاستعلاء إلا ابتلاء الهي.

[إنما يبلوكم الله به]

و لن يصبح الحق باطلا بتضليل الناس ، و لن يصبح السيء صالحا بتبريره للنفس أو للآخرين ، اذ ان هناك يوما يكشف الله فيه الحق لكل الناس.

[و ليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون]

[93]و لكــن لماذا لم يبين الله في الدنيا واقع الخداعين ، المتسلطين على رقاب الناس ؟ ان لهذا حكمتين:

الاولى : ليمنح نعمة الهدايــة للبعض ، و يسلب نور العقل من آخرين حسب اختيارهم هم ، لا حسب علمه سبحانه.

الثانيــة : ليجازي صاحب الخير ، و فاعل الشر بالعمل الذي مارسوه بكل اختيار و حريــة.

[و لو شاء الله لجعلكم أمة واحدة و لكن يضل من يشاء و يهدي من يشاء و لتسألن عما كنتم تعملون]

آثار اليمين الكاذبة

[94]و عــاد السياق ينهى عن الخداع في اليمين ، ويحذر من آثار الفكرية و الاجتماعية.

أ /فمن الناحية الفكرية : حنث اليمين و نكث العهد يسبب ضلالة صاحبه ، فاذا بتلك القدم الثابتة بسبب الايمان تزل بالحنث و النكث ، و ماذا ينفع الثبات فياوضاع عادية ، إنما الثبات عندما تهب عواصف المصالح .

[ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها]ب / و من الناحية الاجتماعية : لا يمكن ان يستخدم الفرد يمينه (و بالتالي شرفه و حسن سمعته عند الناس) إلا مرة واحدة ، و بعدها يكشفه الناس ، بل و تشيع عند الناس فكرة خبيثة هي : أن أهل هذا البلد لا يحترمون اليمين ، فلا يحترم بعضهم يمين البعض ، و اذاسقطت قيمة اليمين الاجتماعية أغلق باب واسع للثقة و للتعاون ، و بالتالي انهار البناء الاجتماعي ، و يذوق الجميع فاجعة تهاونهم باليمين و صدهم عن سبيل الثقة بها.

[و تذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله]

وسبيل الله هو كل خير ، وكل تقدم و عمران و رفاه للناس ، و منع الناس عن سبيل الله . و صدهم عنه قد يكون باغلاق طرق التعاون و اليمين من افضلها ، اذ لا شيء من القوانين و الوثائق و الضمانات و الرهون بسهولة اليمين ولا بقوته في إشاعة الثقة و التعاون.

[و لكم عذاب عظيم]

[95]و كما اليمين العهد الذي يشتري به البعض ثمنا قليلا ، و إن كانت قيمة الثمن الذي يقبضه الفرد بيع شرفه و عهده و ايمانه فانها ستكون قليلة ، لأنها تسقط هيبة العهد فيسد باب كبير للرحمة.

[و لا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون]فمن يبدل رحمة الله ببضع دراهم يكسبها من نكث العهد أو بسلطة زائلة أو ما أشبه ؟!

خلود الجزاء

[96]علما بأن ما عند الله من خير يبقى ببقاء الله سبحانه ، بينما حطام الدنيا يزول بزوال العوامل التي أنشأته.

[ما عندكم ينفد و ما عند الله باق]

إن الحق الذي يضمن الله ثباته ، أبقى من الباطل الذي يضمنه غرور الانسان ، و خداع الشيطان ، لقد خلق الله السموات و الأرض بالحق ، فلذلك تخدم حركة الكون سلطة الحق ، بينما الباطل يجري في عكس حركة الطبيعة و التاريخ.

فطرة الانسان حق ، لأن القوانين النفسية و الجسمية و الاجتماعية السائدة على أبعاد حياة البشر لا تتغير منذ خلق الله آدم و إلى الأبد ، فاذا كانت فطرة الانسان قائمة على أساس الوفاء بالعهد ، فان المجتمع القائم على أساس شرف العهد يكون أبقى ، و خير الله أكثر مما يحصل عليه بعض الأفراد بسبب الغدر و المكر.

إلا ان الحق بحاجة الى الزمن حتى يظهر ، و لذلك فإنا بحاجة الى الصبر حتى يخدمنا الزمن.

[و لنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون]فان طيبات العمل تنمو في عمق الزمن ، بينما يذهب العمل السيء كما يذهب غثاء السيل برغم ظهوره و بروزه ، و قال الحديث : " للباطل صولة و للحق دولة. "

الحق صلاح

[97]الحق في واقع السعي صلاح ، فمن اتبع الحق فان عمله صالح ، ينمو مع نمو الطبيعة ، و يزرع بذلك بذور الحياة الطيبة لنفسه في ارض الزمن المباركة ، ليحصد جزاء حسنا في الدنيا و اجرا كريما في الآخرة.

[من عمل صالحا من ذكر أو أنثى و هو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة و لنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون]و هكذا يغفر الله لمن عمل صالحا سيئات عمله ، و يحفظ له صالحات عمله ليجزيه بها خيرا.

و جاء في حديث مأثور ان " الحياة الطيبة هي القنوع " و لا ريب أنه كنز من كنوز الله التي لا تنفد ، و تطيب الحياة كلما طابت النفس البشرية في مواقفها منها ، فإن الرضا أطيب من كل الطيبات.

و كلمة اخيرة : إن العهد ليس فقط أساس التعامل المالي في المجتمع ، بل قبل ذلك أساس التعاون السياسي ، و اذا انعدم شرف العهد في أمة ، فسوف يبدء بالتشرذم السياسي ، و قديما قيل : " لا وفاء لملك و أن الملك عقيم. "

و لذلك أكد القرآن الحكيم في هذا الدرس على حرمة نقض العهد من أجل سلطة قوم على آخر ، و ان تكون أمة هي أربى من أمة.

كيف نفهم الكتاب ؟

هدى من الآيات

كان الــدرس السابق بعض تعاليم القرآن الاجتماعية الرشيدة التي لا ينكرها الا الجاحدون ، و هي تدل على ان الكتاب من الله ، بيد أن الكتاب لا يفهمه إلا من تخلص من سلطان الشيطان ، ولا يتخلص منه إلا المتوكلون الذين يستعيذون بالله من شره ، اما الذين يقولونه و يجعلونه شريكا في أمورهم بطاعته ، فإن الشيطان يتسلط عليهم ولا يدعهم يبصرون نور القرآن.

و قد ينسخ الله آية بآية لعلمه بالمصالح العامة التي تتغير وفق الظروف ، فآنئذ يجد المشركون فرصتهم

في إتهام الرسول بأنه مفتر ، لجهل أكثرهم بحكم الآيات . كلا .. إن القـرآن كتاب الله الذي أنزله روح القــدس بالحق من الله ، ليكون تثبيتا لايمان المؤمنين ،و هدى لهم ، و بشرى إلى حياة أفضل.

و يقولون : إن الرسول يتعلم من بعض النصارى المبادرين بالاسلام ، دون ان يعرفوا الفرق بين لسان النبي و لسانهم ، فبينما ذلك اللسان أعجمي نرى القرآنيحدثنا بلسان عربي مبين ، و ليس الجدل في القرآن إلا بسبب جحودهم به ، و لا يهدي الله قلبا جاحدا ، بل يذيقه عذابا أليما.

و كيف يفترى الكذب شخص مخلص لربه ، محسن إلى الناس كمحمد (ص) و الذي يعـرف أن الكذب أبعد خصلة عن المؤمن ، و لا يفتري الكذب الا الذين لا يؤمنون بآيات الله ، و اولئك هم الكاذبون حقا ؟!

بينات من الآيات

توكل على الله

[98]القلب البشري يلفه الظلام الآتي من طبيعة الضعف و الجهل فيه ، و من تأثير جاذبية الطبيعة ، و بالرغم من أن هذه النفس قد أوتيت قبسا من نور الحقيقة هو الذي نسميه بالعقل و الارادة ، إلا أن على الانسان أن يتحدى الظلام المحيط بنفسه عن طريق إثارة عقله، و يتحدى ضعفه و يأسه و خوفه بالتوكل على الله.

ان أقوى الحجب التي تمنع النور عن قلب البشر هو : الخوف من الحقيقة ، و الجبن عن مواجهة القوى الفاسدة و الباطلة التي ترفض الحقيقة.

الاستعاذة بالله ، و الطلب المباشر منه لكي يحفظ الانسان من خطر القوى التي ترفض الحق ، إنه العلاج المباشر لمشكلة الخوف من الحقيقة ، و لمقاومة سلطان الشيطان على القلب.

[فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم]لكي نبلغ قمة الحقيقة المتمثلة بالقرآن لابد أن نتجاوز جاذبية الارض ، و القوة التي بها نقاوم هذه الجاذبية المتجسدة في الشهوات هي قوة التوكل على الله ،و الاستعاذة نوع من التوكل ، و تفترق عنه في أن الاستعاذة طلب ملح من الله بإنقاذ الانسان من شر محدق ، و أي شر أخطر من شر العقيدة الباطلة ، أو من شر الجهل بالحقيقة الذي تخلقه وساوس الشيطان في القلب ؟!

و في طول فترة تلاوة القرآن لابد أن يستعين البشر بربه.

التوكل حصن المؤمن

[99]الشيطان ينفذ الى قلب الشخص ، و يتجسد في شكل القوى السياسية و الاجتماعية المحيطة به ، و لكن المؤمن الذي يتوكل على الله يحفظه الله من هذا الشيطان الذي يجري فيه مجرى الدم.

[إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون]بينمـا الـذي لا يؤمن بالله يتسلط عليه الشيطان ، فيضله عن الحقيقة لضعف إرادتــه.

[100]الذي يتخذ الشيطان وليا و قائدا مطاعا ، فيشرك بالله و يتخذ من الشيطان شريكا مزعوما لله ، و يعبد الله حينا و يعبد و يطيع الشيطان حينا آخر ، إنه يقع في فريسة الشيطان الذي لا يستطيع ان يتخلص من شره إلا بالاستعاذة بالله.

[إنما سلطانه على الذين يتولونه و الذين هم به مشركون]يبدو أن هناك فريقين يتسلط عليهما الشيطان ، ، انسيا كان شيطانهما أو جنيا ، ظاهرا كالطغاة و المستكبرين ، أو باطنا كالعقائد الفاسدة و العقد النفسية.

الفريق الاول : الذين يتخذون الشيطان وليا ، و يخلصون الإنتماء اليه كمثلائمة الكفر ، و الملأ من حول الفراعنة ، و البطانة من حول الطغاة.

الفريق الثاني : الذين يطيعون الشيطان خوفا و طمعا و سواء هذا الفريق أو ذاك فانهم جميعا يصبحون

عبيد الشيطان ، و يفقدون حريتهم و استقلالهم و ثرواتهم التي يصادرها الشيطان.

القوى الاستكبارية في الأرض المتمثلة اليوم في " امريكا " و " روسيا " و اقمارها المفسدين ، لم يفوضوا بالسيطرة على الشعوب المستضعفة من قبل الله الحكيم سبحانه ، إنما نحن الذين خضعنا لإيدلوجيتهم فأخضعونا لمصالحهم ، أو خضعنا للثروة والقوة رهبا و رغبا ، فامتلكوا دوننا ناصية الثروة و القوة ، و أستعبدونا صاغرين.

و الآن كيف نتخلص ؟

لابد أولا من التحرر عن إيدولوجية الاستعمار ، و عن التبعية المطلقة للمال و الرجال ، ثم العودة الى الله ، و الاستعاذة به من شر الشيطان ، ذلك لأن الطبيعة ترفض الفراغ ، و القلب البشري ينقاد إما لسلطة الله أو لتسلط الطاغوت ، فإذا رفضنا ولاية الله استعبدنا الشيطان ، و لا حياد بين الحق و الباطل ، كما لا مسافة بين الكفر بالله و رفض حاكميته على الإنسان ، و بين الايمان بالطاغوت و الخضوع لتسلطه و استغلاله.

و السيـاق القرآني يشير إلى هذه المعادلة ، إذ يأمرنا ربنا بالإستعاذة بالله و التوكل عليه ، ثم يبين أن الشيطان عاجز عن التسلط على المتوكلين بالله.

و نتساءل معا : هل تعني الاستعاذة مجرد التوجه القلبي الى الله ؟ أم ان تطبيق مناهج السماء في الوحدة و الصبر ، و الاستقامة و السعي ، و القيادة الرشيدة ، كل أولئك بعض معاني الاستعاذة بالله ، و بالتالي طرق مقاومة العبودية للشيطان الانسيو الجني ؟؟

شيطان الفكر

[101]الشيطان الثقافي أخطر على الانسان من زملائه شياطين الثروة و الارهاب و الزينة ؟؟

ذلك لان قدرة الانسان على التمييز بين الحق و الباطل ليست عالية ، و ذلك لسبب بسيط أن القلب البشري يتعرض لعواصف الشهوات ، فيخبو ضوء العقل ، و لو لا تدخل قوة غيبية هي قوة الايمان و التوكل ، فإن رياح الشهوة تكاد تطفئ مشعل العقل.

من هنا كانت الشبهات خطيرة ، و من هنا ايضا لم يتخلص حتى المؤمنون من وساوس الشيطـــان ، فغفر الله لهذه الأمة المرحومة ما يوسوس به الشيطان إذا لم يعتقد به المؤمــن.

و من الشبهات ما أثاره الشياطين حول تبدل الأحكام الشرعية وفق متغيرات الظروف فقالوا : إذا كان الرسول صادقا إذا لم يأت كل يوم بقانون جديد و مخالف للقانون السابق ؟ بل قالوا : إذا كانت رسالات السماء صادقة إذا ما اختلفت شرائعها ؟!

و لكن الله أعلم بما ينزل ، و هم جاهلون و لا يعلمون أن الحياة تتغير ، و كل قانون يناسب وضعا معينا ، فإذا نزل فيه كان حكيما ، و إذا تخطاه كان سفها.

[و إذا بدلنا آية مكان آية و الله أعلم بما ينزل [فهو عالم بحكم النسخ و التغيير.

[قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون]

و اذا ترسخت هذه الشبهة في قلب فليس من السهل إزالتها ، لذلك كان علينا الاستعاذة بالله ابدا حين قراءة القرآن ، بل حين دراسة أية قضية علمية حتى لا يختلط الحق و الباطل في أذهاننا.

[102]إن الذين يكذبون و يبدلون آراءهم كل يوم ، بل بين ساعة و أخرى إنما يتبعون أهواءهم ، بينما الكتاب نزله الله بسبب روح القدس المعصومة عن الزلل ، و المقدسة عن الأهواء ، و حكمة هذه الروح التي ترافق الرسول أن تثبت المؤمنين و تعصمهم من غواية الشيطانو من شبهاته.

[قل نزله روح القدس من ربك بالحق]

فالحق المتمثل في سنن الله ، في الآفاق و الانفس ، هو باطن آيات الله ، كل آية مظهر لسنة إلهية راسخة في ضمير الخلق . و السنن ليست واحدة و كذلك الآيات .و الاختلاف بين الخلق موجود ، و دليل على وحدة خالقهم ، كذلك الإختلاف في آيات الله الكاشفة لتلك السنن موجود ، و كاشف عن علم الله سبحانه.

[ليثبت الذين ءامنوا]

فالذين آمنوا يعتصمون بروح القدس ، و يظلهم روح القدس بقبس من نوره.

[و هدى و بشرى للمسلمين]

فمن أسلم وجهه لله ، هداه الله بالقرآن و بشره بحياة طيبة ، و اذا تكامل فانه سوف يصبح مؤمنا ، و المؤمن يملك قوة الهية تحفظه من كيد الشيطان ، و من شبهاته و هذا يسمى بالعدالة ، و يقولون خطأ أنها ملكة في النفس ؟؟

من شبهات الشيطان

[103]و شبهة اخرى يطرحها الشيطان.

[و لقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي [يلحدون : أي يميلون . فقد قالوا : أن رجلا اسمه (ابو فكيهة مولى بني الخضرمي) كان اعجمي اللسان ، و كان قد اتبع نبي الله و آمن به ، و كان من أهل الكتاب ، قالوا أنه يعلم الرسول!!

و بعض التفاسير تقول : إنه غير هذا الرجل ، و لكنه على أي فرض كان أعجمي اللسان ، و القرآن نزل بلغة عربية واضحة.

[و هذا لسان عربي مبين]

الرد على الشبهة

إن الترجمة طابعها مهما كانت بلاغة المترجم ، لان كل لغة تعبر عن ثقافة خاصة صيغت تلك اللغة على مقاسها ، و اللغة العربية لم تكن قادرة على التعبير بدقة عن الأفكار الدخيلة ، و لم تكن واضحة بذلك الوضوح المتناهي في البلاغة و النفاذ الى القلب ، لو لا أنملقيها قد تعمق في فهم المحتوى ، و اهتدى إلى الموضوع الذي يعبر عنه ، و واضح أن التعبير المفصل لا يكون من دون فهم عميق للفكرة ، فكيف يعبر الرسول عن كل تلك الأفكار المفصلة و الدقيقة إذا كان مجرد مترجم ؟!

[104]ثم ان القلب الذي لا يؤمن بالله لا يقدر أن يعبر عن الله ، و أن ينطق باسم الله بهذا الوضوح و الصراحة و القدرة ، ذلك لأن.

[إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم][١٠٥] و المؤمن بالله لا يفتري على الله ، خصوصا و رسول لله اكد بوضوح مدى جريمة الإفتراء على الله ، فكيف يرتكب بنفسه لو كان مؤمنا هذه الجريمة ؟!

[إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله و أولئك هم الكاذبون]الذي يؤمن بآيات الله ، و شخص رسول الله هو أظهر مصاديقه بلا ريب ، فإنه يخشى من الكذب ، بل إنه قوي لا يحتاج الى الكذب ، و عالم لا يتورط في الكذب.

و لذلك جاء في الحديث النبوي : عن عبد الله بن جراد أنه سأل النبي (ص) قال " : هل يزني المؤمن ؟

قال : قد يكون ذلك ! قال : هل يسرق المؤمن ؟ قال : قد يكون ذلك ! قال : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا " (ثم اتبعها نبي الله) (ص " (انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون. "

عاقبة الإرتداد

هدى من الآيات

في الدروس السابقة حذرنا الرب الكريم من الكفر بعد الايمان ، و الزلل بعد الثبات و ذلك بمناسبة الحديث عن النكث و الحنث . و ها هو الدرس يفصل القول في الكفر بعد الايمان بصفة عامة ، فيحذر من غضب الله الذي يحل بمن يرتد عن دينه - قولا أو عملا - إلا الذي أكره على الكفر بطريق لسانه ، بينما لا يزال قلبه مطمئنا ، و إنما المرتد من استقبل الكفر بصدر رحب و ذلك له عذاب عظيم ، لانه فضل الحياة الدنيا على الآخرة ، فسلب الله منهم نور الهدى ، و يطبع الله على قلوبهم و سمعهم و أبصارهم و هم غافلون عن أوضح الحقائق منحولهم ، و بالتأكيد سوف يخسرون أنفسهم في الآخرة.

بينما الثابتون على الهدى برغم ما يتعرضون له من مكروه ، و يهاجرون الى الديار الآمنة من بعد الإبتلاء ، فان الله بالنسبة اليهم غفور رحيم ، يشملهم برحمته في يوم تأتي كل نفس تدافع عن ذاتها ، فلا تعطى إلا جزاء عملها الأوفى ، دون أننظلم من عملها شيئا.

و أما من يكفر بعد إيمانه فإن الله يضرب له مثلا من واقع قرية كانت آمنة مطمئنة يأتها رزقها واسعا طيبا ، من كل مكان ، و لكنها كفرت بأنعم الله فشملهم الجوع و الخوف بسبب أفعالهم ، و كلما حاول رسولهم أن يهديهم لم يسمعوا له ، بل كذبوه و كانوا ظالمين لأنفسهم في ذلك.

بينات من الآيات

الايمان مسؤولية

[106]ما هو الايمان ؟ هل انه مجرد العمل ؟ أم مجرد كلام ؟؟

كلا ..انهما مظهران للايمان ، و لكن الايمان شيء آخر . أنه موقف الشخص من الحياة الدنيا ، و مدى إطمئنانه بها ، و استحبابه لها بالقياس الى الآخرة .فالذي يريد الدنيا بقلبه و يفضلها على الآخرة فإن الله لا يهديه سبيلا.

و إذا كان الإيمان موقفا قلبيا فما هو دور القول ؟! أوليس مواقف البشر تتحدد بأقوالهم ؟!

بلى ..و لكن قد يتلفظ الانسان بلسانه ما ليس في قلبه ، كما المنافق الذي يدعي بلسانه أنه مؤمن و الواقع انه كاذب ، و كذلك الذي أكره على الكفر بلسانه ، بينما بقى قلبه مطمئنا بالايمان ثابتا عليه.

هكذا كان " عمار بن ياسر " الذي تعرض لتعذيب وحشي من قبل كفار قريش ، فأعطاهم بلسانه ما أسرهم ، حيث مدح آلهتهم و نال من رسول الله (ص) لإنقاذ نفسه ، فنزلت فيه الآية الكريمة تقرر تقاته منهم ، و أمره الرسول أن يعود لمثلذلك إذا عادوا عليه ..

[من كفر بالله من بعد إيمانه]

و هل يكفر أحد بعد أن آمن ؟ أو ليس الايمان معرفة و علما ؟ و كيف يتحول الفرد بين لحظة و أخرى من عارف الى جاهل !!؟

بلى ..الايمان علم ، و لكن العلم وحده لا يكفي ، بل للايمان عنصر آخر هو : اليقين ، و عقد القلب و الثبات ، و مواجهة الضعوط ، الايمان موقف و انتماء و سعي و فداء..

جاء في حديث شريف : عن أبي عبد الله الصادق (ع (قال : " فأما ما فرض على القلب من الايمان . الإقرار و المعرفة و العقد و الرضا و التسليم بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إلها واحدا ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، و أن محمدا عبده و رسوله ، و الإقرار بما جاء به من عند الله من نبي أو كتاب ، فذلك ما فرض الله على القلب من الإقرار و المعرفة و هو عمله ، و هو قول الله عز وجل : (إلا من أكره و قلبه مطمئن بالايمان و لكن من شرح بالكفر صدرا " . (١)و مـــن الناس من يتنازل عن موقفه و انتمائه فور ما

يتعرض لضغط ، فيكفر بعد الايمان ، و منهم من يصمد ، و منهم من يخلص نفسه بإستخدام التقاة ، فيكتم إيمانه كما فعل عمار الذي قال ربنا عنه و عن أمثاله..

[إلا من أكره و قلبه مطمئن بالايمان]

و الحديث المأثور في قصة عمار يقول : لما أراد رسول الله أن يهاجر الى المدينة قال لإصحابه : تفرقوا عني ، فمن كانت به قوة فليتأخر الى آخر الليل ، و من لم تكن به(١) الميزان / ج ١٢ - ص ٣٥٩

قوة فليذهب في أول الليل ، فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض فالحقوا بي.

فأصبح بلال المؤذن ، و خباب ، و عمار ، و جارية من قريش كانت أسلمت (و هي سمية أم عمار حسبما جاء في حديث ، و أضيف أيضا اسم ياسر والد عمار (فأصبحوا بمكة ، فأخذهم المشركون و ابو جهل ، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى ، فأخذوا يضعون درعا من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه ، فإذا ألبسوها إياه قال : أحد .. أحد .. و أما خباب فأخذوا يجرونه في الشوك.

و أما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية ، و أما الجارية فوتد لها أبو جهل أوتاد ثم مدها ، فادخل الحربة في قلبها حتى قتلها ، (١) ثم خلوا عن بلال و خباب و عمار..

فلحقوا رسول الله (ص) فأخبروه بالذي كان من أمرهم ، و اشتد على عمار الذي كان تكلم به ، فقال له رسول الله (ص) كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت ؟ أكان منشرحا بالذي قلت أم لا ؟ قال : لا .. فأنزل الله " :إلا من أكره و قلبه مطمئن بالايمان. "

هكذا صمد عمار فلم يستجب لضغوط قريش ، بل تحداهم بالتقية و ظل على موقفه الثابت.

و آخرون ينهارون فيتقبلون الكفر برحابة صدر ، فيتعرضون لغضب الله سبحانه..

[و لكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله و لهم عذاب(١) و هكذا قتل زوج هذه الجارية الشهيدة ياسر و هما أبوا عمار بن ياسر اللذين كانا أول شهيدين في سبيل الله في الإسلام..

عظيم]

ذلك لانهم أرادوا إرضاء الطغاة فغضب الله عليهم ، و أرادوا الحصول على نعم الدنيا فلحقهم عذاب عظيم في الآخرة ، و لفظة " فعليهم " خبر لفظة من كفر بالله.

جذر المشكلة

[107]و جذر المشكلة يتصل بموقفهم من الدنيا التي فضلوها على الحياة الآخرة..

[ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة]

أي بلغ حبهم للدنيا مستوى فضلوها على الآخرة..

[و أن الله لا يهدي القوم الكافرين]

فمن استحب الدنيا على الآخرة ، يغضب الله عليه بسلب نور العقل عنه ، فيتركه في ظلمات جهله الذاتي ، لأنه قد اختار منذ البدء الكفر.

و هذه الآية توحي بان المعرفة و اليقين و الهدى ، كل ذلك يأتي بعد الإختيار السليم ، و تفضيل الآخرة على الحياة الدنيا.

الإرتداد انحطاط

[108]الذي يرتد عن الايمان لا يهبط فقط الى مستوى الشخص العادي الذي لما يؤمن ، بل يهبط أكثر منه بكثير ، إذ يسلب منه الله " جل جلاله " فرصة الهداية الى الأبد بسبب موقفه الجحودي..

[أولئك الذين طبع الله على قلوبهم و سمعهم و أبصارهم]بل يصبح هؤلاء كمن لا شعور له غافلين عن أبسط الحقائق و أوضحها..

[و أولئك هم الغافلون]

[109]و لانهم اختاروا الدنيا على الآخرة فلا ريب أنهم يخسرون الآخرة..

[لا جرم أنهم في الأخرة هم الخاسرون]

سبيل المغفرة

[110] كم ينبغي أن نصمد في مواجهة الضغط حتى لا نحسب من المرتدين ؟

يضرب الله لنا مثلا فيقول:

[ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا و صبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم]أجل انها مسوؤلية كبرى ينبغي أن يستعد كل مؤمن لها ، و يعقد العزم على أدائها بإذن الله ، الهجرة النفسية و البدنية عن المجتمع الجاهلي بعد التوخي للفتنة (أو تدري إن أصل الفتنة إدخال الذهب النار لتظهر جودته !!).

و ليست الهجرة نهاية المطاف ، بل لابد من الجهاد للعودة الى الوطن السليب ، و تحريره من طغيان المفسدين ، و الصبر على صعوبات الجهاد..

و آنئذ يغفر الله لهم ذنوبهم السابقة ، مثل سكوتهم السابق على الظلم ، بل خضوعهم للظالم و هو أكبر ذنب ، بل هو الشرك ذاته ، كما يغفرالله هفواتهماللاحقة.

[111] و غفران الله نعمة كبرى يدخرها المجاهدون الصابرون ليوم القيامة ، حيث يأتي كل فرد وحده لا أحد ينصره أو ينفعه غير عمله..

[يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها]

أي كل إنسان يدافع عن نفسه فلا يجد إلا الحق..

[و توفى كل نفس ما عملت و هم لا يظلمون]

عاقبة الإرتداد في الدنيا

[112]كل ذلك في الآخرة ، أما في الدنيا فإن الكفر بعد الايمان ينتهي بالمجتمع الى سلب نعم الله ، كمثل تلك القرية التي كانت تتمتع بالرفاه و السلام فكفرت ، فأنزل الله عليها الفقر و الحرب.

[و ضرب الله مثلا قرية كانت ءامنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان]يبدو من الآية ان للأمن درجات ، و هكذا للرفاه الإجتماعي درجات ، و ان هذه القرية كانت تعيش في أمن ظاهر و أمن قلبي ، و هو أفضل درجات السلام ، كما كانت تعيش على رزقها و رزق ما حولها من القرى ، و هذا أفضل درجات الرفاه..

[فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع و الخوف بما كانوا يصنعون]و عبر القرآن عن وضعهم بعد الكفر بأنهم تخلفوا إلى أن اصبحوا يحيط بهم الجوع و الخوف كما يحيط بهم اللباس.

وقد لا تكون هذه القرية واحدة عبر التاريخ ، فربما تشير الآية الى آلاف القرى التي تردت الى هذا المستوى بسبب كفرها ، و في حديث مأثور يقص علينا قصة واحدة من تلك القرى فيقول " : نزلت في قوم كان لهم نهر يقال له " الثرثار " و كان بلادهم خصبة كثيرة يستنجون بالعجين و يقولون : هو ألين لنا ، فكفروا بأنعم الله ، و استخفوا فحبس الله عنهم الثرثار ، فجدبوا حتى أحوجهم الله الى أكل ما يستنجون به ، حتى كانوا يتقاسمون عليه " . (١)

الحجة التامة

[113]و لقد جاءهم رسول من أنفسهم يدعوهم الى الشكر ، فلم يستجيبوا له حتى أخذهم الله بعذاب شديد..

[و لقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب و هم ظالمون]و في نهاية هذا الدرس القرآني الكريم ينبغي أن نطرح عدة نقاط هامة:

ألف :أن قصة هذه القرية التي تتكرر عادة في كل عصر ، توحي إلينا بضرورة مواجهة المؤمن لضغط قد يكون أشد من ضغط الإرهاب ، ذلك هو ضغط الإغراء ، فمع الرفاه و الأمن يزداد شره النفس و شبقها ، و بالتالي إحتمالات الغفلة عن الله و عن حقوق الايمان به.

(1)الميزان / ج ١٢ - ص ٣٧٥

و إذا كان عمار قد تعرض لإرهاب قريش و معه أكثر أصحاب النبي (ص) فتحدوا بإيمانهم ذلك الإرهاب العظيم ، فإن بعض اصحاب النبي قد غرتهم الدنيا بعد أن فتح الله عليهم ، فأخذوا يخوضون في أموال المسلمين " خوض الإبل بنبتة الربيع " - كما يقول الإمام علي(عليه السلام).

من هنا أكدت الآيات (١١٢ - ١١٣) على ضرورة مواجهة ضغط الإغراء بعد أن أكدت الآيات (١٠٦ الى ١١١) في هذا الدرس على مسؤولية مواجهة الإرهاب الجاهلي.

باء : ان ربنا الرحيم يرسل أنبياء في مراحل هبوط الحضارات لكي يوقفوا تدهور المجتمع ، و لكن اغلب المجتمعات تسترسل مع عوامل الإنهيار حتى النهاية الأليمة ، و هكذا بعث الله رسول هذه القرية فلما كذبوه أخذهم عذاب عظيم.

جيم :لقد أشرنا في بدايات هذه السورة الكريمة إلى ان سياقها يوحي بمناهج البحث و سبل الحصول على المعرفة ، و في هذا الدرس ذكرنا الله بمعنى الايمان الذي هو أرفع درجات العلم ، كما أشـارت آية كريمة منه - هي الأولى - إلى المسؤولية التي تتبع الإيمان ، بلهي جوهره ، و إلى استثناءات المسؤولية.

و يشير حديث نبوي شريف إلى هذه الآية في هذا الحقل فيقول : " دفع عن أمتي أربعة خصال : ما أخطأوا ، و ما نسوا ، و ما اكرهوا عليه ، و ما لم يطيقوا ، و ذلك في كتاب الله : (إلا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان) " . (١)(١) المصدر / ص ٣٥٩

السبيل الى شكر النعم

هدى من الآيات

لكي يشكر الفرد نعم الله لابد ان يعرف حدود التصرف في هذه النعم ، و بمناسبة الحديث عن العلم و الايمان و الكفر و الارتداد الذي مر في آيات سبقت ، ترى هذا الدرس الكريم يأمرنا بان نأكل من رزق الله

شريطة ان يكون حلالا من ناحية المكسب و طيبا من ناحية ذات المأكول ، و لكن علينا ان نؤدي حقوق النعم فلا نخضع لغير الله ابتغاء الحصول على بعض النعم.

وعلينا ان نتفقه في الدين ، فلا نحلل و نحرم حسب اهوائنا ، كلا .. انما حرم الله علينا الميتة و الدم و لحم الخنزير و الذبيحة التي ذكر عليها اسم غير الله ، اما من اضطر من دون ان يكون معتديا و مسرفا فان الله يغفر له ، و لا يجوز ان تتحرك ألسنتنا بالحليةو الحرمة من قبل انفسنا ، فهذا كذب و افتراء على الله ، و من يفتري على الله الكذب فانه لا يفلح ، لأنه لا يحصل الا على متاع قليل بينما له عذاب اليم.

وقد يحرم الله أشياء اضافية بسبب ظلم الناس ، كما بين لنا في آيات اخرى انهحرم اشياء على بني اسرائيل لظلمهم.

و قد يعمل الانسان شيئا بجهالة ، ثم يتوب الى الله ، و يصلح ما افسده بعمله ، فان الله من بعد ذلك غفور رحيم.

بينات من الآيات

حدود الانتفاع بالنعم

[114]العدالة في المعاش تتحقق بالانتفاع المناسب من رزق الله ، اما الذين لا يستفيدون من نعم الله و يزعمون ان ذلك زهد فانه بعيد عن تعاليم السماء ، فربنا يقول:

[فكلوا مما رزقكم الله]

بيد ان حدودا ثلاث تحيط بهذا الانتفاع و هي:

ألف : ان يكون الرزق من نصيبك ، لا من حق الآخرين حتى يكون حلالا لك.

باء : أن يكون طيبا ، فأكل الخبيث كالنجس و الحشرات - و الخبائث الاشياء المضرة و العفنة - لا يجوز.

جيم :ان تؤدي حق النعمة ، بان تعرف انها من الله ، ثم لا تنسى المحرومين ، فاذا قويت بها نشطت في عمل الخير ، بعد ان تذكر ربك بحمده..

[حلالا طيبا واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون][١١٥] و لا يجوز أن يحرم الفرد على نفسه الطيبات باسم الدين ، بل المحرماتاشياء معروفة..

[إنما حرم عليكم الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به]اي ذبح باسم الأوثان ، كالتي كان الجاهليون يذبحونها على اقدام اصنامهم!

[فمن اضطر غير باغ و لا عاد فان الله غفور رحيم]

بعد ان استثنى القرآن الاكراه من المسؤوليات ، يبين رفع التكليف عما اضطر اليه الانسان من خلال حاجته الضرورية التي من دونها يتعرض للهلاك.

كيف نشكر الله ؟

[116]و لكي نشكر ربنا لابد ان نلتزم بحدوده و شرائعه ، و لابد ان نضمن صحة المصادر التشريعية ، فلذلك حذر ربنا من اصدار الاحكام من دون تثبت..

[و لا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال و هذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون]فالـذي يسعـد الإنسان هـو الدين الحق ، و ليست الاهواء التي تفترى و تسمى دينـا!!

جزاء الكذب و البدع

[117]إن نهاية المبدعين و الكذابين أليمة ، إذ ان متاعهم في الدنيا قليل..

[متاع قليل و لهم عذاب أليم]

يبدو من هذه الآية ان المبتدع لا يغير في الدين إلا الهوى في نفسه او نفسالسلطان ، و لتحقيق مصلحة ذاتية ، يحذر ربنا منها ، و يهدده بعذاب اليم في مقابل تلك اللذة التي يصيبها بسبب التحريف.

[118]و نتساءل : إذا كانت المحرمات محصورة بالتي سبقت ، فلماذا نرى بني اسرائيل محرم عليهم اشياء كثيرة من الطعام و غيره ؟!

و يقول ربنا جوابا عن هذا السؤال:

[و على الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون]لقد ضيقوا على انفسهم و ظلموها ، فحرم الله عليهم اشياء كانت حلالا عليهم ، و جاء في آية اخرى : " فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم " (النساء / ١٦).

التوبة و الاصلاح

[119][ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك و أصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم]قد يكون وعي الفرد ناقصا و علمه محدودا و لم يؤت فرصة للتوجيه الكافي ، فيرتكب بجهالته (و ليس بجهله) ذنبا سرعان ما يتوب عنه فور ما يعود الى رشده و يملك الوعي و التوجيه ، فيغفر الله له ما سبق.

و الجهالة غير الجهل ، فان الجهل عذر شرعي في الموضوعات و في بعض الاحكام ، فلا يتناســـب و التوبة التي وعدها الله لصاحب الجهالة ، بينما الجهالة ليست بعذر شرعي ، إذ يكفي ان صاحبها يعلم بصورة مجملة حدود الواجب الشرعي الذي عليه ،و يمكنه ان يفتش عنه حتى يجده.

و قد جاءت في آيات عديدة كلمة الاصلاح بعد التوبة للدلالة على ان التوبة الظاهرية لا تنفع شيئا ، إنما ينبغي ان تكون التوبة نصوحا يتغير حال الفرد بها من سيء الى حسن ، و من فاسد الى صالح ، و في الآية بحوث تتصل بعلم اصول الفقه ندعها الى الكتب العلمية المتخصصة.

شكر النعمة و برامج الوحي

هدى من الآيات

الشكر يزيد النعمة ، و المجتمع الكافر يلفه الجوع و الخوف ، و الفرد الشاكر يبعثه الله أمة و يدخله في الصالحين ، كما كان ابراهيم الذي حنف عن ضلالة قومه الى الله الواحد ، و شكر أنعم الله فاجتباه الله و هداه الى صراط مستقيم ، و آتاه في الدنيا حسنة ، وأدخله في الآخــرة في زمرة الصالحين ، ثم أمر الرسول بأن يتبع نهجه التوحيدي البعيد عن الشــرك.

وأما المجتمع الكافر بانعم الله ، فمثله مثل بني إسرائيل الذين اختلفوا في السبت ، فأخره الله عليهم و حرم عليهم فيه الصيد ، و سوف يقضي ربنا يوم القيامة في أمرهم.

و في نهاية السورة يلخص الله برامج الوحي التي تتلخص في ثلاث كلمات هي:

- 1 الدعوة الى سبيل الله بالحكمة ، دون أن يتكفل الداعية مسؤولية الناسعن إيمانهم أو ضلالتهم ، بل الله ولي ذلك.

- 2 و عند المواجهة يكون العقاب بقدر الذنب ، و الإنتقام بقدر الجرم ، و التنازل عن الحق الشخصي في الله أولى.

- 3 و الإستقـامــة بالصبر على أذى الناس ، دون أن يحزن الداعية على مصيرهم ، و لا يخشى من مكرهم ، ذلك لان الله مع أهل التقوى و الإحسان.

بينات من الآيات
إبراهيم قدوة الشكر
[120]علـــى الانسان أن يشكر نعم الله عليه حتى ولو كفر بها المجتمع الذي يعيش فيه ، أو ليس إبراهيم قدوة الإنسانية المثلى ، الذي شكر أنعم الله مخالفا سيرة قومه الجاهليين ؟!

[إن إبراهيم كان أمة]

و لو كان رجل آخر في عهد إبراهيم مسلما لذكره الله ، و لكنه وحده تحدى مجتمع الفساد و كان..

[قانتا لله]

خاضعا له قلبا..

[حنيفا]

تنكب طريق الضلالة ألى صراط العزيز العليم.

[و لم يك من المشركين]

الذين أحاطوا به.

و قد جاء في الحديث المأثور عن الصادق (عليه السلام) : " لقد كانت الدنيا و ما كان فيها إلا واحدا يعبد الله ، و لو كان معه غيره لأضافه اليه حيث يقول : (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا و لم يك من المشركين) فصبر بذلك ما شاء الله ، ثم ان الله تبارك و تعالى أنسه باسماعيل و اسحاق فصاروا ثلاثة.

[121] أبرز صفات إبراهيم التي تتناسب و السياق القرآني هنا : صفة الشكر التي أنهت بإبراهيم الى أن يختاره الله من بين الملايين من البشر المعاصرين له ، و أن يهديه الى الصراط المستقيم..

[شاكرا لأنعمه اجتباه و هداه إلى صراط مستقيم]

و هكذا كل من شكر أنعم الله هداه الله الصراط المستقيم.

[122] و لم يبق إبراهيم وحده ، بل آنسه الله بذرية طيبة لم تلبث أن تكاثرت حتى ملأت الدنيا ، و اما في الآخرة فهو في عداد الصالحين..

[و ءاتيناه في الدنيا حسنة و إنه في الأخرة لمن الصالحين][١٢٣] و جعله الله قدوة الأنبياء و إمام الناس ، حتى أن ربنا أمر نبيه الأعظم أن يتبع دين إبراهيم و طريقته ، لانه كان مستقيما معصوما عن الزلل..

[ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا و ما كان من المشركين]و الله لا يأمر باتباع المشرك أنى كانت الظروف.

بني إسرائيل والإبتلاء
[124][إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه]

ماذا تعني الآية في هذا السياق القرآني بالذات ؟؟

لقد جاء في التفاسير : ان السبت بمعنى القطع ، و سمي السبت بهذا الاسم لان اليهود كانوا قد كلفوا بقطع العمل في هذا اليوم.

ثم قالوا : ان اختلاف اليهود في السبت كان بسبب انهم خالفوا أوامر الله في الإستراحة فيه ، ففرض الله عليهم ذلك ، و كان ذلك بمثابة الإبتلاء.

و بعضهم قـــال : بل انه فرض عليهم يوم الجمعة ، و حين اختلفوا أخره الله الى السبت.

و بقي السؤال العريض : ما هي علاقة الآية بما سبقتها ؟

ربما الآية توحي الى أن بني إسرائيل أمروا بأن يعطلوا يوما يقضون فيه حاجاتهم الخاصة ، فلم يتفقوا على يوم ، بل كان كل فريق يتنافس و سائر الفرقاء في المكسب ، مما جعلهم في الحيرة ، و هنا جعل الله عليهم السبت ليقطع خلافاتهم ، و كان ذلك إمتحانا لهم.

و هذا يتناسب مع السياق الذي يدل على أن بعض الأحكام الشرعية تشرع بسبب ظروف خاصة ، ثم إذا تغيرت الظروف زال الحكم ، و هذا أمر كثير في بني إسرائيل..

[و إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون]

وصايا للدعاة

[125]و فـــي نهايـــة السورة التي خصصت آياتها بالوحي تقريبا ، و سميت باســـم " النحل " الذي يوحي إليه الله سبحانه ما يشاء ، جاءت توصيات الى الدعاة الى الله من الذين يحملون الوحي.

الحكمة

و أولها : الدعوة الى سبيل الله بالحكمة و قد ذكرت آيات القرآن في سورة الإسراء القادمة ، و في سورة لقمان ، وسور أخرى معنى الحكمة ، و قد عرفها البعض بانها الجانب النظري من العلم ، و لكنها في الواقع أكثر من هذا ، انها جماع الصفات النفسية و السلوكية الحسنة التي يذكر بها الله في آيات تأتي..

[ادع إلى سبيل ربك بالحكمة]

و تتجلى الحكمة في الحديث الطيب الذي لا وهن فيه و لا خشونة ، انما هو حزم في لين ، و بلاغة في وضوح ، و جمال في إتقان..

[و الموعظة الحسنة]

و حين الجدال ينبغي ألا يثور غضب الداعية ، فيصدر أحكاما كاسحة على الناس ، و لا يهن أمام الخصم فيتنازل له عن بعض الحقائق طمعا في استجابته للحقيقة ..

[و جادلهم بالتي هي أحسن]

و قد جاء في حديث شريف ان الجدال بالتي هي أحسن هو القرآن ، و لا ريبأن تفاصيل السلوك الحسن موجودة في القرآن الحكيم..

[إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله و هو أعلم بالمهتدين]فلا يجوز اتهام الناس بالكفر و الزندقة ، و اتخاذ مواقف سلبية منهم جميعا ، بل الله يحاسبهم ، انما على الداعية أن يعمل بواجبه في دعوتهم الى الله.

و جاء في حديث طويل معنى الجدال بالتي أحسن : بأنه اتباع الحق في كل مراحل الحديث ، فلا ينكر حقا لزعم انه ينفي حقا أكبر منه ، و لا يقبل بباطل لانه -في زعمه- يثبت حقا أكبر منه ، كلا .. ينبغي

أن نصل الى الهدف الحق عبر وسيلة الحق نفسه.

و كلمــة أخيــرة : إن الآية هذه تدل على ضرورة تحكيم العقل في إسلوب الدعوة إلى اللــه.

العدل

[126]و الوصية الثانية للدعاة : إلتزام العدالة في معاملة الأعداء ، فلا يسرف في العقوبة ، بل يسعى الدعاة في تجاوز أنفسهم ، و أن يتنازلوا عن حقوقهم من أجل المصلحة العامة..

[و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به و لئن صبرتم لهو خير للصابرين]و جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق (ع (لما رأى رسول الله ما صنع بحمزة بن عبد المطلب قال : " اللهم لك الحمد ، و إليك المشتكى ، و أنت المستعان على ما أرى " ثم قال : " لإن ظفرت لأمثلن و لأمثلن " فأنزل الله : (و إن عاقبتمفعاقبوا بمثل مــا عوقبتــم به و لإن صبرتم لهو خير للصابرين) فقال رسول الله (ص) : " أصبر أصبر. "

الإستقامة

[127]و الوصية الثالثة : صفات الإستقامة.

[واصبر و ما صبرك إلا بالله و لا تحزن عليهم و لا تك في ضيق مما يمكرون [فالصبر بالتوكل على الله ، و عدم التأثر بتغير الظروف و أقوال الناس ، و سعة الصدر في مواجهة المشاكل..

[128]و في نهاية السورة يؤكد القرآن على أن الله يؤيد الدعاة بشرطين:

الأول : أن يتقوا الله.

الثاني : الإحسان و الطاعة..

[إن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون]

نرجو أن نكون من الدعاة الى الله و القادة في سبيله .. إنه عزيز حكيم.

سورة الاسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن النبي (ص) أنه قال : " من قرأ سورة بني إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين أعطي في الجنة قنطارين من الأجر و القنطار الف أوقية و مائتا أوقية و الأوقية منها خير من الدنيا و ما فيها. "

عن الصادق (ع) انه قال " : من قرأ سورة بني إسرائيل في كل ليلة جمعة لم يمت حتى يدرك القائم و يكون من أصحابه " (١)(١) مجمع البيان / ج ٦ - ص ٣٩٣

الإطار العام

لعل اهم الموضوعات التي تناولتها سورة الاسراء هي مسوؤلية الانسان عن اعماله ، في اطار الرسالة الالهية ، و تتحدث السورة عن طائفة من المسؤوليات تجاه المجتمع ابتداءا من الوالدين و انتهاء بسائر الناس.

و تعالج السورة بتفصيل قضية الشرك بالله ، أوليس الشرك جذر الفساد و سبب تبريرات البشر عن مسؤولياته ؟

كما تبين بتفصيل ايضا خطط الشيطان لاغواء البشر و كيفية محاربة تلك الخطط ، و يضرب القرآن الأمثلة التاريخية العديدة.

و تبـــدأ السورة بقصة بني اسرائيل كمثل لمجتمع سعى مرة و تخاذل اخرى و تنتهي بهـا.

هذه جملة القول في اطار السورة اما التفصيل فان حياة البشر تجسيم لسعيه ، تلك هي جملة القول في اطار سورة الاسراء . و تلك هي خلاصة رسالات الله التي هي -فيالواقع - واحدة.

فبعد ان اشار القرآن الى واقعة الاسراء ، فالمعراج ذكرنا بانه السميع البصير ، و بالتالي محيط بعباده علمه مما يوحي بضرورة التقوى منه (١.)

و خلاصة الكتاب الذي أنزله على موسى لبني اسرائيل الا يتخذوا من دون الله وكيلا (٢) ذلك ان الشرك بالله ، هو جذر كل فساد و ضلال.

افلم يكونوا ذرية الذين حملهم الرب مع نوح في السفينة لينجيهم من الطوفان . و كان نوح عبدا شكورا (٣.)

بلى و لكنهم قد افسدوا (أو يفسدون) مرتين في الارض ، و يلاقون جزاءهم (٥) اذ يبعث الله بعد ان يحين ميعاد الجزاء في المرة الاولى عبادا له اقوياء فيدمر عرشهم (٦) و بعد أن يعيد لهم الكرة . يأتي وعد المرة الثانية ، و يتبروهم تتبيرا . لماذا ؟ لان الله يجازيهم بالاحسان احسانا . و بالاساءة جزاءا وفاقا (٧/٦) تلك هي سنة الله في التاريخ ، جزاء كل مجموعة لمجمل افعالهم اما في الآخرة فان الله جعل جهنم للكافرين سجنا " (٨.)

الهدى من الله عبر القرآن . اما الايمان و العمل الصالح فهو من فعل الشر . و عليهما الجزاء الكبير و الكفر قد اعتد لصاحبه العذاب الاليم (١٠/٩.)

و الجزاء يتأخر . و كان الانسان عجولا فتراه يدعو بالشر كدعائه بالخير . الا ان الجزاء لواقع (١١.)

الق نظرة في آيات الكون ماذا ترى ؟

آية الليل التي محاها الرب بحكمته . و آية النهار جعلها مبصرة بحسن تدبيرهلكي تسعى لمعاشك و تعد السنوات و تفقه الحساب.

إذا كل شيء منظم ، مقدر و مدبر و الذي دبر شؤون الليل و النهار و نظمها ، فصل لنا القول فيها تفصيلا .

فيخرج البشر عن هذا النظام ؟ كلا . بل هو الآخر محكوم بسعيه ، حيث يكتب في صحيفة عمله المعلقة بعنقه . كل فعاله ليلقى كتابه منشورا يوم القيامة.

و يقال له اقرأ كتابك و حاسب نفسك فانت الذي تدين نفسك بنفسك ولو كنت خاطئا (١٣/١٢.)

الهدي بسعيك و الضلالة من عندك ، و لا أحد يتحمل وزر الآخرين ، و لا يبدر الرب عباده بالعذاب ان ضلوا حتى ينذرهم برسول ، و هكذا حين يحين ميعاد هلاك قرية يبعث في امها رسولا ينذر مترفيهم و قيادة انحرافهم . و لكنهم يفسقون عن امر الله.

فهنالك تثبت عليهم الحجة فيدمرهم الله تدميرا.

و كذلك اهلك الله كثيرا من القرون ، من بعد طوفان نوح . و الهلاك الشامل للمفسدين فيه . و كفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا . فلا يزعمن احد أن الله غافل عنه (١٧/١٤.)

و السعي ينتج واقعا . و لكن حسب نية البشر .فمن اراد الدنيا اعطاه الله منها بقدر ما تقتضيه سنن الله و حكمته . الا ان جزاءه في الآخرة سيكون جهنم حيث يصلاها مذموما مدحورا.

أما من اراد الآخرة و سعى من أجلها بقدرها فان الله يشكر سعيه.

و الله يمد للاول في دنياه و للثاني في اخراه . و ما كان عطاءه محظورا . هكذا يجعل حياة البشر وليدة ارادته و سعيه.

و كما ان رزق الناس في الدنيا متفاضل - بسبب تفاضل سعيهم - كذلك و اكثر منه جزاء الآخرة (٢١/١٨) ثم يحذرنا الرب من الشرك (و يبدو ان المراد منه هنا :الاسترسال مع التقاليد و تيارات المجتمع لانه ينتمي الى اللوم و الخذلان . (22))

و يأمرنا بألا نعبد إلا اياه (فلا نعبد الآباء و لا نخضع لضغوط المجتمع) الا ان علينا ايجاد العلاقات الايجابية مع الناس (في اطار التوحيد) و اهمها الاحسان الى الوالدين . و بالذات عند الكبر . و الرحمة بهم و الاستغفار لهم (٢٥/٢٣.)

و بعد الوالدين يلتزم المؤمن بحقوق الاقارب و المسكين و ابن السبيل و يتقي التبذير لان التبذير يجعله في صف الشياطين (و الطغاة) و الكافرين بالله ، غير الشاكرين لانعمه و في حالة الاعراض عنهم (ماديا) لابد ان تحسن اليهم (معنويا) بالقول الميسور (٢٨/٢٦. (

و يأمرنا الرب بالاقتصاد في الانفاق فلا بخل يغل اليدين ولا سرف ينتهي الى الملامة و الضيق أو ليس الله يبسط الرزق لعباده و يقدر فلماذا البخل و السرف (بل علينا ان نتبع اصول الحكمة في الصرف كما ربنا سبحانه) و لماذا قتل الاولاد خشية املاق مادام الرب هو الرزاق . (29/31)

و مثلما نهى الله عن قتل الاولاد في اطار المسؤولية الاسرية (بما يشمل الاجهاض حسب الظاهر) ينهى عن الزنا باعتباره ذنبا كبيرا . و ساء سبيلا.

و في اطار المسؤوليات الاجتماعية يحرم قتل النفس الا بالحق . و يجعل لمن قتل لوليه حق القصاص . و ينهى عن الاسراف في القتل و يبشره بانه كانمنصورا (٣٣/٣٢.)

و تلك كانت مسؤوليات الانسان تجاه الناس . و تتلخص في ثلاث كلمات . التوحيد (و عدم الخضوع للتقاليد و الضغوط) و الاحسان . و احترام حقوق الآخرين.

و في الدرس السابع يحرم مجرد الاقتراب الى مال اليتيم "الا بالتي هي أحسن " و يأمر بالوفاء بالعهد و إيفاء الكيل و الوزن.

و لعل هذه المسؤوليات الاجتماعية و التي تأتي تحصن المجتمع من بعض الثغرات التي يدخل منها الظلم الى كيان المجتمع فان اقامة العدل لا يمكن الا بسد كل ابواب الظلم و المداخل الطبيعية الى اشاعة الظلم في المجتمع . و هكذا يأمر الرب بضرورة أتباع العلم ، و ترك سوء الظن عن التكبر و الاستكبار في الأرض . و يجعل ذلك من الحكمة التي اوصى بها الرب الى العباد و التي يجمعها توحيد الله سبحانه (٣٩/٣٦.)

بلـــى ان بناء المجتمع الفاضل قائم على أساس التثبت من التهم و المساواة أمام القانـون.

و ينهى الله عن الشرك ، أو ليس الشرك اساس كل جريمة ، و تبرير شائع لكل فساد و لا مسؤولية ؟

أصحيح ان الله أختار لهم البنين و اتخذ من الملائكة بنات انه بهتان عظيم . و قد صرف القرآن لهم من كل مثل . و لكنهم ازدادوا نفورا (٤٠/٤١.)

لو كان هؤلاء الآلهة كما يزعمون اذا لتحدوا سلطان الرب ذي العرش ، كلا . سبحان الله و تعالى عما يقولون علوا كبيرا . ان السموات السبع و الارض تشهدبقدس مقامه و تسبح له و كل شيء يسبح بحمده . الا ان البشر عاجز عن فهم تسبيحهم . و الله حليم عن العاصين غفور للمؤمنين سبحانه.

اما الدرس الثامن : فانه يبين أخطار الكفر بالحياة الآخرة . و كيف ان الله يجعل بين الرسول و من لا يؤمن بها حجابا مستورا . حيث يحيط بقلوب الكافرين بها ستارا فلا يفقهون القرآن و يجعل الله في اذانهم وقرا . حتى انهم يولون نفورا . كلما ذكر الرسول ربه فيالقرآن وحده.

ان تراكمات الجهل و الضلالة و العصبية تجعلهم يستمعون الى الرسول من وراء شبهات باطلة . فهم يقولون عن الرسول انه رجل مسحور فيضلون ولا يهتدون سبيلا الى الحقائق . و تراهم ينكرون البعث و يتساءلون ابعد ان نصبح عظاما و رفاتا يعقل ان يخلقنا الله من جديد ؟!
. (45/49)

و هكذا تصبح هذه الشبهات حجابا مستورا بينهم و بين القرآن و فهم حقائقه.

و يردهم الله بقوة : حيث يذكرهم بانهم لو كانوا من الحجارة أو الحديد أو اي شيء كبير في نظرهم فان الله الذي خلقهم اول مرة قادر على ان يعيدهم . ثم يقولون متى ؟ يقول الله عسى ان يكون قريبا . ذلك اليوم الذي يدعوهم الله فيستجيبون بحمده ، و يزعمون انهمكانوا في الدنيا أو البرزخ اياما قليلة . (52)

و لان الشيطان عدو مبين فعلى عباد الله ان يختاروا كلماتهم لكي لا ينزغ الشيطان بينهم بها.

و ان يتركوا العصبية لقومهم أو تزكية انفسهم اذ أن الله أعلم بهم يرحم من يشاء و يعذب من يشاء (٥٣/٥٥.)

هكذا تبين آيات الدرس التاسع بعض المسؤوليات الاجتماعية الواجبة علىالمؤمنين لبعضهم.

و لعل الصراعات الداخلية تنشأ من رواسب الشرك . فيعود السياق لبيان زيف الأنداد و انهم لا يدفعون الضر عن انصارهم (٥٦.)

بل هم بدروهم يبتغون سبيلا الى الله ربهم و يرجونه و يخافونه.

و كل القرى معرضة للهلاك قبل يوم القيامة ، أما بالعذاب أو الموت . و لقد كذب الأولون بآيات الله . فاستحقوا العذاب . و لان الله لم يشأ اهلاكهم فانه لم ينزله عليهم كلما طلبوه . اذ لو اوتوه ثم كفروا لهلكوا . فهذه ثمود لما اتاها الله الناقة آية مبصرة كفروا بها فاهلكهم الله . و انما حكمة الآيات التخويف " و لعلهم يهتدون " (٥٧/٥٩.)

و هكذا ارى الله رسوله رؤيا ، جعلها فتنة لهم ، كما اخبره بالشجرة الملعونة ، و يخوفهم الله فلا يزدادون الا طغيانا (٦٠.)

و هكذا كانت الآيات للتخويف ، و ليس من أجل انزال العذاب عليهم.

و يبقى سؤال هام : لماذا الشرك اساسا ، ولم لا يخلص الناس الطاعة لله ، و لمن فرض الله طاعته ، و لماذا تنمو على صعيد مجتمع مسلم شجرة ملعونة كبني امية يفرضون سيادتهم على الناس ؟ في آيات الدرس العاشر ، نقرأ الجواب الذي يستوحي منه قصة الخلق و كيف أضحى إبليس عدو بني آدم و ما هي خططه الماكرة ؟

و القصة بدأت حين اخذته العصبية الذاتية و ادعى ان عنصره افضل من عنصر آدم ، و رفض السجود لآدم الذي سجد له الملائكة جميعا.

و امهله الله ليوم القيامة ، و تحدى ربه في السيطرة على ولد آدم . و اخبره اللهاولا : انه سوف يخسر العاقبة هو و من اتبعه.

ثانيا : انه لا سلطان له على عباد الله بالرغم من وسائله الماكرة لانهم يتوكلون على الله و كفى بالله وكيلا.

اما خطط الشيطان فهي اربعة : التضليل الاعلامي ، و الارهاب ، و افساد النظام الاقتصادي و التربوي ، و الغرور (٦٥.)

و لكن الله هو الذي يزجي الفلك في البحر و هو الذي يكشف الضر . و هو الذي يخشى مقامه فاذا اراد ان يخسف الارض باهلها ، أو يرسل قاصفا من الريح . فلا أحد ينجيهم من الله.

و هو الذي كرم بني آدم ، و حملهم في البر و البحر و فضلهم على كثير من الخلق تفضيلا (٧٠.)

و هكذا كان كيد الشيطان ضعيفا . لان الولاية لله و له الدين و بيده الأمر ، و هو يريد كرامة الانسان بينما يريد الآخرون اضلاله.

و حبل الانقاذ من امواج كيد الشيطان و مكره هو القرآن.

كيف نقاوم مكر الشيطان ؟ و الى أين ينتهي الصراع بين بني آدم و إبليس ؟ و ما هي عبر التاريخ في هذا الحقل ؟

يبدو ان آيات الدرس الحادي عشر تدور حول هذه الاسئلة.

و تبدأ بالحديث عن القيادة باعتبارها تحدد خطر البشر . ففي يوم البعث يدعو الله كل اناس بامامهم ، و يختلف الناس بين من يؤتى كتابه بيمينه فيقرأه و من يحشرأعمى و امام الهدى عصمة من مكر الشيطان.

و يبين القرآن بعدئذ كيف تعرض الرسول للضغط الاعلامي ليفتنوه عما اوحي اليه فتحداه . و لنا فيه اسوة حسنة . و يعلمنا كيف نقاوم الفتنة بالتوكل على الله كما فعل الرسول (ص) فثبته الله كان هذا مثل لخطة التضليل و يضرب القرآن مثلا لخطة الارهاب حيث كادوا يستفزون النبي (ص) من الارض و لو فعلوا لما بقوا من بعده الا قليلا . تلك سنة الله (٧٧.)

و لمواجهة غواية ابليس فرضت علينا اقامة الصلوات الخمس و أمرنا بنافلة الليل التي بعث الله بها نبيه مقاما محمودا.

و لكي نحافظ على النظام الاقتصادي و الاجتماعي و التربوي السليم و لا ندع إبليس يفسده ، فعلينا أن نسأل الله ان يوفقنا للصدق في المدخل و المخرج ، و ان يجعل لنا من لدنه سلطانا نصيرا . و ان نثق بان الحق منتصر و ان الباطل كان زهوقا (٨١.)

و لكي نقاوم مكر إبليس و كيده علينا ان نقوم بأمرين:

-1 التمسك بحبل القيادة الآلهية المتمثلة في شخص رسول الله . و الائمة من خلفائه ، و من ثم الأمثل من الفقهاء و الاقرب الى نهج الرسول . و قد بينت آيات هذا الدرس صفات الرسول في الاستقامة ، و الصبر و التوكل و الثقة . و كأنها الصفات المثلى للقيادة التي تعصمنا من مكر الشيطان.

-2 الاعتصام بالقرآن . باعتباره حبل الله المتين . و في آيات الدرس الثاني عشر بيان ذلك . حيث تبين

ان القرآن شفاء و رحمة للمؤمنين . بينما لا يزيد الظالمين الا خسارا ، و يمكننا ان نستفيد من آيات هذا الدرس كيفية الاستفادة من القرآن و التمسك بحبله ، ببيان ان الانسان يغتر بالنعم ، فاذا أوتيها اعرض ونآ ، و ان سلبتمنه استبد به اليأس.

و الناس مختلفون فكل يعمل على شاكلته . و الله أعلم بمن هو اهدى سبيلا.

و انما القرآن من الله . فاذا شاء ذهب به . و انه لمعجز ، فلو اجتمعت الجن و الانس ما استطاعوا تحديه ، و فيه من كل شيء مثل و انهم ليطالبون ببعض الآيات المادية دون ان يهتدوا الى ان الرسول بشر و انما القرآن من الله ، وانما عليه البلاغ.

ولعل في هذا الدرس اهم محاور سورة الاسراء . و هو الذي يدور حول الرسالة . و ان الذي يستفيد منه انما هو المؤمن بها ، اما الظالم الذي يعرض عن نعم الله و يتولى بركنه عنها و الذين مقاييسهم مادية فانهم لا ينتفعون بالوحي.

لماذا لا يؤمن الناس بالهدى الذي جاءهم ؟ و ما هي اهم عقبات الايمان برسالات الله ؟

اولا : زعمهم بان الرسول ينبغي ان يكون ملكا.

ثانيا : ارتيابهم في البعث.

و هكذا تعالج آيات الدرس الثالث عشر العقبات النفسية التي يضعها ابليس في طريق الايمان بالرسالة (٩٤/٩٩) فيبين ان الرسول يجب ان يكون من جنس من يرسل اليهم . فلو كان سكان الارض الملائكة لانزل الله اليهم ملكا رسولا.

و بعد ان يبين ان الله سبحانه شهيد على صدق رسالة النبي ، و ان بيده الهداية .و ان من يضله لا هادي له ولا ولي . و انه يحشر اعمى و ابكم و اصم ، و ان عاقبته جهنم التي يستمر سعيرها جزاءا على ما عملوا (٩٨).

و بعدئذ يستنطق وجدانهم و يقول اليس الله الذي خلق السموات و الارض بقادر على ان يخلق مثلهم ، و انما لا يؤاخذهم بالعذاب لأنه قدر لهم اجلا لا ريب فيه و لكنهم لا يستغلون هذه الفرصة.

و لان الانسان كفور بطبعه ، و بخيل قتور فهو بحاجة الى هاد و مرب و هو الرسول الذي يأتيه بالقرآن شفاء لما في الصدور.

و لم يكن النبي محمد - صلى الله عليه و آله و سلم - بدعا من الرسل ، فهذه رسالة الله تتنزل على موسى عليه السلام و الله سبحانه يؤتيه تسع آيات بينات فتحداه فرعون و اتهمه بأنه مسحور ، و بين له موسى انها بصائر من الله و ان فرعون مبتور.

و كما جرى لرسول الله محمد جرى لرسول الله موسى عليهما صلوات الله ، حيث أراد فرعون ان يستفز الرسول من الارض فاغرقه الله و من معه جميعا و اورث الله الارض لبني اسرائيل من بعده الى أجل معدود.

هذا مثل لشهادة الله على صدق رسالاته . و مثل لمكر الشيطان و كيده . و مثل لنصرة الله عباده . و ان الحق منتصر و ان الباطل كان زهوقا .

و لقد جاء القرآن بالحق ، و ما على الرسول الا ابلاغه . و انما فرقه الله على انجم ليثبت به فؤاد رسوله.

هكذا ابتدأت آيات الدرس الاخير الرابع عشر. (105/111)

و هي تعالج عقبة اخرى للايمان . و هو تفريق القرآن و تنزله عبر سنين البعثة .و تؤكد ان للقرآن اصحابا يؤمنون به و انهم يخرون للاذقان سجدا كلما تليت عليهم آياته ، و يزدادون ايمانا بوعد الله ، و يسجدون و يزيدهم القرآن خشوعا لربهم.

و هذه هي صفات المؤمنين بالقرآن . و هم عباد الله الذين لا سلطان لابليس عليهم.

و من صفاتهم انهم يدعون الله - كما أمرهم - باسمائه الحسنى ، و انهم لا يجهرون بصلاتهم (رياءا) و لا يخافتون بها (خوفا) انما يبتغون بين ذلك سبيلا .. (لان مشيهم الهون و سيرتهم الاقتصاد . و امتهم وسط).

و تختم سورة الاسراء بحمد الله الذي لا ولد له و لا شريك له و لا ولي له من الذل . كما ابتدأت بحمد الله و تسبيحه (١١١).

قصة الاسراء
بينات من الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

"بسم الله " ذي القدرة و العظمة ، و النور و الكمال ، و الفضل و الانعام " الرحمن الرحيم. "

ابتدأت السورة بالتسبيح ، و التسبيح يدل على التنزيه و التقديس ، و مادتها من)سبح) اي نزه ، و معنى ذلك أن نعبد الله عن أي نقص أو عجز أو حد.

ان العقل البشري لا يستطيع ان يدرك الا الأمور القريبة من ذهنه أو المتعارفة في الطبيعة ، و لكنه يعجز عن ادراك ما وراء ذلك ، و لو اراد الانسان ان يتصور الله لتصوره في حدود مفاهيمه و معارفه . حيث ان بعضهم قال : ان الله "سبحانه و تعالى عمايقولون " على صورة انسان اعلاه مجوف و اسفله مصمت ، و هو نور ساطع يتلألأ ، و له حواس خمس . (١)و التاريخ يدلنا على : ان الامم الكافرة و المشركة ، انما تصورت الله في حدود معارفها ، فالامة التي كانت بحاجة الى الزراعة و الرعي كانت تقدس الماء او البقر أو كليهما باعتبارهما آلهة.

و الامة التي كانت بحاجة الى الانواء و النجوم لتهتدي بها في السفر ، كانت تتصور الله نجما أو قمرا أو شمسا ، اما الامة التي كانت تعيش ضمن القبيلة و التقاليد الموروثة ، فانها كانت تقدس الجد الاكبر لها ، و بالتالي فانهم كانوا يتصورون الله شيخا كبيرا ذالحية بيضاء .

و قد جاء في بعض الكتب الحديثة التي انطلقت من الغرور العلمي ، احاديث مسهبة خلاصتها:

)انه لما كان الله موجودا في كل مكان و ليس له صوت و لا صورة فهو اذا الجاذبية. (

و قال بعضهم بان الله هو الوجود.

و روي عن الامام الصادق (ع: (

"و لو ان النملة تصورت ربها لتصورت له قرنين . (2) "

و من أجل ان يقطع الانسان على نفسه الدخول في هذه الدائرة عليه أن يقول:

(1)بحار الانوار / ج ٣ - ص 289نقلا عن بعض الجهلة.

(2)الحديث منقول بمحتواه و ليس بنصه.

"سبحان الله " فينزهه لانه اجل من ان يتصور ، و في حديث عن الامام الباقر)ع) يقول حين سأله ابن ابي نجران عن التوحيد : أتوهم شيئا ؟ فقال:

"نعم غير معقول ولا محدود ، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه ، لا يشبهه شيء ولا تدركه الاوهام ، كيف تدركه الاوهام و هو خلاف ما يعقل ، و خلاف ما يتصور في الاوهام . انما يتوهم بشيء غير معقول و لا محدود " (١)و بالتالي فان كل ما نتصوره مخلوق مردود الينا ، و الشيء الوحيد الذي يمكن ان نقوله عن ربنا هو " سبحان الله " فاننا متى ما قلنا ذلك اقتربنا الى الله خطوة.

جاء في الحديث عن الامام الباقر (ع) و قد سأله البعض : يجوز ان يقال الله انه شيء ؟ فقال:

"نعم تخرجه من الحدين حد التعطيل ، و حد التشبيه " (٢)و هذا معنى الاعتراف بالله ، لذلك بدء القرآن حديثه بالتسبيح فقال:

] [1]سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير]ما هي علاقة تقديس الله و تنزيهه بالحادثة التاريخية التي وقعت لرسول الله (ص) و هي حادثة الاسراء و المعراج ؟

قال بعض المفسرين ان التسبيح هنا بمعنى التعجب اي عجبا . كيف اسرى الله(١) المصدر / ج ٣ - ص ٢٦٦

(2)المصدر / ص ٢٦٢

بعبده من البيت الحرام الى المسجد الاقصى ثم عرج به الى السماء هذا صحيح . و لكن يبقى السؤال ما هي العلاقة بين التسبيح و التعجب ؟ الواقع اننا حين نتعجب من شيء ، فان الشيطان و النفس الامارة بالسوء يوسوسان لنا بأن ذلك الشيء هو عظيم الى حد الالوهية ، و من أجل ان نبتعد عن هذا الشرك علينا ان نسبح الله و ننزهه لنتذكر بأنه اكبر من أي شيء عجيب قد يبهرنا.

و هكذا عندما اسرى الله بالنبي (ص) من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، ثم عرج به الى السماء كان من الممكن ان يعتقد البعض بان النبي (ص) هو الإله ، لذلك كان يلزم ان تبدأ القصة بـ " سبحان الله. "

و لمفردات اللغة العربية معان دقيقة فمثلا : اذا ذهب احدهم في أول الصباح الى مكان ما يقال عنه (بكر) و اذا كان بعد ذلك بقليل قيل (صبح) و بعد مدة (غدى) ثم (أضحى) و في النهار يقال (سرب) و اما في الليل فيقال (سرى. (

و القرآن في هذه الآية يقول " سبحان الذي اسرى بعبده " يعني اسرى به في الليل ، فلماذا تقول تتمة الآية : " بعبده ليلا " ؟

قد يكون ذلك لما يلي:

أولا :اسرى بعبده اي ذهب بالليل ، و لكن هل كان رجوعه في الليل ايضا ؟ ان كلمة " ليلا " جاءت هنا لتؤكد على ان الذهاب و الاياب كان في الليل ، تأكيدا لمعجزة الإسراء.

ثانيا : قد يكون تأكيد الآية على ان هذا الحدث العجيب قد تم في الليل ، حيث السكون و الهدوء ، و حيث

لا يتم الانتقال فيها إلا قليلا ، ثم ان العروج الايماني يتم في الليل اكثر من النهار ، قال ربنا : " ان ناشئة الليل هي اشد وطأو أقوم قيلا. "

اما محـل انطلاق رسول اله (ص) للاسراء فقد اختلفت الروايات في ذلك ، فمنهم من قال : بانه خرج من المسجد الحرام ، و بعض قال : من بيت أم هاني بنت ابي طالب ، و لكن يمكن جمع الخبرين بالقول : ان الرسول (ص) كان في بيت ام هاني ، ثم خرج الى المسجد الحرام ، ومن هناك بدأ رحلته الى المسجد الاقصى ، اي المسجد الابعد من المسجد الحرام.

و اما العروج فقد كان من المسجد الاقصى الى السماء ، حيث رأى آيات ربه الكبرى ، اذ يقول تعالـى : " لنريه من آياتنا " و في آية أخرى يقول : " لقد رأى من آيات ربه الكبرى " (١) و لكن ما هي تلك الآيات ؟ و اين هي ؟

القرآن لا يحدثنا عن هذه الآيات انما نجد هناك اشارات الى هذه الآيات في الاحاديث كما سيأتي ذكره.

اما كيف تمت تلك الآيات و الحوادث في ليلة واحدة في حين انها تحتاج الى مدة مديدة ؟ فان ذلك اثار التساؤلات لدى العلماء ، فقال بعضهم : بان الزمان في الفضاء الاعلى يختلف عما هو عليه في كرتنا الارضية ، و لهم في ذلك بحوث مطولة لا يسع المجال لذكرها ، و اساسا هناك تساؤلات حول كيفية حدوث الاسراء لشخص الرسول كالتالي:

- 1 كيف قطع الرسول المسافة بين المسجدين في ليلة ، علما بانها كانت تقطع في ذلك الزمان في اسابيع ؟

- 2 و بعدئذ كيف اخترق جاذبية الارض الى الفضاء ، و نحن اليوم لا نقدر(١) سورة النجم / ١٨

على مثله الا بمركبات فضائية متطورة و معقدة ، و مع ذلك فانها لا تستطيع ان تعمل الا في حدود ضيقة جدا ، بالنسبة الى الرسول صلى الله عليه و آله ؟

- 3و اذا كانت السموات جميعا عرصة رحلة الرسول ، فيقتضي ذلك ان تكون سرعة المـركبــة اضعاف سرعة النور بملايين المرات ، لان الرسول قطع - حسب الروايات - تلك المسافات في ساعات.

و تساؤلات أخرى جعلت طائفة من العلماء يشككون انفسهم في المعراج ، حتى ان بعضهم أوله بأن روح الرسول هي التي عرجت و ليس النبي (ص) بجسمه و روحه.

بيد ان اجماع علماء آل البيت عليهم السلام قائم على ان العروج كان بالجسم و الروح كما يحكيه شيخ الطائفة الطوسي (قدس الله سره) و الشيخ الطبرسي (ره) و العلامة المجلسي و آخرون . (١)و هكذا ذهب اكثر المحققين من علماء المسلمين الى ذلك و عليه روايات صحاح مشهورة حسب ما يحكيه المفسر المعروف الرازي . (٢)و يدل على ذلك:

أولا : ان الآية صريحة على ان العروج تم " بعبده " كما جاء في هذه الآية و تصرح آيات سورة النجم بقوله : " ولقد راه نزلة اخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * اذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر و ما طغى * لقد رأى من آيات ربهالكبرى " . (٣)

(1)راجع تفسير نمونه / ص - 13ج ١٢

(2)المصدر ، و يراجع ايضا تفسير الرازي

(3)سورة النجم / ١٣-١٨

و هذا التعبير صريح في ان العروج تم به و ليس بروحه (ص).

ثانيا :ان الرسول (ص) قص على الناس في مكة و اكثرهم كفار قصة المعراج ، فكذبوه و أخبرهم بما رأى في الطريق مما ظهر صدقه لهم بعدئذ ، و لو ان العروج كان بروحه في مثل النوم ، لكان الامر غير ذي بال ، و لا يثير التساؤلات عندهم.

و على العموم لابد ان نعرف : ان عروج الرسول لم يكن مثل صعود المركبات ، بل كان اعجازا مثل صعـــود عيســـى و ادريس (ع) و مثل ما فعل الله سبحانه و تعالى لانبيائه (عليهم السلام) من طوفان نوح ، و خمود النيران لابراهيم (ع) و ابتلاع عصى موسى (ع) لحبال سحرة فرعون و احياء الموتى على يد عيسى بن مريم (ع).

و كما القرآن اعجاز تحدى كل العلماء و البلغاء ، و لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، كذلك اسراء النبي (ص) و معراجه.

اما كيف تم ذلك فان العلم يتقدم ، و امامه طريق طويل حتى يستطيع ان يكشف أسرار هذه الرحلة المادية الروحية العجيبة.

بلى فهذا العلم تقدم خطوات ، و اظهر ان قطع المسافة بين المسجدين في ليلة واحدة ممكنة ، ثم تقدم و اثبت ان الصعود الى الفضاء هو الآخر ممكن بصورة اجمالية ، بينما كان الأمران محالان عند السابقين حين تمت رحلة الاسراء و المعراج ، و سوف يتقدم و يتقدم ليكشفبعض اسرار الرحلة المعجزة .

و أخيرا لنعلم ان عروج الرسول كان رحلة روحية ايضا ، بالاضافة الى انه كان رحلة مادية ، حيث شاهد الملائكة و الانبياء السابقين ، و الجنة و النار و من فيهما.

حديث الاسراء

في الحديث المروي عن تفسير القمي ، عن ابي عمير ، عن هشام بن سالم ، عن

أبي عبد الله الصادق (ع) انه قال:

"جاء جبرئيل و ميكائيل و اسرافيل بالبراق الى رسول الله (ص) فأخذ واحد باللجام و واحد بالركاب ، و سوى الآخر عليه ثيابه ، فتضعضعت البراق (اي تحركت) فلطمها جبرئيل ، ثم قال لها : اسكني و تطأطئي يا براق ، فما ركبك نبي قبله ، و لا يركبك بعده مثله، فرفت به (اي طارت) و رفعته ارتفاعا ليس بالكثير ، و معه جبرئيل يريه الآيات من السماء و الارض ، فبينما انا في سيري اذ نادى مناد عن يميني ، يا محمد ! فلم اجبه ، ولم التفت اليه ، ثم نادى مناد عن يساري : يا محمد ! فلم اجبه و لم التفت اليه ، ثم استقبلتنيامرأة كاشفة عن ذراعيها ، عليها من كل زينة الدنيا فقالت : يا محمد ! أنظرني حتى أكلمك فلم التفت اليها ثم سرت ، فسمعت صوتا افزعني فجاوزته ، فنزل بي جبرئيل ، فقال : صل ، فصليت ، فقال : اتدري اين صليت ؟ قلت لا ! فقال : صليت بطور سيناء ، حيث كلم الله موسىتكليما ، ثم ركبت فمضينا ما شاء الله ، ثم قال لي : انزل فصل ، فنزلت فصليت ، فقال : اتدري اين صليت ؟ فقلت لا . قال : صليت في بيت لحم . (و بيت لحم ناحية من نواحي بيت المقدس حيث ولد عيسى ابن مريم) ثم ركبت ، فمضينا حتى انتهينا الى بيت المقدس ، فربطت البراق بالحلقة التي كان الانبياء تربط بها ، فدخلت المسجد و معي جبرائيل الى جنبي ، فوجدنا إبراهيم و موسى و عيسى فيمن شاء الله من أنبياء الله (ع) فقد جمعوا الي واقيمت الصلاة - و لا اشك الا و جبرئيل سيتقدمنا - فلما استووا أخذ جبرئيل بعضدي ، فقدمني ، و اممتهم ، ولا فخرا) يعني لا افتخر بذلك) ثم آتاني الخازن بثلاثة أوان ، اناء فيه لبن ، و اناء فيه ماء و اناء فيه خمر وسمعت قائلا يقول : ان أخذ الماء غرق و غرقت أمته ، و ان أخذ الخمر غوي و غويت أمته ، و ان أخذ اللبن هدي و هديت أمته ، قال : فأخذت اللبن و شربتمنه ، فقال جبرئيل : هديت و هديت أمتــك . ثم قال مــاذا رأيت في مسيرتك ؟ فقلت ناداني مناد عن يميني فقال : أو اجبته ؟ فقلت : لا ، و لم التفتاليه ، فقال : ذاك داعي اليهود ، لو اجبته لتهودت أمتك من بعدك

، ثم قال : ماذا رأيت ؟ فقلت : ناداني مناد عن يساري ، فقال لي : او اجبته ؟ فقلت لا ، و لم التفت اليه ، فقال : ذاك داعي النصارى ، ولو اجبته لتنصرت أمتك من بعدك ، ثم قال : ماذا استقبلك ؟ فقلت: لقيت امرأة كاشفة عن ذراعيها ، عليها من كل زينة الدنيا فقالت : يا محمد ! انظرني حتى أكلمك ، فقال : أو كلمتها ؟ فقلت : لم أكلمها ، و لم التفت اليها ، فقال : " تلك الدنيا ولو كلمتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة ، ثم سمعت صوتا أفزعني فقال لي جبرئيل : أتسمع يا محمد ، قلت : نعم ، قال : هذه صخرة قذفتها من شفير جهنم منذ سبعين عاما ، فهذا حين استقرت ، قالوا : فما ضحك رسول الله حتى قبض عليه السلام. "

قصة المعراج

في حديث الاسراء و المعراج كثير من المواعظ و الحكم ، و في نفس الوقت هو حديث ممتع ، يحمل الانسان بعيدا عن آفاق الزمان و المكان ، و يدعه يسيح في آفاق بعيدة و اشارت الى ذلك الآية القرآنية تقول : " لنريه من آياتنا. "

في وقت كان الناس يعتقدون بأن الارض هي محور الكون ، و ان السماء سقفها ، و ان النجوم مسامير وضعت في هذا السقف لكي لا تقع السماء على الارض ، و لتكون زينة ، و كان يتصور فريق منهم ان السموات عقول مجردة لا تحتمل الفساد.

في ذلك الوقت تمت حادثة المعراج ، و نقلتها الاحاديث ، و لابد ان نعرف ان قصة السموات تختلف عن موضوع الكبد مثلا في جسم الانسان ، إذ الكبد شيء خفي لا يهتم كل انسان به ، اما السماء فكل انسان يزعم انه يعرف عنها الشيء الكثير ، و ذلك لعلاقته الوثيقة بها ،فهو يرى الشمس و القمر و النجوم يوميا ، كما انه يشاهد تغييرات الأنواء باستمرار ، و هكذا فانه لابد ان يكون تصورا معينا عنالسماء في نفسه يكون خاطا في الأغلب ، و كثيرا ما تحولت الأساطير المرتبطة بعلم الهيئة القديم الى افكار مقدسة ، فمثلا : دافعت الكنيسة عن هيئة بطليموس ، و أحرقت أو قتلت من تحداها ، كما جرى لجاليليو ، حين قال : بان الارض التي تدور حول الشمس و ليس العكس.

و بالرغم من ذلك فقد جاءت اشارات صريحة في بعض الاحاديث عن طبيعة السماء يقول الامام علي (ع) في حديث له:

"ان وراء عالمكم هذا اربعين عالما. "

و اربعين عدد يدل على الكثرة في اللغة العربية.

ولقد كان الامام علي (ع) يقف في مسجد الكوفة فيقول بملئ فيه:

"سلوني عن طرق السماوات فاني اعلم بها من طرق الارض. "

و الامام الرضا (ع) يقول في حديث مسهب:

"ان لكل ارض سماء تحيطها. "

حديث المعراج

انتهينا في الدرس الماضي من الحديث عن الاسراء ، و نواصل هنا الحديث عن المعراج ، هذا الحديث يقول:

قال رسول الله (ص) : " فصعد جبرئيل و صعدت معه الى السماء الدنيا (يعني أقرب سماء الى الارض ، فان لفظة دنيا مؤنث أدنى ، و ادنى مقابل اقصى) و عليها ملك يقال له اسماعيل ، و هو صاحب الخطفة التي قال الله عز و جل " الا من خطفالخطفة فاتبعه شهاب ثاقب " و تحته سبعون الف ملك و تحت

كل ملك سبعون الف ملــك " (١. (

فقال : يا جبرئيل من هذا الذي معك ؟ فقال : محمد رسول الله (ص) قال : و قد بعث ؟ فقال : نعم ، ففتح الباب) كأن للسماء بابا و لكن ليس كالابواب المتعارفة لدينا) فسـلمت عليه ، و سلم علي ، و استغفرت له ، و استغفر لي ، و قال : مرحبا بالاخ الصالح ، و النبي الصالح ، و تلقتني الملائكة حتى دخلت السماء الدنيا ، فما لقيني ملك الا ضاحكا مستبشرا ، حتى لقيني ملك من الملائكة ، لم ار اعظم خلقا منه ، كريه المنظر ، ظاهر الغضب ، فقال لي مثلما قالوا من الدعاء ، الا انه لم يضحك ، و لم ار فيه من الاستبشار ما رأيت منضحك الملائكة ، فقلت : من هذا يا جبرئيل ؟ فإني قد فزعت منه فقال : يجوز ان يفزع منه ، فكلنا نفزع منه ، ان هذا مالك خازن النار ، لم يضحك قط ، و لم يزل منذ ان ولاه الله جهنم ، يزداد كل يوم غضبا و غيضا على اعداء الله و أهل معصيته ، فينتقم الله به منهم ، ولو ضحك الى احد قبلك او كان ضاحكا الى أحد بعدك لضحك اليك ، فسلمت عليه فرد السلام علي ، و بشرني بالجنة ، فقلت لجبرئيل : ألا تأمره ان يريني النار ؟ فقال له جبرئيل : يا مالك أر محمد النار ، فكشف عنها غطاءها ، و فتح بابا منها فخرج لهب ســاطع في السماء ، وفارت ، و ارتفعت حتى ظننت ليتناولني مما رأيت ، فقلت : يا جبرئيل : قل له : فليرد عليها غطاءها ، فأمره فقال لها : ارجعي فرجعت الى مكانها الذي خرجت منه " (٢)(١) مكلفون بإدارة السماء الأولى فقط ، و هناك احاديث تصف بعض الملائكة فتقول بان جناح الواحد منهم يمتد ما بين المشرق و المغرب ، أو ان الواحد منهم يحمل ثقل الارض كلها فوق جناحه ، و ما هذه الاشارات الا الى سعة السماوات.

(2)و من هذا الحديث يبدو أن جهنم ضمن اطار السماء الاولى و هي اقرب سماء الينا ، و قد تكون جهنم مثلا كرة ملتهبة من هذه الكرات الموجودة في احدى هذه المجرات ، او شمس من الشموس العتيقة التي تحدث فيها انفجارات هائلة تتجاوز عظمتها ملايين المرات عما هي عليه القنابل النووية في الدنيا ، أو يكون ما راه سيدنا و نبينا محمد (ص) جانبا من جهنم و الله العالم.

ثم مضيت فرأيت رجلا ادما جسيما ، فقلت : من هذا يا جبرئيل ؟ فقال : هذا ابوك آدم ، فاذا هو يعرض عليه ، فيقول : روح طيبة ، و ريح طيبة من جسد طيب ، ثم تلى رسول الله (ص) سورة المطففين على رأس سبع عشر آية " كلا ان كتاب الابرار لفي عليين * و ما أدراكما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون) " الى آخر الآيات) قال : فسلمت على أبي آدم ، و سلم علي ، و اسغفرت له ، و استغفر لي ، و قال : مرحبا بالابن الصالح ، و النبي الصالح ، المبعوث في الزمن الصالح.

قال : ثم مررت بملك من الملائكة جالس على مجلس ، و اذا جميع الدنيا بين ركبتيه ، و اذا بيده لوح من نور ينظر فيه ، مكتوب فيه كتاب ينظر فيه ، لا يلتفت يمينا ولا شمالا ، مقبلا عليه كهيئة الحزين ، فقلت من هذا يا جبرئيل ؟ قال : هذا ملك الموت ، دائب في قبضالارواح ، فقلت : يا جبرئيل أدنني منه حتى اكلمه ، فأدناني منه ، فسلمت عليه ، و قال له جبرئيل : هذا محمد نبي الرحمة الذي ارسله الله الى العباد ، فرحب بي و حياني بالسلام . قال : ابشر يا محمد . ارى الخير كله في امتك ، فقلت : الحمد لله المنان ، ذي النعم على عباده ، ذلك من فضل ربي ، و رحمته علي ، فقال جبرئيل : هو أشد الملائكة عملا ، فقلت : اكل من مات أو هو ميت فيما بعد هذا تقبض روحه ؟ فقال : نعم ، قلت : و تراهم حيث كانوا ، و تشهدهم بنفسك ؟ قال : نعم ، فقال ملك الموت : ما لدينا كلها عندي فيما سخر الله لي و مكنني عليها الا كالدرهم في كف الرجل يقلبها كيف يشاء ، و ما من دار الا و انا اتصفحه كل يوم خمس مرات ، و اقول اذا بكى اهل الميت على ميتهم ، لا تبكوا عليه فان لي عودة و عودة حتى لا يبقى منكم احد فقال رسول الله : كفى بالموت طامة يا جبرئيل ، فقال جبرئيل : انما بعد الموت اطم و اطم من الموت.

قال : ثم مضيت فاذا انا بقوم بين ايديهم موائد من لحم طيب ، و لحم خبيث ، يأكلون اللحم الخبيــث ، و يدعون الطيب ، فقلت من هؤلاء يا جبرئيل ؟ فقال : الذينيأكلون الحرام ، و يدعون الحلال ، و هم من امتك يا محمد ، فقال رسول الله (ص) : ثم رأيت ملكا من الملائكة جعل الله أمره عجيبا . نصف جسده النار ، و النصف الآخر ثلج ، فلا النار تذيب الثلج ، و لا الثلج يطفئ النار ، و هو ينادي بصوت رفيع و يقول : سبحان الذي كفى حر هذه النار فلا تذيب الثلج ، و كفى برد هذا الثلج فلا يطفئ حر هذه النار . اللهم يا مؤلــف بين الثلج و النار الف بين قلوب عبادك المؤمنين ، فقلت : من هذا يا جيرئيل ؟ فقال : هذا ملك وكله الله بأكناف السماء و اطراف الارضين ، و هو انصح ملائكة الله لأهلالارض من عباده المؤمنين يدعو لهم بما

تسمع منذ خلق ، و رايت ملكين يناديان في السماء و أحدهما يقول : اللهم اعط كل منفق خلفا ، و الآخر يقول : اللهم اعط كل ممسك تلفا.

ثم مضيت فاذا انا باقوام لها مشافر كمشافر الابل ، يقرض اللحم من جنوبهم و يلقي في افواههم ، فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ قال هؤلاء الهمازون اللمازون (المغتابون النمامون. (

ثم مضيت فاذا انا بقوم ترضخ رؤوسهم بالصخر ، فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ فقال : هؤلاء الذين ينامون عن صلاة العشاء ، ثم مضيت فاذا انا بأقوام تقذف النار في افواههم و تخرج من أدبارهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : هؤلاء " الذين يأكلون اموالاليتامى ظلما . انما يأكلون في بطونهم نارا و سيصلون سعيرا " ثم مضيت فاذا انا بأقوام يريد احدهم ان يقوم فلا يقدر من عظم بطنه ، فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون الربا " لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس " و اذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على النار غدوا و عشيا .. يقولون : ربنا متى تقوم الساعة ، قال : ثم مضيت فاذا انا بنسوان معلقات باثدائهن ، فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ فقال هؤلاء اللواتي يورثن اموال ازواجهنولاد غيرهم (١) ثم قال رسول الله (ص: (

اشتد غضب الله على امرأة دخلت على قوم في نسبهم من ليس منهم ، فاطلع على عوراتهم و اكل خزائنهم.

ثم قال : مررنا بملائكة من ملائكة الله عز وجل : خلقهم الله كيف شاء ، و وضع وجوههم كيف شاء ، و ليس شيء من اطياف اجسادهم الا وهو يسبح الله و يحمده من كل ناحية باصوات مختلفة ، فسألت جبرئيل عنهم ، فقال : كما ترى خلقوا . ان الملك منهم الى جنب صاحبه ما كلمه كلمة قط ، و لا رفعوا رؤوسهم الى ما فوقها ، و لا خفضوها الى ما تحتها خوفا من الله و خشوعا ، فسلمت عليهم فردوا علي ايماءا برؤوسهم من الخشوع ، فقال لهم جبرئيل : هذا محمد نبي الرحمة ، ارسله الله الى العباد رسولا و نبيا ، و هو خاتم النبيين ، و سيدهم ،افلا تكلمونه ؟ فقال : عندما سمعوا ذلك من جبرئيل اقبلوا علي بالسلام و اكرموني و بشروني بالخير لي و لامتي.

الرسول في السماوات

يقول رسول الله (ص) : " ثم صعدنا الى السماء الثانية فاذا فيها رجلان متشابهان .فقلت : من هذا يا جبرائيل ؟ فقال : ابناء الخالة يحيى و عيسى ، فسلمت عليهما و سلما علي ، و استغفرت لهما ، و استغفرا لي ، و قالا ، مرحبا بالاخ الصالح ، و اذا فيها منالملائكة و عليهم الخشوع ، و قد وضع الله وجوههم كيف شاء ، ليس منهم ملك الا يسبح الله بحمده بأصوات مختلفة.

ثم صعدنا الى السماء الثالثة ، فاذا فيها رجل ، فضل حسنه على سائر الخلق ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم ، فقلت : من هذا يا جبرئيل ؟ فقال :هذا(١) يعني أن المرأة تلد من الزنا فتجعله للزوج.

اخوك يوسف ، فسلمت عليه و سلم علي ، و استغفرت له ، و استغفر لي ، و قال : مرحبا بالنبي الصالح ، و الاخ الصالح ، المبعوث في الزمن الصالح ، و اذا فيها ملائكة عليهم من الخشوع مثلما وصفت في السماء الاولى و الثانية ، فقال لهم جبرئيل في أمري ، ما قال للآخرين، و صنعوا في مثلما صنع الآخرون ، ثم صعدنا الى السماء الرابعة ، و اذا بي رأيت رجلا ، فقلت : من هذا يا جبرئيل ؟ فقال : هذا ادريس رفعه الله مكانا عليا ، فسلمت عليه ، و سلم علي ، و استغفرت له ، و استغفر لي ، و اذا فيها من الملائكة الخشع مثلما في السماواتالتي عبرناها ، فبشروني بالخير لي و لامتي ، ثم رأيت ملكا جالسا على سرير و تحت يديه سبعون الف ملك ، تحت كل ملك سبعون الف ملك ، فوقع في نفس رسول الله انه هو ، فصاح به جبرئيل فقال : قم ، فهو قائم الى يوم القيامة.

ثم صعدنا الى السماء الخامسة فاذا فيها رجل كهل عظيم العين ، لم أر كهلا اعظم منه ، حوله ثلة من أمته ، فاعجبني كثرتهم فقلت : من هذا يا جبرئيل ؟ فقال : هذا المحبب في قومه هارون بن عمران ، فسلمت عليه و سلم علي ، و استغفرت له و استغفر لي ، و اذا فيها منالملائكة الخشع مثلما رايت في السماوات.

ثم صعدنا الى السماء السادسة و اذا فيها رجل آدم (اي اسمر اللون) طويل كأنه من شنوة (١) و لو ان له قميصين لنفذ شعره فيها ، و سمعته يقول : يزعم بنو اسرائيل اني اكـرم من ولد آدم على الله و هذا رجل اكرم على الله مني (و اشار الى رسول الله) فقلـت : من هذا يا جبرئيل ؟ فقال : هذا اخوك موسى بن عمران ، فسلمت عليه و سلم علـــي ، و استغفرت له ، و استغفر لي ، و اذا فيها من الملائكة الخشع مثلما في السماوات . (٢)(١) شنوة قبيلة عربية معروفة طوال القامة.

(2)و هكذا فاننا نرى بان الرسول (ص) يلتقي في كل سماء بنبي أو أكثر تعبيرا عن وحدة الرسالات السماوية و عن الاخوة بين الانبياء ، و عن اختلاف درجات الانبياء.

ثم صعدنا الى السماء السابعة فما مررت بملك من الملائكة الا قال : يا محمد احتجم ، و أمـر أمتك بالحجامة (١) و اذا فيها رجل اشمط الرأس و اللحية ، جالس على كرسي ، فقلت : يـا جبرئيل من هذا الذي في السماء السابعة على باب البيت المعمور . في جوار الله ؟ فقال: هذا يا محمد ابوك ابراهيم ، و هذا محلك و محل من اتقى من أمتك ، ثم قرأ رسول الله " :ان اولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه و هذا النبي و الذين آمنوا و الله ولي المؤمنين " فسلمت عليه و سلم علي وقال : مرحبا بالنبي الصالح ، و الابن الصالح ، المبعوث في الزمن الصالح ، و اذا فيها من الملائكة الخشع مثلما في السماوات فبشروني بالخير لي و لأمتي . (٢)قال رسول الله (ص " : (و رأيت في السماء السابعة بحارا من نور تتلألأ . تلألؤها يخطف بالابصار و فيها بحار من ظلمة ، و بحار من ثلج ترعد ، فكلما فزعت و رأيت هؤلاء سألت جبرئيل فقال : ابشر يا محمد ، و اشكر كرامة ربك ، و اشكر الله بما صنع اليك ، قال: فثبتني الله بقوته و عونه حتى كثر قولي لجبرئيل و تعجبي ، فقال جبرئيل : يا محمد تعظم ما ترى (هل تراه عظيما) ؟! انما هذا خلق من خلق ربك فكيف بالخالق الذي خلق ما تراه ، و ما لا تراه اعظم من هذا!!

ان بين الله و بين خلقه سبعين الف حجاب ، و اقرب الخلق الى الله انا و اسرافيل ، و بيننا و بينه اربعة حجب : حجاب من نور و حجاب من الظلمة و حجاب من الغمامة و حجاب من الماء.

و قال رأيت من العجائب التي خلق الله ، و سخر على ما اراده ، ديكا رجلاه في(١) الجحامة تعني ان يأخذ الانسان مقدارا من دمه كل عام.

(2)اننا نجد ان الانبياء في حديثهم مع النبي محمد (ص) يقولون له : المبعوث في الزمن الصالح و هذا يدل على ان البشرية قد تكاملت عبر رسالات الله حتى بلغت مرحلة النضج في عهد رسول الله (ص) و العهود التالية لعهده ، و انسان اليوم انما يتقدم في مدارج الكمال بفضل رسالات الله.

تخوم الارض السابعة و رأسه عند العرش و هو ملك من ملائكة الله تعالى ، خلقه الله كما اراد ، ثم اقبل مصعدا حتى خرج في الهواء الى السماء السابعة ، و انتهى فيها مصعدا حتى انتهى قرنه الى قرب العرش ، و هو يقول سبحان ربي حيث ما كنت .. لا تدري اين ربك من عظم شأنه ، و له جناحان في منكبه اذا نشرهما جاوزا المشرق و المغرب ، فاذا كان في السحر نشر جناحيه و خفق بهما ، و صرخ بالتسبيح و يقول : سبحان الله الملك القدوس ، سبحان الله الكبير المتعال لا إله الا الله الحي القيوم ، و اذا قال ذلك سبحت ديوك الارض كلها ، و خفقت بأجنحتها و أخذت بالصراخ ، فاذا سكت ذلك الديك في السماء سكتت ديوك الارض كلها ، و لذلك الديك زغب خضر (١) و ريش ابيض شديد البياض .. ما رأيت مثله قط و له زغب اخضر ايضا تحت ريشه الابيض كاشد خضرة ما رأتيها قط.

قال : ثم مضيت مع جبرئيل ، فدخلت البيت المعمور ، فصليت فيه ركعتين و معي اناس من اصحابي عليهم ثياب جدد ، و آخرين عليهم ثياب خلقان ، فدخل اصحاب الجدد و جلس اصحاب الخلقان (٢) ثم خرجت فانقاد لي نهران ، نهر يسمى الكوثر ، و نهر يسمى الرحمة ، فشربت من الكوثر و اغتسلت من الرحمة (٣) ثم انقادا لي جميعا حتى دخلت الجنة و اذا على حافتيها بيوتي و بيوت اهلي ، و اذا ترابها كالمسك ، و اذا جارية تنغمس في انهار الجنة فقلت : لمن انت يا جارية . فقالت لزيد بن حارثة . (٤)(١) و الزغب هو الريش الصغير.

(2)و القرآن الحكيم يقول في سورة البقرة " و تزودوا فان خير الزاد التقوى " فلباس التقوى خير لباس و زاد التقوى خير زاد ، و كلما كنت تقيا كان ثوبك في يوم القيامة اجد و انئذ يمكنك ان تدخل مع رسول الله (ص) الى البيت المعمور فتصل فيه.

(3)يعني استوعب رسول الله الخير الكثير و لفته الرحمة.

(4)الذي تبناه رسول الله)ص) وهو والد اسامة و قد استشهد في معركة مؤتة ، التي استشهد فيها عبد الله بن رواحة و جعفر الطيار.

و اذا رمانها مثل الدلي العظام (١) و اذا شجرة لو ارسل طير في اصلها ما دارها سبعمائة سنة و ليس في الجنة منزل الا وفيه غصن منها ، فقلت ما هذه يا جبرئيل ؟ فقال : هذه شجرة طوبى قال الله : " طوبى لهم و حسن مآب " قال رسول الله : فعندما دخلت الجنة رجعت الى نفسي فسألت جبرئيل عن تلك البحار و هولها و أعاجيبها ، فقال : هي سرادقات الحجب التي احتجب الله تبارك و تعالى بها ، و لولا تلك الحجب لهتك نور العرش كل شيء فيه.

و انتهيت الى سدرة المنتهى فاذا الورقة منها تظل أمة من الأمم ، فكنت منها كما قال تعالى : " قاب قوسين او أدنى " فنادى الله سبحانه و تعالى : " آمن الرسول بما انزل اليه من ربه " فقلت انا ، مجيبا عني و عن امتي : " و المؤمنون كلآمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله و قالوا سمعنا و اطعنا غفرانك ربنا و اليك المصير " فقال الله : " لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت " فقلت : " ربنا و لا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا " فقال الله : " لا حملتك . "

فقلت : " ربنا لا تحملنا مالا طاقة لنا به و اعف عنا و اغفر لنا و ارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين. "

فقال الله تبارك و تعالى : " قد اعطيتك ذلك و لامتك. "

قال الصادق (ع: (

"ما وفد على الله تعالى أحد أكرم من رسول الله حين سأل لأمته هذه الخصال " (٢)(١) حيث أن رمان الجنة كالدلو ، و دلي جمع دلو.

(2)و تلك هي الآيات الاخيرة من سورة البقرة ، و قد جاء ذلك في مضمون حديث عن رسول الله (ص) حيث قال : " رفع عن امتي تسع : الخطأ و النسيان و مالا يعلمون و ... و الى آخر الحديث. "

فقال رسول الله : " يا رب اعطيت انبياؤك فضائل فاعطني ! فقال الله : قد اعطيتك فيما اعطيتك كلمتين من تحت عرشي : " لا حول و لا قوة الا بالله ، و لا منجى منك الا اليك " قال : و علمتني الملائكة قولا اقوله اذا اصبحت و امسيت : " اللهم انظلمي اصبح مستجيرا بعفوك ، و ذنبي اصبح مستجيرا بمغفرتك ، و ذلي اصبح مستجيرا بعزتك و فقري اصبح مستجيرا بغناك ، و وجهي الفاني اصبح مستجيرا بوجهك الباقي الذي لا يفنى. "

ثم سمعت الاذان و اذا ملك يؤذن لم ير في السماء قبل تلك الليلة.

فقال : الله اكبر - الله اكبر.

فقال الله : " صدق عبدي انا اكبر من كل شيء . "

فقال : اشهد ان لا اله الا الله - اشهد ان لا اله الا الله.

فقال الله : " صدق عبدي انا الله لا اله الا انا و لا اله غيري. "

فقال : اشهد ان محمدا رسول الله - اشهد ان محمدا رسول الله.

فقال الله : " صدق عبدي ان محمدا عبدي و رسولي . انا بعثته و انتجبته. "

فقال : حي على الصلاة - حي على الصلاة.

فقال الله : " صدق عبدي دعى الله فريضتي ، فمن مشى اليها راغبا محتسبا كانت له كفارة لما مضى من ذنوبه. "

فقال : حي على الفلاح - حي على الفلاح.

فقال الله : " حي الصلاح و النجاح و الفلاح. "

ثم اممت الملائكة في السماء كما اممت الانبياء في بيت المقدس.

و للحديث بقية حول ان الرسول (ص) كلف بخمسين صلاة ، و حين جاء الى موسى (ع (و اخبره بذلك ، فقال له موسى (ع) ان امتك لا تطيق ذلك ، فارجع الى ربك فليقللها ، فعمل بذلك و قللها الله حتى خمس صلوات ، فقال له موسى (ع) : ان امتك لا تطيق ذلك ايضا ، لكن النبي(ص) خجل من ربه و استحيا ان يطلب من الله التقليل . و قال (ص) اصبر عليها و تصبر امتي و قال الله : " ان أديت ذلك انت و امتك فاني ساحسب الصلاة الواحدة بعشرة صلوات. "

و هناك احاديث اخرى في هذا المجال يمكن الرجوع اليها في الكتب التي احتوت على النصوص الاسلامية.

ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم

هدى من الآيات

ان القرآن الحكيم يكرس في الانسان روح المسؤولية ، و يبين له بأن طبيعة حياته ليست الا نتيجة لارادته و سعيه ، و يضرب ربنا مثلا في هذه السورة عن واقع بني اسرائيل ، و كيف انهم عندما احسنوا تقدموا ، و عندما اساؤوا تخلفوا ، و شروط السعادة اتباع هدى اللهالذي يحمله رسوله في صورة كتاب الهي ، و رسالة الكتاب تتلخص في التوكل على الله وحده ، و نبذ الشركاء و الانداد.

و بنو اسرائيل الذين ذرأهم الله من صلب الناجين عن واقعة الطوفان ، و حملهم في سفينة نوح (ع) ذلك العبد الشاكر لربه ، هؤلاء من الله عليهم - مرة اخرى -بكتاب و رسول هو موسى (عليه السلام. (

و قضى الرب الى بني اسرائيل في الكتاب : انهم يفسدون - بالتأكيد - في الارض مرتين ، و يطغون فبعد اولى المرتين يبعث الله عليهم عبادا له ، و لكنهم يعودون- بفضل الله -اقوياء ، و يغلبون اعداءهم ، حيث يجعلهم الله أكثر اموالا و اولادا . و بسبب قوتهم أو ضعفهم ، احسانهم أو اساءتهم ، و هكذا يعود اولئك العباد الى سابق قوتهم ، و يدخلون المسجد و هذه سنة الله قائمة على اساس الجزاء ، ليس في الدنيا فقط و انما في الآخرة ايضا حيث ان ربنا يجعل جهنم للكافرين حصيرا .

بينات من الآيات

ماذا جرى على بني اسرائيل ؟ يقول تعالى:

[2][و ءاتينا موسى الكتاب و جعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا]قد جمعت رسالة الله لبني اسرائيل و التي حملها موسى في كتاب التوراة في كلمة (توحيد الله) و أثر التوحيد في استراتيجية العمل " الا تتخذوا من دوني وكيلا " هو الاعتماد على الله ، و الاستفادة من

مواهبه العظيمة التي اسبغها على الانسان، و عدم الاعتماد على الناس و ما لديهم من أفكار و أشياء ، و بالتالي الاستقلال السياسي ، و الاقتصادي ، و الثقافي الذي هو من اعظم ثمرات توحيد الله.

و يبـــدو ان هذا هو اهم ما توحي به كلمة " ان احسنتم احسنتم لأنفسكم و إن اسأتم فلها " اذ التوكل على الله و ليس على الناس رمز التقدم ، و عكسه عنوان التخلف.

[3][ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا]

هناك فرق بين من يدخل مكتبته فيجد الكتب متراكمة فيها ، و بين من يستوعب الكتب و يحفظها ، فيعرف السقيم منها و السليم ، فليس كل من امتلك مكتبة كان عالما ، كما أن هناك فرق بين من يستوعب علما ، و بين من يعمل بذلكالعلم ، فليس كل عالم عامل ، و هكذا يوجد فرق بين من يعرف الحقائق الروحية و النفسية و بين من يربي نفسه عليها ، فاغلب الناس عالمون غير عاملين ، و قليل من العاملين يربون انفسهم على الاخلاق الفاضلة.

فقد تعرف الشكر خلال لحظات و تعرف حقيقته ، و لكن اذا أردت ان تحول هذه الحقيقة الـى سلوك فتكون من الشاكرين فان ذلك ليس بالأمر الهين ، و المسافة بينهما مقدار الارادة.

معرفة الذات منطلق الشكر

ان الشكر عند الانسان يتجسد تبعا لاحد موقفين من الطبيعة حوله:

الاول : ان يعتقد بانه موجود متكامل بالاصل ، و انه يملك بذاته الجوارح ، و الجوانح ، و العقل ، و العل
الثاني : ان يعتقد بانه كان قطرة من ماء مهين فصار انسانا ، ثم اعطاه الله الجوارح و النعم و هي ليست م
رتم لأزيدنكم ، و لئن كفرتم ان عذابي لشديد " (ابراهيم / ٧)

و هكذا فان كل نعمة تستحق الشكر الجزيل و الثناء الجميل ، فبالعين ترى الاشياء ، و بالاذن تسمع ، و القلب ينبض بانتظام لتبقى حيا باذن الله ، و ما على الانسان الا ان يستفيد من كل ما قدره الله له ، فلا يعمل الا صالحا ، و لا ينظر الى ما حرمه الله ، و لا يسمع الا الكلام الطيب . و هذا هو معنى الشكر.

الكثير من الناس بدل ان تكون النعم عاملا يؤكد فيهم صفة الشكر ، و التواضع للذي من عليهم بها و هو الله ، بدل ذلك يتكبرون لانهم يشعرون بالكمال ، فيقدسونذواتهم ، و يقولون : انما اوتيناه على علم عندنا كما فعل قارون ، اما المؤمنون فانهم يزدادون ايمانا و شكرا لله.

و في حديث عن عائشة ان رسول الله (ص) كان يغيب عن فراشه و يتوجه الى البقيع ، فيتعبد و يبكي و يتضرع فتقول له عائشة : يا رسول الله أو لم يغفر لك ربك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر ؟ فيقول : نعم . فتقول له : فلماذا تتعب نفسك ؟ فيقول:

"أفلا أكون عبدا شكورا. "

هكذا كان نوح عبدا شكورا ، و هكذا يأمر الله بني اسرائيل الذين انقد آباؤهم مع نوح من ذلك الطوفان العظيم ان يشكروا ربهم ، و هو بعدئذ من عليهم بكتاب فيه هدى يحمله اليهم نبي عظيم و هو موسى (عليه السلام) الذي قادهم باذن الله من نصر الى نصر.

فلو أنهم شكروا نعمة الرسالة ، و نفذوا تعاليمها ، فقد احسنوا لانفسهم ، و كان هذا في الكتاب مسطورا كما بينته الآية التالية.

الظالم سيف الله

[4][و قضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب]

لقد انبأ كتاب التوراة بني اسرائيل بقضاء الله الذي سوف يتحقق.

[لتفسدن في الأرض مرتين و لتعلن علوا كبيرا]

علو بني اسرائيل يشبه علو فرعون الذي يقول عنه ربنا : " ان فرعون علا في الأرض و جعل اهلها شيعا " (القصص /٤).

و العلـــو هو حالة الغرور بالذات ، و الاستكبار على الحق ، و الاستعلاء على الآخـرين..

[5][فإذا جاء وعد أولاهما]

يعني حان وقت الفساد الاول.

[بعثنا علكيم عبادا لنا اولي بأس شديد]

البأس : الشدة و الغلظة و هي كلمة تستخدم عادة عند الحديث عن الحرب.

و لكن من هم هؤلاء العباد ؟ هل يصدق هذا على بخت نصر ، هكذا قال البعض فلقد كان ملكا على بابل في العراق ، فقاد جيشه نحو فلسطين ، فأنهى حضارة اليهود ، و هدم الهيكل ، و قتل سبعين ألفا منهم ، و سبى الآلاف ، ثم تأججت الحروب بين بابل و بلاد فارس ، و التيكان يرأسها كورش الاول ، فانتصر الاخير و حرر المستعبدين من بني اسرائيل ، و اعادهم الى فلسطين ، و بنى لهم الهيكل ، و حينما رأى اليهود ذلك علو في الأرض ثانية و افسدوا فيها.

و لو كان هذا المقصود فهل يمكن ان يسمي القرآن السفاكين كبخت نصر " عباد لنا " ؟

بلى ، اذ الصالح و الفاسد كلاهما عبدان لله ، و قد يكون الظالم و سيلة انتقام الرب من العصاة حيث جاء في حديث قدسي " الظالم سيفي انتقم به و انتقم منه . "

[فجاسوا خلال الديار]

و جاس من التجسس اي دخل بخت نصر و جماعته أعماق البلاد ، و تجسسوا عن احوالها.

[و كان وعدا مفعولا]

فحينمـا ينزل البلاء قد لا يدفعه الدعاء ، و لا الامر بالمعروف أو النهي عن المنكر ، و حين يولى على الناس شرارهم بسبب تفريطهم في جنب الله ، و ترك وظيفة الامر بالمعروف و النهي عن المنكر لا يستجاب دعاؤهم . لماذا ؟ لان الذنب قسمان ، فاذا كنت قد اذنبت انت ، ثم رفعت يديك بالدعاء و تبت الى ربك فان الله قد يغفر لك ، اما إذا فسد المجتمع كله ، فانه لا ينفعه دعاء فرد واحد ، انما يجب ان يتوبوا الى الله جميعا . و يصلحوا ما فسد من امورهم.

[6][ثم رددنا لكم الكرة عليهم]

أي صارت الكرة لبني اسرائيل على اهل بابل و الحاكمين فيها.

[و أمددناكم بأموال و بنين و جعلناكم أكثر نفيرا [النفير جمع نفر و معناه العدد المقاتل.

الانسان قرين عمله

[7][إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم و إن أساتم فلها]

لقد كان علوكم و قدرتكم بسبب اعمالكم الحسنة . و الانسان قرين عمله حسنا كان أو سيئا ، و قد قيل - مرة - لهرتزل مؤسس الكيان الصهيوني الغاصب في فلسطين :كان اليهود خلال اربعة الآف سنة بؤساء محرومين ، فكيف تبادر الى ذهنك تأسيس دولة لهم ؟ فقال : قرأت قرآن (محمد) فرأيت فيه آية تقول : " ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم و ان أسأتم فلها " فعرفت ان البؤس الذي يعانيه اليهود في العالم ليس الا من عند انفسهم.

هؤلاء الصهاينة حين غصبوا اراضي الآخرين ، و طردوهم من ديارهم ، و استبدوا في البلاد ظلما و بطشا ، لن يتركهم الله ، بل سوف يسلط عليهم عبادا له ذوي بأس شديد ، فيصيبهم ما اصابهم في المرتين السابقتين اذ افسدوا في البلاد.

[فإذا جاء وعد الآخرة]

اي حان وقت الافساد الثاني . سلط الله عليهم ملك الروم (اسبيانوس) الذي بعث قائده (طرطوز) الى فلسطين فدخل البيت المقدس ، و قتل اهلها ، و سباهم ، و عمل الفضائع في بني إسرائيل حيث يقول تعالى:

[ليسؤوا وجوهكم و ليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة]بالطبع ان (بخت نصر) غير (اسبيانوس (و لكن القرآن يريد ان يذكرنا بان الطغاة سواء جاؤوا من الشمال أو الجنوب فهم ذووا مسلك واحد و هدف مشترك.

و مـا ذكرناه سلفا واحد من التفاسير المعروفة في هذه الآيات ، و هناك من يرى غير ذلك ، مثلا:

- 1 ان (القدس) قد بني مرة على عهد داود و سليمان (عليهما السلام) فهدمه بخت نصر ، و مرة اخرى بني على عهد ملوك الفرس من سلسلة (هخامنش) و ان قائدا باسم (طيطوس) هدمه و بقي مهدما حتى فتحه المسلمون على عهد الخليفة الثاني.

- 2 و قالوا : بأن فساد بني إسرائيل الاول كان في عهد بداية الاسلام ، حيث قمعه عباد الله المسلمون . اما فسادهم الثاني فهو اليوم ، و سوف يقمعه عباد الله المسلمون ، ايضا . نرجو ان يكون ذلك قريبا بأذن الله.

[و ليتبروا ما علوا تتبيرا]

اذ كانوا يقطعون الاشجار ، و يحطمون العمران و يهلكون الحرث و النسل.

[8][عسى ربكم أن يرحمكم و إن عدتم عدنا]

فاذا تركتم الفساد ، و توجهتم الى تعاليم الله فانه سوف يغنيكم و يرحمكم . هذا في الدنيا اما في الآخرة فانه تعالى يقول:

[و جعلنا جهنم للكافرين حصيرا]

ان بني إسرائيل لم ينتفعوا بهذه الحكمة الالهية البالغة ، فجاؤوا الى فلسطين جباريـن بعـد أن ربطوا انفسهم بالقوى المفسدة في الارض ، و قتلوا ، وشردوا ، و ارهبوا ، و ارتكبوا ابشع الجرائم بحق الناس الآمنين من اهالي فلسطين بأسم حقهم في ارض الميعاد ، ولعمـري لو كان دينهم يعطيهم شرعية الظلم و العدوان فانه ليس دين الله ، و لا هو ينسجم مع وجدان الانسان ، انما هي عقد نفسية تراكمت عبر التاريخ ، و انفجرت اليوم ، و لإن امهلهم الرب العزيز الحكيم ، فلسوف يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

هــذا عنهم ، اما عنا فلقد جعلنا هذه الآية خلف ظهورنا ، و لم ننتفع بحكمتها ايضا ، فلقد كسلنا ، و تقاعسنا ، و اختلفنا ، و لم نتضرع الى الله ، و نصلح انفسنا حين أحاط بنا البلاء ، و كان بنوا إسرائيل اليوم بالنسبة الينا كما كان بخت نصر بالنسبة اليهم ظالمين ، ينتقم الله بهم منا ، و ثم ينتقم منهم بمن يشاء سبحانه.

الانسان ذلك المسؤول

هدى من الآيات

بعد أن بين القرآن الحكيم في الآيات السابقة قصة بني اسرائيل التي تركز البحث فيها حول العلاقة بين اعمالهم و ما اصابهم تبعا لذلك ، لخص فكرة القصة و عبرتها في كلمة حين قال : " إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم و إن أسأتم فلها " تؤكد هذه الآيات ذات الفكرة ، و هي مسؤولية الانسان الفرد أو المجتمع ، و يبين أبعادها ، و كيف انها اخطر فكرة ينبغي على الانسان ان يفهمها ، في حين انه ابعد ما يكون عنها ، ذلك لانها تدعوه الى السعي و العمل الجدي ، و التحدي ، و الصمود ، و ما الى ذلك من اسباب التقدم و التي تبدوصعبة على النفس البشرية.

و لذلك فانه تعالى يضرب لنا مثلا من التاريخ مرة ، و يؤكد مرة اخرى اهمية تحمل المسؤولية في الحياة الدنيا و دور هذا الاحساس في تقدم البشرية ، ثم انه يذكرنا بيوم القيامة و مدى مسؤولية الانسان عن اعماله فيها.

بينات من الآيات

[9]لقد أتم الله حجته على خلقه حين انزل عليهم القرآن الذي يهديهم الى الصراط القويم.

[إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم]

"يهدي " من اراد الهداية " للتي هي أقوم " بعيدا عن الهوى ، و الضلالة ، و الخرافة ، و في كل المجــالات السياسية ، و الاقتصادية ، و الاجتماعية ، و الثقافية و التربوية و .. و .. و بالتالــي فهو ينسق بين سعي الانسان من جهة ، و بينفطرته ، و الطبيعة من حوله ، و التاريخ و سننه من جهة اخرى ، و يخبره ان الانسان قرين عمله ، ان خيرا فخير ، و ان شرا فشر ، فيقول:

[و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا]فلا يكفي الايمان وحده ، بل يجب ان يعمل المؤمن الصالحات ، و عندها يكون له عند الله اجر كبير.

[10][و أن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما]فالايمان بالآخرة وحده ركن مهم يجعل الانسان يشعر بالمسؤولية ازاء أعماله ، و انه مجزي عليهما ، ان لم يكن ذلك في الدنيا ففي الآخرة . مما يدفعه لتحمل المسؤولية و العمل الدؤوب.

[11][و يدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير]

الخطأ الكبير الذي يرتكبه الانسان دائما هو أنه يحسب الشر خيرا ، و السؤال : أو ليس له عقل يميز بين الخير و الشر ؟ بلى له عقل و لكنه عادة ما يكون محجوبا بأهوائهو مصالحه التي يستعجل بها ، فيقدم على الكبائر من الذنوب ظنا منه بأنها خير بمجرد انها توفر له بعض اللذات الآنية ، و لا يثور على السلطان الجائر خشية فقدان بعض المصالح العاجلة.

[و كان الإنسان عجولا]

و هذه الطبيعة هي التي تجعل الانسان يتوهم بان عصفورة في الحاضر خير من عشرة في المستقبل ، فيتقرب الى الدنيا لانها عاجلة و ان كانت شرا ، غافلا عن ان)رب اكلة منعت اكلات) بينما يتنازل عن الآخرة و يحيد عن طريقها.

و قوله تعالى : " و كان الانسان عجولا " تعليل لقوله " و يدع الانسان بالشر دعاءه بالخير " ذلك لان الخير بحاجة الى صبر . و المسؤولية لا تنمو في قلب عجول ، و انما في قلب مطمئن صبور ، و لعل الآية

الكريمة تذكر ايضا بان تأخر الجزاء عنوقت العمل قد يغري الانسان الغافل بارتكاب الجرائم لان الانسان كان عجولا.

و العجلة من ذات الانسان ، حيث انها نابعة من الجهل بالمستقبل ، و الاحتجاب عن غيب الزمن ، بينما الصبر وليد العقل ، و العلم بالنتائج المستقبلية ، و معلوم ان ذات الانسان جهل ، و العلم من الله ، و هكذا تكون الآية منتظمة الى سياق الآيات التي تذكرنا بالمسؤولية.

المسؤولية و عامل الزمن

[12][و جعلنا الليل و النهار آيتين]

فالليل و ما فيه من سكون و هدوء آية من آيات الله ، و كذلك النهار و ما فيه من تحرك و نشاط آية ايضا.

[فمحونا آية الليل و جعلنا آية النهار مبصرة]

اي جعلنا الليل سكنا و هدوءا - و كأن الليل آية ممحاة - ذلك لان الليل لمن ينامه قصيـر ، أما النهار فايته مبصرة لانه عامر بالنشاط و التحرك من اجل الحصول على الـرزق.

]لتبتغوا فضلا من ربكم و لتعلموا عدد السنين و الحساب]تعاقب الليـل و النهار مبدأ للحساب الزمني - هذا هو ظاهر الآية -اما المغزى منها فهـو : ان حركة الزمان تدعو الانسان الى تحمل مسؤوليته في الدنيا ، و ادراك حقيقة نفســـه ، فالانسان الذي يجمد فكره فلا يتحرك فانه لا ينتج شيئا سوى العبث و ضياع الوقت ،و الله تعالى يقول في حديث قدسي : " يا ابن آدم انما انت ايام فاذا مضى يوم فقد مضى بعضك " فالذي يعرف ان للزمان قيمة (يحاسب نفسه على الساعات و الدقائق) يتقدم لانه يعلم ان " من كان مطيته الليل و النهار يسار به وان كان واقفا. "

[و كل شيء فصلناه تفصيلا]

فالايام لها حسابها ، و اليوم يختلف عن الغد ، و هذا الشهر يختلف عن الآخر ، و ان كانت كلها لله ، و قد فصل الله لنا بيان حقيقة الزمان ، و التقدير لكي نتذكر و نعي واقع انفسنا ، و الله الذي دبر شؤون الليل و النهار و القمر و الشمس ، و قدرهما بالسنين والحساب ، جعل للانسان ايضا كتابا و حسابا ، فما من عمل يقوم به أو خطوة يخطوها ، أو فكرة تجول في ضميره إلا و تسجل في كتابه ، و يحاسب عليها يوم القيامة.

[13][و كل إنسان الزمناه طائره في عنقه]

و هذه الآية دعوة ضمنية الى تحمل المسؤولية لأنها تذكر الانسان بمسؤوليته عن عمله و الذي يترتب عليه جزاؤه في الحاضر و المستقبل.

[و نخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا]

فللانسان كتاب عند الله ، فيه تفصيل ما عمله في دنياه . ينشره له يوم القيامة ليقرأه.

[14][اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا]

الانســان يعترف بأعماله ، و يحكم نفسه بنفسه ، فلا حاجة الى محكمة تقضي عليه ، و لا الى شهود يثبتون عليه جرائمه ، بالرغم من وجود تلك المحكمة و اولئك الشهود .

و بعد ذلك يوضح لنا ربنا بعدا آخر من ابعاد المسؤولية و هي مسؤولية الانسان عن هداه و ضلالته كمسؤولية عن سعيه و عمله ، إذ يقول تعالى:

[15][من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه و من ضل فإنما يضل عليها]و كثيرا ما ترى اناسا يضلون ، فيلقون اللوم على عاتق الآخرين كأن يقول : لم يكن هناك من يهديني ، او ان الحكومة ضللتني ، او ان البيئة الثقافية و التربوية لم تكن مساعدة لي على الهداية . كلا .. ان الله اعطى لكل انسان قدرة الكشف و الاهتداء ، و وفر له فرصة الهداية ، و انما يتبع البشر هواه لانه أسهل له و اقرب الى طبيعته الجاهلية العجولة.

و مثلما هو مسؤول عن ضلالته ، فهو مسؤول عن اعماله ، و حرام ان يلقي اللائمةعلى الآخرين.

[و لا تزروا وازرة وزر أخرى]

فلا يستطيع احد ان يهدي احدا الا اذا اراد الآخر ان يهتدي بهداه ، كما لا يستطيع احد اضلال الآخر الا اذا اراد هذا ان يضل بضلالته ، و لكن القرآن ينفي ذلك و يقول : ان لكل عمله . و لا أحد يقدر على تحمل وزر عملك.

و الآية هنا تقول " وازرة " و هي اسم فاعل للمؤنث ، كناية عن النفس البشرية ، و هنا تتبين العلاقة بين النفس و المسؤولية العملية للانسان.

[و ما كنا معذبين حتى نبعث رسولا]

ان التاريخ يحدثنا بان العذاب لم ينزل على امة ما الا من بعد ان يرسل الله اليهم هاديا ينذرهم ، ويبلغهم رسالات ربهم.

كلمة "الرسول " عامة تشمل كل من حمل رسالة التوحيد بصورة مباشرة كرسول الله)ص) أو غير مباشرة مثل الائمة المعصومين (ع) أو الفقهاء المجتهدين ، أو الرساليين و المجاهدين.

كيف تنهار الأمم ؟

و دليل مسؤولية البشر ، هو جزاؤه في الدنيا على سيئات عمله ، و علنيا ان نقيس الآخرة بالدنيا ، و دليل رحمة الله و حكمته ، أنه لا يعذب أحدا حتى يبعث اليه رسولا ، انه سبحانه لم يهلك قرية الا بعد ان اتم حجته عليهم بالرسل.

[و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها [يربط القرآن الحكيم في هذا السياق بين الاسراف و هلاك القرى ، و لكن بماذا امر الله المترفين ؟

المأمور به هنا محذوف و هو معطوف على قوله تعالى : " حتى نبعث رسولا " فالله سبحانه و تعالى يأمر الناس بالهدى و الخير و التقوى ، و لكنهم حين لا يعملون بها بل يفسقون عنها ، و يحاربون الله و رسوله ، فماذا يحدث آنئذ ؟

[فحق عليها القول فدمرناها تدميرا]

اي تحققت عليهم المسؤولية و اصبحت لله الحجة البالغة عليهم ، فدمرهم بسبب تركهم لها تدميرا ، و لعل الآية تشير الى حقيقة تاريخية هامة هي : ان الله سبحانه يبعث الرسل عادة علـــى القرى التي ينتشر فيها الفساد . و يتسلط عليها المترفون ، و ذلك لكي يرتدعوا، و لا يستمروا في رحلة الفناء حتى النهاية ، و عادة لا يتوبون فيحق عليهم العذاب ، و ربما تشير الآية ايضا الى الدورات الحضارية في التاريخ .

[17][و كم أهلكنا من القرون من بعد نوح و كفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا]فاذا قلنا باننا لسنا من قوم نوح ، أو قوم عاد ، أو ثمود ، فان الله يؤكد لنا بانه سبحانه اعلم بذنوبنا منا ، و ليست المسألة محصورة في عنصر ما ، بل هي سنة الله في الخلق.

[18]قد جاء في الآية (١٢) من هذه السورة المباركة : " و يدع الانسان بالشر دعاءه بالخير و كان الانسان عجولا " و هذه الآية تكلمنا و تقول:

[من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد]فاذا اراد الانسان الدنيا فان الله يؤتيه منها بقدر حكمته و وفق سنته.

[ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا]

فيذم نفسه ، و يذمه الآخرون ، و يدحرونه ، اي يبعدونه عنهم و كذلك الله يذمه و يدحره.

[و من أراد الآخرة و سعى لها سعيها و هو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا]و تشير الآية الى ان سعي الانسان في الدنيا مفيد ، فان كان يريد الدنيا فان الله سبحانه يعطيه منها بقدر ، و من اراد الآخرة يشكره الله على سعيه.

و لكسب رضى الله و الفوز بالجنة لا يكفي الانسان ان يحلم بذلك ، بل عليه ان يسعى من أجله ، و ان يكون مؤمنا بعمله ، يؤديه عن خلوص نية.

[20][كلا نمد هؤلاء و هؤلاء من عطاء ربك و ما كان عطاء ربك محظورا]و قد يتساءل المرء : من اين تأتي قوة الانسان التي يختار بها طريقه و يسعى بها فيه ؟

الحقيقية ان قوة الاختيار ، و قوة السعي هي من عند الله ، فحتى العصاة يستمدون قوتهم من الله ، فليس عطاء الله ممنوعا عن احد ، و هذا منتهى الحرية الممنوحة للبشر.

[21][انظر كيف فضلنا بعضكم على بعض و للآخرة أكبردرجات و أكبر تفضيلا]

فاذا كان الفرق بين انسان و آخر في الدنيا الاموال الكثيرة ، و الرفاه الواسع ، فان هذه الفواصل في الآخرة تكون اكبر بكثير ، و المسافة بينهما أعرض ، فترى انسانا مؤمنا يخرج من قبره في يوم القيامة ، فيجتاز الصراط بسرعة الى الجنة ، و هناك مؤمن ينتظر خمسين الف سنة في صحراء القيامة حتى يصل دوره للحساب ، بينما نجد جارهما المنافق أو الكافر يلقى في نار جهنم مذموما مدحورا.

المسؤولية الاجتماعية للانسان المؤمن

هدى من الآيات

تحدد الآيات الكريمة هذه عدة جوانب من المسؤولية الاجتماعية للانسان ، و كمثل تنفيذي لفكرة المسؤولية ذلك ان القرآن الحكيم لا يحدثنا عن قضية في جانبها النظري ، الا و تطرق الى جانبها العملي ايضا ، فلا يدع النظريات بلا برامج عملية ، كما لا يترك المناهجالعملية من دون جذور نظرية.

و لمسؤولية الانسان في الحياة الدنيا علاقة بالمناهج التي جاءت بها الآيات ، و لذلك قال بعض المفسرين بان سورة (كذا) قد خصصت للبرامج العملية و قال بعضهم : بانها تبحث القضايا النظرية . و كلاهما صادق في تفسيره لأن السورة تحدثنا عن الواقع كواقع ، سواءا كان نظريا أم عمليا.

فمثلا الآيات (٢٢) و (٣٩) تبحث في التعاليم الاجتماعية و البرامج العملية ، و لكنها تبدأ بقوله : (لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا - (22) - (و تختم البحث الآية (٣٩) بقوله : (و لا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا. (

و السؤال : لماذا تبدا هذه الآيات و تنتهي بموضوع واحد هو النهي عن الشرك بالله سبحانه و تعالى ؟

ان الشرك بالله يشكل جذر كل مشكلة ، اجتماعية كانت او نفسية ، فالشرك وجهها النظري بينما وجهها العملي فهو الكذب و الغدر و الخيانة ، و عدم الوفاء ، و غير ذلك . و كذلك الايمان بالله و توحيده

من جهة ، و الصلاة و الصوم و الحج و غيرها من مظاهر التعبد لله من جهة اخرى يعتبران وجهين لقضية واحدة.

و هناك أمـر لا بأس بالاشارة اليه و هو ان الله سبحانه و تعالى في سورة النحل (الآية ٩٠) يقول : (ان الله يأمر بالعدل و الاحسان و ايتاء ذي القربى و ينهى عن الفحشاء و المنكر و البغي يعظكم لعلكم تذكرون) و في الآيات التالية من سورة الاسراء يؤكد هـذه المعانـي . اذ ان العدل هو : ان تتحرك في الصراط المستقيم فلا تفرط و لا تفرط ، و ان تفي بحقوق الآخرين ، اما الاحسان فهو : ان تحسن الى غيرك في المعاملة ، و الاحسان اسمى درجة من اداء الحقوق ، و البغي هو : القتل ، و الفحشاء هو : الزنا ، و المنكر هو : الكـــذب ، و هكذا بقية المعاني ، و من اراد التأكيد في مدى تطابق هذه الآيات مع تلك . عليه ان يراجع تفسيرنا لسورة النحل ، و هناك ملاحظة " : ان العدل هو اعطاء كامل الحقوق ، و اما الاحسان فهو اعطاء الزيادة. "

بينات من الآيات

الشرك جذر الانحراف

] [22]لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا[

جاء النهي عن الشكر في مقدمة الحديث عن قضايا اجتماعية لان الانسان قد يعبد صنما فيتخذه إلها ، سواء كان هذا الصنم رمزا لرئيس القبيلة أو لصاحب المال أو لصاحب الصولجان أو لأية قوة اجتماعية اخرى ، و اذا ما فعل ذلك فانه سيندم ،و يذمه عقله ، و كذلك العقلاء كما سيكون بعيدا عن نصرة الله.

من حقوق الوالدين

[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشـاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما .

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين .

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد

الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمــة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و

من حقوق الوالدين: السبيل الى حل المشكلة

[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشــاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيــة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن . ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و : الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد

الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمــة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و

من حقوق الوالدين: السبيل الى حل المشكلة

[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشــاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيــة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن . ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين .

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و السبيل الى حل المشكلة: **من حقوق الوالدين**
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

فالعبادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشاء .

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم و بالتالي العطاء باكراه .

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فالأب أو الأم عندما يكبران تتغير حالتهما النفسية فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا ترد طلباتهما و لا يؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما .

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين .

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء

بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و **من حقوق الوالدين**: السبيل الى حل المشكلة
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشـاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن . ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و : الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمـة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و **من حقوق الوالدين**: السبيل الى حل المشكلة
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشـاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن . ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين .

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و السبيل الى حل المشكلة: **من حقوق الوالدين**
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

فالعبادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشاء .

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم و بالتالي العطاء باكراه .

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فالأب أو الأم عندما يكبران تتغير حالتهما النفسية فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا ترد طلباتهما و لا يؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما .

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين .

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا

مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و
من حقوق الوالدين: السبيل الى حل المشكلة
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشــاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [
الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن . ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و : الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25]
نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمـة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا
مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و
من حقوق الوالدين: السبيل الى حل المشكلة
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشــاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [
الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن . ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و : الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و

من حقوق الوالدين: السبيل الى حل المشكلة

[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فالأب أو [الأم عندما يكبران تتغير حالتهما النفسية فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا ترد طلباتهما و لا يؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن . ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و : الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و

من حقوق الوالدين: السبيل الى حل المشكلة
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشـاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن . ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و : الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمـة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و

من حقوق الوالدين: السبيل الى حل المشكلة
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشـاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن . ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين .

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و **من حقوق الوالدين**: السبيل الى حل المشكلة

[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

فالعبادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشاء .

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم و بالتالي العطاء باكراه .

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فالأب أو الأم عندما يكبران تتغير حالتهما النفسية فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا ترد طلباتهما و لا يؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما .

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين .

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و **من حقوق الوالدين**: السبيل الى حل المشكلة

[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشـاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما .

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين .

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمـة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و السبيل الى حل المشكلة: **من حقوق الوالدين**

[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشـاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما .

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و

: الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و **من حقوق الوالدين**: السبيل الى حل المشكلة
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فالأب أو [الأم عندما يكبران تتغير حالتهما النفسية فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا ترد طلباتهما و لا يؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن . ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و
: الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و **من حقوق الوالدين**: السبيل الى حل المشكلة
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشــاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما .

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين .

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمـة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و

من حقوق الوالدين: السبيل الى حل المشكلة

[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشــاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما .

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و **من حقوق الوالدين**: السبيل الى حل المشكلة
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فالأب أو [الأم عندما يكبران تتغير حالتهما النفسية فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا ترد طلباتهما و لا يؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن . ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و : الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و **من حقوق الوالدين**: السبيل الى حل المشكلة
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشـــاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما .

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين .

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمـة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و

من حقوق الوالدين: السبيل الى حل المشكلة

[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشـــاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما .

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و **من حقوق الوالدين**: السبيل الى حل المشكلة
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشـاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن . ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و : الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و **من حقوق الوالدين**: السبيل الى حل المشكلة
[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشـاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما .

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين .

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمـة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و السبيل الى حل المشكلة: **من حقوق الوالدين**

[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشـاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما .

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] [25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و

من حقوق الوالدين: السبيل الى حل المشكلة

[و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه] [23]

. فالعبـــادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للانسان ان يحسن لمن يشـاء

[و بالوالدين إحسانا]

و الاحسان هو العطاء بنفس راضية ، و هو ممدوح عند الله . بعكس العبادة التي هي الخضوع و التسليم . و بالتالي العطاء باكراه

إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما]فـالأب أو [الأم عنـدما يكبـران تتغير حـالتهما النفسيـة فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب ألا تـرد طلبـاتهما و لا يـؤذيان و لو بكلمة " اف " و هي تعبير عن الضجر ، بل على الأبن . ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما و تحفظ لهما كرامتهما

[و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة] [24]

على المسلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطير مع افراخه ، و هذا لا يعني خضوع العقل و : الارادة و انما خضوع الرحمة و الشفقة وبالتالي فان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء

[و قل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا]

فكم يتعب الاب و الام على الابن ، فالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، و تترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها و تهدءه كما يخوض الاب غمار الاخطار من أجل اطعام ولده و يسهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله . و الآية تدل على: ان الدعاء بحق الآخرين نافع لهم كما ان . الشفاعة - و هي نوع من الدعاء - نافعة بحق المذنبين

فالله يعلم بما يجري في [ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا [[25] نفوس الابناء من تمنيات و طلبات ، فقد ترى الابن يسب أبويه اذا ما مرضا ، و لكن الله يدعونا الى ابعاد الشيطان و وساوسه عن النفس ، بالاحسان و الرحمة و الاستغفار - و هي التي تنظم علاقة الابناء بالآباء في هذه المجموعة من الآيات. - تعالج عبرها مشكلة صراع الاجيال ، اذ كل جيل يعيش وضعا مختلفا عن الجيل الماضي ، و بالتالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعرض عادة لانتقادات لاذعة منه ، و : السبيل الى حل المشكلة

ولا : بالاحسان ، اذ ان جيل الابناء ذي القوة النامية يجب ان يجعل بعضا من قدراتـه للجيل الذي تتلاشى
و ثانيا : بالاخلاق الحسنة ، كالتشاور و الاحترام و التذلل رحمة و ليس صغارا.

و ثالثا : بالعفو عن سيئاتهم و الاستغفار لهم فهل انهم كانوا مخطئين افلا

يستحقون المغفرة من الله ؟ بلى و لعل الآية الاخيرة تشير الى انه ليس من المعلوم من هو المذنب بل الله اعلم بكم فلا تخطئوا الآخرين عبثا.

الإنفاق زكاة المال

[26][و آت ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل و لا تبذر تبذيرا]

الذي لديه اموال طائلة ولا يعطي حقوقها فانه لابد ان يكون مسرفا ، لان صاحب الدنيا انما يمنعه من العطاء السرف او البخل ، و ما الاسراف الا استعمال الشيء في غير محله الذي خلقه الله من أجله ، و بذلك فانه انحراف عن مشيئة الله و سننه في الحياة و كل ما خالف اوامر الله و سننه في الخلق فهو نوع من الكفر ، و الشيطان كافر ، يقول تعالى:

[27][إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين و كان الشيطان لربه كفورا]و الشياطين من الانس هم الطغاة و من يبذر ماله لابد ان يفتش عن مصادر غير شرعية لجمع المال و لا يجدها الا بالتحالف مع الطغاة.

[28][و إما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا]اذا أنــت أعرضت ولم تعطهم القليل أو الكثير ، فقابلهم بالابتسامة ، و الرد اللطيف . و هذا ادنى الحق الذي يجب عليك تجاه الرحم و الاقرباء.

كيف ننفق ؟

– 1 [29][و لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك]

و هنا يشبه القرآن البخلاء بالذين يربطون ايديهم باعناقهم فيخنقون انفسهم . ذلك انما يجمع الانسان المال من اجل ان يكون حرا في التصرف . و ليسهل عليه الصعاب ، فاذا بخل فان الهدف من امتلاك المال سوف يتلوث و يصبح العكس . اذ سيصبح هو خادما للمال و هكذا يكونالبخل هو الفقر الحاضر.

– 2[و لا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا]

و هناك - على العكس من البخلاء - اناس يبسطون ايديهم الى درجة انهم يفقدون كل شيء ، فيتحسرون على ما فاتهم و يتأوهون ، و بالتالي فان الناس سوف يذمونهم و يلومونهم على فعلتهم.

و هؤلاء انما يفقدون توازنهم و حسن التصرف بسبب حبهم المفرط للمساكين ، و لهذا الفريق من الناس يقول تعالى:

[30][إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا]فالله يبسط الرزق بحكمة و يضيق و يقدر بحكمة ايضا . فلا يفكر احد بانه سيكون ارحم من الله لعباده . و لعل الآيتين تنظمان سلوك البشر فيما يرتبط بالمال بصفة عامة فعلى الانسان ان يتوخى القصد في الصرف . فيعطي بقدر ، و لا يبذر و لا يبخل.

الثقة بالله مفتاح السعادة

] [31]و لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق[

كان بعض الاعراب يقتلون اولادهم خشية الفقر و الفاقة فطمأنهم الله بقوله:

]نحن نرزقهم و إياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا[

لان قتلهم يحرمكم من نعمة الولد من جهة و يحرمهم من نعمة الحياة من جهة ثانية.

] [32]و لا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة و ساء سبيلا]الزنا اسوء طريق يتخذه الانسان في اشباع غريزته ، لان الزنا ظلم للنفس و تعدي على القانون ، فكما انه من الظلم ان يقتل الانسان نفسا حرمها الله - كذلك حرم الله العبث بمصير الاجيال الناشئة من اجل السرف في الشهوات . ذلك ان الزنا يهدم البناء الاسري و بالتالي ينسف قواعد البناء الاجتماعي القائمة على أسس التربية و التكامل و التعاون ، و هكذا نجد المجتمعات الجاهلية التي فقدت الاسرة كيف فقدت اكثر القيم الانسانية.

] [33]و لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا]فالمقتول ظلما يحق لوليه ان يقتص من قاتله ، و لكن بشرط ألا يتعدى الحدود ، و ألا يستبــد به غضبه ، فهو في كل حال منصور من قبل الله . و هذه احدى سنن الله في الحياة.

الثقة بالله مفتاح السعادة

[31][و لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق]

كان بعض الاعراب يقتلون اولادهم خشية الفقر و الفاقة فطمأنهم الله بقوله:

[نحن نرزقهم و إياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا]

لان قتلهم يحرمكم من نعمة الولد من جهة و يحرمهم من نعمة الحياة من جهة ثانية.

[32][و لا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة و ساء سبيلا]الزنا اسوء طريق يتخذه الانسان في اشباع غريزته ، لان الزنا ظلم للنفس و تعدي على القانون ، فكما انه من الظلم ان يقتل الانسان نفسا حرمها الله - كذلك حرم الله العبث بمصير الاجيال الناشئة من اجل السرف في الشهوات . ذلك ان الزنا يهدم البناء الاسري و بالتالي ينسف قواعد البناء الاجتماعي القائمة على أسس التربية و التكامل و التعاون ، و هكذا نجد المجتمعات الجاهلية التي فقدت الاسرة كيف فقدت اكثر القيم الانسانية.

[33][و لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا]فالمقتول ظلما يحق لوليه ان يقتص من قاتله ، و لكن بشرط ألا يتعدى الحدود ، و ألا يستبــد به غضبه ، فهو في كل حال منصور من قبل الله . و هذه احدى سنن الله في الحياة.

الانسان بين الشرك و الهروب من المسؤولية

هدى من الآيات

هناك تساؤل : اذا كانت سورة الاسراء تتحدث عن المسؤوليات التي يجب على الانسان اداؤها . فلماذا يتطرق هذا الدرس الى بيان التوحيد و الشرك و ابعادهما ؟ و بشكل عام لماذا يحدثنا ربنا سبحانه و تعالى عن قضية الشرك و التوحيد كلما تحدث عن المسؤولية ؟

الجواب : ان المسؤولية هي ذات التوحيد ، و اللامسؤولية هي ذات الشرك ، بل ان التهرب من المسؤولية و التبرير انما هما الهدف من وراء الشرك.

النفس البشرية ، قوة نسميها بالقوة المسولة عملها تبرير الكسل و الجمود ، و تسويل الفحشاء و المنكر ، و هذه القوة التي يثيرها الشيطان ايضا تزين الاستسلام للدعة و الاسترسال مع الشهوات بطرق ابرزها:

-1الحتميات حيث يخيل للنفس عجزها عن مقاومة ضغوط الطبيعة و المجتمععليه . فيتملص عن المسؤولية باسم الحتمية التاريخية . أو الاجتماعية او الطبيعية أو ما اشبه.

و هذا نوع من تأليه الطبيعة أو المجتمع . و جعلها فوق قدرة الله . و فوق قدرة الارادة التي منحها الله

للانسان.

- 2 الفداء حيث يزعم البشر انه اذا كانت اوامر الرب شاقة ، و لا يمكن احتمالها اذا دعنا نتصور وجود ارباب آخرين نهرب من الرب الاعلى أليهم لينقذونا عن صعوبات المسؤولية التي يفرضها ربنا الاعلى سبحانه و تعالى.

و هذه هي فكرة الفداء التي تسربت الى مذهب النصارى .

و سواء فكرة الحتميات أو الفداء فان الايمان بالله الواحد الاحد ، ينفيها و يجعل البشر وجها لوجه امام المسؤوليات الكبيرة.

ان من يؤمن بالله ولا يتخذ بينه و بين عقله حجابا يشعر في اعماق ذاته بان الله قد جعله مستقلا في قراراته حرا فيما يشاء . فاذا وصل الى هذه الحقيقة تحمل مسؤولياته اعتقادا منه بان متغيرات حياته كالصحة أو المرض ، و الاستغلال أو العبودية و الغنى أو الفقرو ما الى ذلك انما هي من عند نفسه ايضا ، و الانسان البسيط غير المعقد و البعيد عن الشهوات يشعر دوما بهذه الحقيقة و هذا الاحساس يدفع به نحو تحمل المسؤولية ، لانه حينما يعترف بواقعه يرسم لنفسه خطة حكيمة لكي يصل بها الى اهدافه.

في المقابل نجد انسانا يتصور بان هناك اشياء اخرى فوق عقله ، تلك ما يسمونها اليوم بالحتميات - حتميات التاريخ و الاجتماع و الاقتصاد و السيكولوجيا و التربية - فيزعم احدهم بان الحتميات هي التي تصنع الانسان ، و ليس للانسان ان يتخذقرارا نابعا من فكره و ارادته ذلك لان العقل في نظره ليس الا صورة متطورة للمادة.

لقد قسم الاطباء قديما الناس حسب امزجتهم ، فهذا مزاجه صفراوي ، و ذاك بلغمي و الآخر سوداوي و هكذا فزعموا ان ارادة الناس تتبع امزجتهم اما احد الفلاسفة الجدد فانه يقول : بان ارادة الانسان نابعة من الغدة الدرقية ، فاذا صار احدهم طبيبا و الآخر عاملا بسيطا فان ذلك يعود الى مقدار و نوع افرازات الغدة الدرقية في دم الانسان ، حيث تؤثر هذه الغدة في قراراته.

و يقـول الفيلسـوف البريطاني المعروف) براندراسل) : انك انما تتطبع بما تأكل ، لان العناصر الكيمياوية الموجودة في انواع الاغذية ، تؤثر في مخ الانسان و قراراته و هكذا سلبت هذه النظريات الشركية قدرة القرار من البشر و اذا كان الانسان لا يستطيع انيقرر لنفسه قرارا ، فهو بمنزلة ريشة في مهب الريح ، لا يستطيع ان يتحمل مسؤولية ، اذا فهو غير مسؤول عن شيء.

اما الفكر اليوناني القديم فانه يعتقد بتعدد الآلهة ، فللحرب اله و للسلم اله ، و للمطر اله و للنور اله و للظلمة اله و هكذا .. و كان اليونانيون ينحتون اصناما و يتخذونها رمزا لتلك القوى التي كانوا يتصورون بان لها تأثيرا حتميا على اعمالهم و نفسياتهم وهكذا جردوا انفسهم عن مسؤولية اعمالهم حين نسبوها الى الآلهة و هكذا تربط آيات هذا الدرس بين المسؤولية و التوحيد فتبدأ بالنهي عن أكل مال اليتيم (اشارة الى حرمة المال) و تأمر بالوفاء بالعهد (للتذكرة باحترام العهد) و تأمر باحترام المال ، و احترام سمعةالناس و تحري الحقائق ، ثم تنهى عن الشرك بالله و تامر بتسبيح الله سبحانه ، و لعل محرمات هذا الدرس تسد ابواب الظلم ، و تضع قوانين اجتماعية تحافظ على حقوق الناس ، ابتداءا من حفظ حقوق الايتام (و هم حلقة ضعيفة في المجتمع) و احترام الكيل و الوزن و احترامسمعة الناس ، و ضرورة الوفاء بالعهود و ما أشبه.

بينات من الآيات

مسؤوليات اجتماعية

[34][و لا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده]

يحق لولي اليتيم ان يأخذ مال اليتيم فيستثمره لصالح اليتيم ، و لكنه لا يجوز له التصرف في هذا المال الا في هذا المجال ، حتى يبلغ اشده حينما يصل الى مرحلة البلوغ فتسلم اليه أمواله ، ولان اليتيم ضعيف فاحترام ماله يدل على ضرورة احترام اموال الاقوياء بالطبع.

[و أوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا]

و العهد ركيزة اجتماعية في الاسلام ، و محور للتعاون و التبادل الفكري و السياسي و التجاري ، و الاسلام يحث على اداء العهود لهذا السبب اولا ، و لسبب اخلاقي ثانيا ، و لان الوفاء بالعهود يجري عليه حكم الشرع ثالثا : و العهد واحد من اخطر مسؤوليات البشر فيحياته.

[35][و أوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم]القسطاس المستقيم : هو البيع الذي لا غبن فيه و لا غش و لعل احترام الكيل يدل على اكثر من احترام حقوق الناس ، حيث يدخل ضمن احترام قوانين البلد و عدم الخروج عليها لمصلحة ذاتية.

[ذلك خير و أحسن تأويلا]

فهذا أمر حسن فطريا و اجتماعيا ، و أحسن نهاية و عاقبة ، لان الغش لو ساد مجتمعا فستحل به كارثة لا يمكن التخلص منها ثم انك لو تجاوزت حقوق الناس افلاتخشى ان تسلب حقوقك ايضا.

[36][و لا تقف ما ليس لك به علم]

أي تتبع أمرا لا تعلم مبدأه و منتهاه.

[إن السمع و البصر و الفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا]حيث تؤكد هذه الآية على مسؤولية جوارح الانسان التي يجب ان تتحرك حسب مقياس صحيح و ان مسؤولية قلب الانسان عن افكاره و هواجسه و ظنونه و حسده و حقده و جوارح الانسان عن غمزها و لمزها ، و الغيبة و النميمة.

انها لأعظم مسؤولية اجتماعية و لو سمى المؤمن الى مستوى ضبط فؤاده و سمعه و بصره فيما يخص علاقته بالمؤمنين لكان جديرا بان يدخل جنات عدن..

[37][ولا تمش في الارض مرحا]

الانسان المرح هو الذي يعيش حياة اللامسؤولية و ما يتبعها من ظواهر كالفراغ و اللهو و اللعب و التكبر على الآخرين.

[إنك لن تخرق الأرض و لن تبلغ الجبال طولا]

فانك لن تقهر الطبيعة فتشق الارض ، و تخرقها ، أو تبلغ الجبال عظمة.

[38][كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها]

يبدو ان تفسير هذه الآية انه ينبغي للانسان ان يتكبر احيانا و ذلك حينما يقابل الظالم الجائر حتى لا يشعر بانه ضعيف امامه ، لذلك يؤكد القرآن بان السيئة)مكروهة) - فيكون ما عدى السيئة غير مكروه - فالتكبر على المتكبر ليسمكروها ، بل هو مستحب ، و في الحديث:

"التكبر على المتكبر عبادة. "

[39][ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة]

و الحكمة هي الجانب العملي من العلم ، و هنا تعني السلوك الحسن.

]و لا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا]لا تتخذ لنفسك الها غير الله فتلقى في جهنم . يلومك الناس و لا ينصرك الآلهة ، و هذه الآية تشير الى ان الانسان هو الذي يجعل من الصنم الها ، و من الطاغوت الها و حين يحطم المؤمن الاصنام الثقافية و الاجتماعية و الاقتصادية فانه يشعر

باستقلاله و حريته و يتحمل مسؤولياته بعزم راسخ.

[40][أفأصفاكم ربكم بالبنين و اتخذ من الملائكة إناثا]كـان الكفـار يريدون النيل من الله سبحانه و تعالى لانهم يتصورون الملائكة ضعافا ، و لانهم كانوا يعتبرون الأنثى رمزا للضعف فانهم نسبوا الأنوثة الى الملائكة ، و يرد سبحانه قولهم هذا:

[إنكم لتقولون قولا عظيما]

[41][و لقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا و ما يزيدهم إلا نفورا]فقد ضرب الله الأمثلة في القرآن ليبين لنا آياته و نعرفه بحقائق الايمان و لكن على العكس من ذلك نرى الكفار لا تزيدهم التذكرة الا نفورا من الحق.

[42][قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا]فلو كانت الآلهة متعددة ، إذا لاتخذت طريقها الى السماء ، و لقاومت الاله الكبير كما يدعون و تمردت عليه ، و نالت منه و استرجعت حصتها من الألوهية !و لاستطاعت ان تقهر الرب سبحانه علما بانه لا حول لهم و لا طول فكيف تتخذ آلهة من دون الله.

[43][سبحانه و تعالى عما يقولون علوا كبيرا]

فالله اكبر من هذه الخرافات التافهة و هو الذي.

[44][تسبح له السموات السبع و الأرض و من فيهن]

ذلك ان السماوات على عظمتها و ما فيها من شموس و كواكب و منظومات ، و الارض و ما فيها من حجر و مدر فانها جميعا تسبح لله و حده و تشهد على وحدانيته ، و يبدو ان الاشياء كلها ذات شعور بنسبة معينة.

[وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا]فكل يسبح بحمده و لكننا لا نستطيع ادراك الفاظها و تسبيحاتها لان لكل شيء لغته الخاصة.

الحجب و ضرورة التصحيح

هدى من الآيات

حينما يتخذ الانسان موقفا تجاه فكرة ما ، فانه لا يستطيع ان يعرف الحقيقة لانه قد ينظر اليها من وراء حجاب . و هذه صفة الكافرين بالحياة الآخرة ، و هذه سمة الكثير من الناس ، فلا يتلون آيات القرآن الا من وراء حجاب ، و لا يستمعون اليه الا عبر مجموعة من الاحكام المسبقة التي اصدرتها أنفسهم.

و يبقى السؤال : كيف يمكن للانسان ان ينظر الى رسالة الله نظرة مجردة عن المواقف المسبقة ؟

الاجابة علـى ذلك : ان قوة العقل محدودة عند الانسان ، فاذا تراكمت الشهوات على قلبه ، و تكاثفت غيوم الجهل و الضلالة و الخرافات عليه ، فانه بحاجة الى عملية صعبة و مجهدة حتى يتجاوز هذا الركام من الترسبات ، كما يحتاج الى هزة عنيفة ليهدم البناء الفكريالفاسد و ثم يقيم محله بناءا قويما و ليس ذلك بالامر اليسير . و نتساءل : كيف تتصلب الارادة ، و ينمو العقل . و ما هي الهزة العنيفة التي تهدمبناء الافكار الفاسدة ، و المتراكمة فوق بعضها في قلب البشر ؟

الجواب:

بالايمان بالحياة الآخرة ، حيث انها قوة التعادل ، و ثقل السكينة عند الانسان ، فمن آمن بالآخرة سلى عن الشهوات ، و تعالى فوق الضغوط ، و تجاوز العقد النفسية ، و كل ذلك يحفظ قلبه عن الافكار التي تمليها الشهوات و الضغوط و العقد و .. و..

اما الذي لا يؤمن بها ، فان الله تعالى يجعل بينه و بين القرآن حجابا لا يراه ، و لا يمكنه إذا اختراقه ، كيف ؟ فاذا قلبه مستور ان يفقه ، و اذا اذنه ثقيلة بالوقر و اذا به يهرب عن حقيقة التوحيد ، و يبحث عن الآلهة الكاذبة ، و اذا به لا يستمع - و هم يناجون بعضهم - ان هذا الرسول مسحور ، و ليس بعاقل ، و بسبب هذه الامثال يضلون الطريق و لا يهتدون الى سبيل الحق.

و جذر مشكلتهم كفرهم بالآخرة اذ يقولون : هل نحن نعود الى الحياة بعد ان نكون عظاما و رفاتا ، دعهم يكونون حجارة أو حديدا ، او اي شيء كبير في نظرهم ، فان الذي خلقهم اول مرة يعيدهم أما متى ؟ فان علمه عند الله فعسى ان يكون قريبا ، يوم يدعوهم الله ، فاذابهم يستجيبون لداعي الله و هم يحمدون ربهم ، و يزعمون انهم ما لبثوا في القبر الا قليلا.

بينات من الآيات

[45][و إذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا]

من الطبيعي ان الذين يتذكرون الموت و يؤمنون بالآخرة و ما تشتمل عليه من ثواب و عقاب ، فانهم يشعرون بالمسؤولية دائما ، وينظرون الى القرآن نظرة واقعيةبعيدا عن الرؤى و الخيال ، بل نابعة عن موضوعية كاملة و تدبر ، و لذا فان افئدتهم بصيرة و بصيرتهم نافذة . اما الذين لا يؤمنون بالآخرة فانهم محجوبون عن الواقع بسبب عدم ايمانهم.

و قد قال المفسرون عن "حجابا مستورا " انه لم يكن احد من الكفار يمكنه رؤية الرسول (ص) حينما يقرأ القرآن حتى لا يصيب رسول الله بأذى.

و يبدو ان التفسير الاقرب القول بان الحجاب المستور ، و هو النظرة السلبية التي يتخذها الكفار ازاء آيات القرآن و الآيات التالية تفسر - فيما يبدو لي - معنى الحجاب المستور.

[46][و جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه]

لكي لا يفقهوا القرآن ، جعل الله قلوبهم في اكنة . و لفظة الاكنة ، جمع للفظة كنان و هو الستر و هذا الستر هو ذلك الحجاب المستور الذي ضربه الله بين القرآن و بين قلوب الذين كفروا بالآخرة عقابا لهم على تكذيبهم بالبعث ، و استهانتهم بقدرة الله على اعادة الخلق و استجابتهم لشهواتهم و عصبياتهم.

و نتساءل هل هذا الحجاب هو تلك السنة الالهية التي جرت في خلقه ان من يتعصب لفكرة فاسدة فانه لن يرى الحقيقة ، ام انه فعل الهي جديد ، حيث يزيد الله الكافرين ضلالة و كفرا ، و يدعهم في ظلمات يعمهون ؟

بلى انه فعل جديد ، انه حجاب يجعله الله بين الكفار و القرآن . و انه لعقاب عظيم ان يشاء الله ضلالة البشـــر ، بعد ان كفر بالهدى ، و ان علينا الحذر أبدا من هذا العقاب العظيم ، و نسأل الله دائما الهداية ، والا يضلنا بعد ان هدانا ، انه مجيب الدعاء.

[و في اذانهم وقرا]

الوقر : هو الثقل . والاذن الوقرة هي الثقيلة السمع . و في هذه الحالة لن يكون باستطاعة الاذن اداء وظيفتها بشكل جيد ، كما انه اذا ما اصيب العقل بضعف فسوف لن يستوعب ما تنقله الاذن ولا سائر الجوارح.

[و إذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولو على أدبارهم نفورا]و لان الكفار لم يعتقدوا بوحدانية الله فانهم كانوا ينفرون من سماع القرآن لان أفكار القرآن تخالفهم و انما كان فرارهم بسبب خوفهم من صحوة الضمير.

[47]ان جوارح البشر نوافذ قلبه على العالم الخارجي ، و اذا كان القلب قد ران عليه الشهوات و التعصب لافكار باطلة ، فان الجوارح تشل أو تعمل خلاف المطلوب ، ذلك ان القلب المريض سوف يفسر كل الحقائق التي تتوارد عليه عبر الجوارح تفسيرا باطلا يتناسب و امراضه التي رانت عليه و كما ان من يضع على عينيه نظارة ملونة يرى كل شيء بذلك اللون ، كذلك من وضع على قلبه سماعة مضللة فانه يسمع كل شيء عبرها ، بصورة خاطئة ، انه قد صنع لنفسه قوالب ثقافية معينة يضع كل معلوماته الجديدة فيها فلا يزداد بالحقائق الا ضلالا ، ربنايقول:

[نحن أعلم بما يستمعون به]

و لعل (الباء (هنا للاستعانة و تعبر عن تلك الاحكام المسبقة و القوالب الفكرية الجاهزة التي بها يستمعون الى الحقائق فيفسرونها حسب اهوائهم و الآيات التالية توضح تلك القوالب:

]إذ يستمعون إليك و إذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلارجلا مسحورا[

كانوا يبررون مواقفهم بحجج واهية يقولون انه مسحور و ليس بساحر يمارس الكذب و الدجل بينما كانوا يدعون الرسول (ص) (بالصادق الأمين) فلم يبق هناك مجال للتهمة ســوى القول بانه مخدوع بسحر الساحرين فهو مسحور . و يسفه القرآن هذه التهمة فيقــول:

[48][انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا]لانهم اتهموا رسول الله (ص) تهما واهية و اضلوا الطريق ، و انحرفوا عن الجادة ، و بذلك صاروا لا يفقهون آيات القرآن و لا يعرفون مغزاها ، و لا يهتدون الى سبيل الحق.

و كما قلنا سلفا : ان الايمان بالآخرة ضمان للتفكير السليم في الحياة ، و ان الكفار لم يكتفوا بانكار الآخرة ، و انما كانوا يسعون لتبرير اعتقاداتهم بافكار سخيفة ، و شبهات واهية ، و منها الشبهة التالية:

[49][و قالوا ء إذا كنا عظاما و رفاتا ء إنا لمبعوثون خلقا جديدا]اذا كان الانسان مبعوثا يوما ما فلم يصبح رفاتا اي خلقا يتلاشى ؟

هذا ما كان يتساءل الكفار عنه مستنكرين فاجابهم الله:

[51] - [50][قل كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقا مما يكبر في صدوركم]فسواءا كنتم حجارة أو حديدا أو اي شيء آخر ، تتصورونه في اذهانكم كبيراكالجبال و البحار و الصحاري و ما الى ذلك.

[فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة]

و بديهي ان الخلق ثانية اهون من الخلق ابتداءا . و لعل الكفار كانوا يزعمون ان الحديد و الحجر لا سبيل الى التحكم فيهما ، باعتبارها صلبة ، و ليــس كاللحــم و العظم - في نظرهم - او يزعمون انهما ابعد عن الخلق باعتبارهما جامدين بخلاف البشر المركب من مواد حية.

و اجاب السياق عن شبهتهم بان كلامهم يخضع لمقاييس المخلوقين اما الخالق فهو على كل شيء قدير.

[فسينغضون أليك رؤوسهم و يقولون متى هو]

اي سيهزون رؤوسهم و يمدونها الى الامام في هيئة الشخص المتعجب و يتساءلون متى موعدنا ان كان لنا موعد ؟

فمن عادة الانسان انه اذا احتمل في امر احتمالين ، فانه يحتمل وقوع الايسر منهما و يستبعد وقوع الاحتمال الثاني ، و يشير هنا ربنا الى استبعاد الانسان وقوع الآخرة ، و لكنه تعالى يؤكد له هذا

الاحتمال فيقول:

[قل عسى أن يكون قريبا]

اذ ان مجرد اعتقاد الانسان بانه قد يترك الدنيا في اية لحظة و ان القيامة ستقوم متى اراد الله يجعله متقيا لله في اعماله صغيرها و كبيرها.

[52][يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده و تظنون إن لبثتم إلا قليلا]فليست الدنيا من الآخرة الا قليل ، اذ ان معدل عمر الانسان في الدنيا هو سبعون سنة أو اكثر من ذلك بقليل ، و ليس لهذه السنين قيمة امام الخلود في الآخرة - أما في الجنة و أما في النار. -

العلاقات الاجتماعية البناءة

هدى من الآيات

لكي لا يبث الشيطان روح العداء بين عباد الله ، عليهم ان يختاروا افضل القول ، ذلك أن الشيطان عدو مبين للانسان و لا يجوز ان يجعل البشر نفسه وكيلا عن الناس (فيكفرهم حسبما يشاء ، و يحكم عليهم بعذاب الله).

و الله اعلم بعباده فهو (و ليس الداعية) يرحم ان شاء و يعذب ان شاء و قد احاط علما بمن في السماوات و الارض ، و انما يتفاضل الناس بمشيئة الله ، أو ليس قد فضل بين انبيائه و اتى داود زبورا ؟

و يبدو ان هذه الآيات تبين بعض المسؤوليات الواجبة على المؤمنين تجاه بعضهم و تشمل غير المؤمنين ، فالقول الحسن ، و عدم التسرع بالحكم على الناس ، و ترك التحاسد جزء من مسؤولية المؤمن تجاه اخيه.

و لعل عوامل الخلاف تنشأ من عدم خلوص التوحيد ، من رواسب الشرك فلذلك يعود السياق الى قضية الشرك و ان الآلهة الباطلة لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا.

بل ان من يدعون من دون الله هم بدورهم يبتغون الى ربهم الوسيلة ، يرجون رحمته و يخافون عذابه.

و بالرغم من وجود الآلهة الباطلة فان الله يهلك جميع القوى قبل يوم القيامة مما يدل على انهم لا يملكون دفع الضر عن شعوبهم.

و لقد كذب الاولون بآيات الرب فهذه ثمود كذبوا و ظلموا بالناقة و هي آية مبصرة ، و آيات الله ليست الا للتخويف.

و الهدف من التخويف هو امتحان البشر و قد احاط الله بالناس قدرة و علما ، و لقد امتحنهم بالرؤيا التي اراها رسوله ، كما جعل الشجرة الملعونة في القرآن فتنة (شجرة الزقوم التي يجسدها في الدنيا المجرمون كبني امية (الا ان آيات التخويف لا تزيدهم الا طغيانا كبيرا.

بينات من الآيات

القول الأحسن

[53]هكذا اثار المشركون الشبهات حول الرسول ، فما هي مسؤولية الدعاة الى الله ، في مواجهة تلك الشبهات ؟ الجواب ان محتوى رسالة الدعاة الى الله حق و صواب ، يبقى الاسلوب ، فلو أنهم اتبعوا احسن الاساليب في الدعوة فندوا تلك الشبهات و لكنه ان لم يتبعواافضل نهج للدعوة ، فان الشيطان يستغل الفرصة ، و يضخم الاخطاء في عين المشركين ، و يزين في قلوبهم العداوة للمؤمنين و من ثمرسالة الايمان بوسيلة الاخطاء التي يرتكبها الدعاة في اسلوبهم كأن يفحشوا في القول ، أو يتطرفوا.

[و قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن]

يبدو ان العباد هنا هم عباد الله الصالحين.

[إن الشيطان ينزغ بينهم]

فالشيطان يمشي بين العباد بالعداوة ، و يبث روح العداء و يستفيد من الكلمات النابية بل من سقطات اللسان و الاخطاء التي يتهاون الناس عادة فيها ، في بث روح العداء بين المؤمنين.

[إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا]

فعداوته ليست بجديدة ، و ليست بخفية ، و على العاقل ان يحذر العدو العنيد المجاهد بعداوته.

فلماذا نتبع خطوات الشيطان ، و نعطيه فرصة التوغل بين صفوفنا و زرع الشقاق بين بعضنا و البعض ؟

كيف تنظر الى الناس ؟

[54]بعض الناس يحكمون على الآخرين احكاما قاسية دون ان يعرفوا واقع انفهسم ، و هل رضي الله عنهم أم لا ، فاذا بهم يكفرون الناس و يفسقونهم و يحصون عيوبهم و الحديث الشريف يقول:

"رحم الله عبدا شغلته عيوب نفسه عن عيوب الناس. "

و الانسان الذي يدعو الى الله ، و يحمل رسالته الى الآخرين ، هو اقرب الناس الى هذه الزلة الشيطانية التي ينفذ من خلالها الى قلبه يدعوه لتكفير الآخرين و اسقاطهم من قائمة المؤمنين.

و يعالج القرآن هذه المشكلة بقوله : لا تحكموا على الناس بالباطل لانكم قد تحكمون على أحد بالانحراف ثم يتوب فيتوب الله عليه ، بينما يبقى الذي حكم بينهم بذلك رهين خطأه الذي قد لا يستغفر منه ، فلا يتوب الله عليه ، و ربما يستغفر و لكن الله لا يتوب عليهلان ذلك الشخص لم يغفر له ، و هذا هو الذنب الذي لا يترك في الآخرة.

جاء في الحديث : " الا و ان الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفر ، و ظلم لا يترك ، و ظلم مغفور ، فاما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى ، قال تعالى : " ان الله لا يغفر ان يشرك به " ، و اما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات (اي الذنوب الصغيرة) ، و اما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا القصاص هناك شديد (اي في الآخرة (ليس هو جرحا بالمدى و لا ضربا بالسياط ، و لكنه ما يستصغر ذلك معه. "

أذن قد يدخل الجنة ذلك الانسان الذي نعتقد بانه منحرف فاسق ، بينما ندخل نحن النار . قال الله سبحانه و تعالى : يصف اهل النار : " وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار اتخذناهم سخريا ام زاغت عنهم الابصار * ان ذلك لحق تخاصم اهل النار " إذا فلا تحكمــوا على الناس احكاما ارتجالية بل ليكن مقياسنا في الحكم عليهم بمدى التزامهم بالقيــم.

إذن لا تغتــر بحسناتك ، ولا تعب على الناس سيئاتهم ، ولا تعتبر نفسك افضل من الناس . و لعل الشخص يعيب على أخيه فعلا و هو يرتكب ما هو أقبح منه ، بل قديكون ذلك الفرد معذورا في تصرفه دونه ، فلعل ضغوطا تربوية أو اقتصادية أو اجتماعية تكره الفرد على اقتراف ذلك الفعل القبيح ، بينما الذي يعيبه يرتكب ذات الفعل بلا ضغوط فيغفر الله لصاحبه ولا يغفر له.

و ما ارسلناك عليهم وكيلا

[54][ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا]

بعث الرسول بالرسالة شاهدا و مبشرا و نذيرا ، و لم يبعث وكيلا على الناس يدخل من يشاء منهم في رحمة الله ، و يخرج منهم من يريد . انمــا هذه المهمة هي مهمة الله وحــده.

فإذا ليس باستطاعتك انت ان ترتب الناس ضمن خانات تصنعها حسبما تريد ، الم تسمع هذا الحديث : عن ابي ذر (رض) : ان رسول الله (ص) قال : " ان رجلا قال : و الله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله : " من ذا الذي تالى علي ان لا اغفر ؟ فاني قد غفرت لفلان ، و احبطت عمل الثاني بقوله : لا يغفر الله لفلان " .

[55][و ربك أعلم بمن في السموات و الأرض]

اي ربك اعلم بالناس و باعمالهم ماذا سيفعلون ؟ لاحظ وجود (من) الموصولة التي تأتي للعاقل فنستطيع ان نقول : ان ربك اعلم بالذي في السماوات و الارض من الجنس العاقل سواء كان بشرا ام ملائكة.

[و لقد فضلنا بعض النبيين على بعض]

الانبياء كسائر البشر خلقوا بتفضيل و أفضل من الانبياء الرسل فافضل الرسلخمسة : و هم اولوا العزم و افضل اولي العزم رسول الله (ص) وقد قال رسول الله في حديث له:

"فضلت على سائر الانبياء بست : اعطيت جوامع الكلم ، و نصرت بالرعب من مسيرة شهر ، و احلت لي الغنائـــم و جعلت لي الارض مسجدا و طهورا ، وارسلت الى الخلق كافة ، و ختم بي النبيون. "

"و آتينا داود زبورا"

يبدو ان زبور داود هو كتاب دعاء و مناجات مع الله سبحانه ، و كما هو معلوم فان عدد كتب الله مائة و اربعة و عشرون كتابا ، انزل كل كتاب ليواكب ذلك الظرف الزمني المعين و لعل ذكر زبور داود دون غيره كان للاسباب التالية:

- 1ان الله بشر فيه بالنبي محمد (ص) و انه سوف يورث ارضه عباده الصالحين.

- 2ان اليهود زعموا ان الله لم يرسل بعد موسى احدا و كان داود بعده نبيا مرسلا باعترافهم.

- 3ان تفاضل الانبياء لم يكن بالملك بل بالرسالات ، فبالرغم من ان داود كان ملكا لم يذكر الله هنا ملكه بل ذكر الكتاب الذي انزل عليه و هو الزبور و هو يتميز بين سائر الكتب بانه كتاب دعاء و كان هذا اعظم ميزة له بين سائر الكتب.

الآلهة الزائفة

[56][قــل ادعــوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا[

لابد ان نجعل الايمان بالله محورا لحياتنا و تحركنا ، لان ما دونه من الآلهة لنتستطيع ان تنفعنا او تضرنا ، و هم بالاضافة الى ذلك اعجز من ان يقوموا بما نريد بل يعجزون عن القيام بما يريدون لانفسهم ، فكيف يقومون بحاجات الناس ، و هنا نلاحظ من كلمة (زعمتم) اي ادعيتم و صنعتم ، فالانسان هو الذي يصنع الطاغوت المتسلط ، و يصنع الصنم الجامد ، و يصبغ عليه القوة و من بعد ذلك يخافه ، و هو يعلم انه لا يملك كشف الضر عنه عوضا عن تحويله.

[57][أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب]هؤلاء الاولياء الذين يزعمون بانهم آلهة انما هم عباد له ضعفاء يبتغون رضا ربهم ، و يريدون الوسيلة اليه ، فكلهم فقير محتاج الى رحمته ، و يريد الزلفى اليه بفطرته و ربما بايمانه ايضا في هذه الآية ، و في آيات مشابهة تحير طائفة من المفسرين و تساءلوا من هم أولئك الذين يدعون و كيف انهم يبتغون الوسيلة الى الله ربهم ؟

زعم البعض انهم الاصنام ، بينما قال البعض انهم الملائكة و العباد الصالحون الذين اتخذهم اتباعهم اربابا من دون الله.

و الواقع ان ذاك و هذا بعض معنى الآية ، الا ان المعنى الاشمل هو كل شيء أو شخص يطاع من دون الله ، و لان اغلب ابناء آدم يعبدون من دون الله ، ذوي القوة و الثروة و الجاه ، كالملوك و القيادات السياسية و المترفين و الاحبار و الرهبان.

فان الآيات فيما يبدو تشمل هؤلاء بل تركز عليهم و تسعى لتحرير البشر من نير عبوديتهم و لعل قراءة سريعة لآيات الشرك توحي الينا بان الآلهة المعبودة من دون الله هم عادة بشر ، يقول ربنا سبحانه و تعالى : " و اذا رأى الذين اشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك " (النحل /٨٦)و قال : " قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم الا نعبد الا اللهولا نشرك به شيئا ، و لا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله " (آل عمران / ٦٤)و قال " :اتخذوا احبارهم و رهبانهم اربابا من دون الله " (التوبة / ٣١)و قال " :أ أرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار " (يوسف / ٣٩)و قال " : و من الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله " (البقرة / ١٦٥)و قال : " ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم " (الاعراف / ١٩٤)و هكذا نستوحي من هذه الآيات ان الارباب و الانداد و الشركاء عباد من البشر.

]و يرجون رحمته و يخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا]هؤلاء يرجون رحمة الله و يخافون عذابه ، و من الملاحظ ان الرجاء ليس بمرتبة الخوف ، فالخوف من العذاب يصلح الانسان اكثر مما يصلحه الرجاء ، جاء في الحديث عن امير المؤمنين (ع):

"فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ، و من اشفق من النار اجتنب المحرمات. "

ان الخوف من النار يمنع الانسان عن المحرمات و بينما رجاء الجنة يبعد الانسان عن الشهوات.

سنة العذاب:

[58][وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوهاعذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا]

قال بعضهم انه : عندما يتحدث الله عن بلدة طيبة في القرآن يسميها بلدا أو مصرا ، و عندما يتحدث عن بلدة سيئة يسميها قرية مهما بلغت من الضخامة.

و كانت الآية تشير الى قضية مهمة جدا في حياة القرى التي تشذ عن امر الله حيث يكتب عليها العذاب منذ بداية انحرافها ، و لكن مع وقف التنفيذ ، فربما يرسل العذاب في هذه اللحظة و ربما لا يعذبهم إلا بعد سنين من المعاناة ، و نلمس من هذه الآية : ان الله أعطىالانسان مهلة ، وعليه ان يتحمل تنفيذ الحكم الرباني عليه ان حاد عن طريقه كما ان الآية تشير الى طبيعة البشر النازعة الى الانحراف حيث تجلب اليها عذاب الرب.

[59][و ما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون]ليست مشكلة البشر قلة الآيات بل المشكلة هي ان الناس لا يستوعبون الآية و لا يعرفون قيمتها و بالتالي يكذبون و ابرز مثال على ذلك قوم ثمود.

[و آتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها]

هذه الناقة كانت آية جلية واضحة اذ خرجت اليهم من الجبل الاصم تستقيهم اللبن ، و لكن مع الأسف هذه الناقة سببت لهم مصيبة كبرى إذ ظلموا انفسهم بسببها.

السياق القرآني يحذرنا من طرف خفي من ان نطالب ابدا بالآيات دون ان نكون مستعدين لها ، اذ لو نزلت الآيات ثم كفرنا بها فقد استوجبنا عذاب ربنا الشديد فنكون قد ظلمنا انفسنا بتلك الآية ، كما فعلت ثمود.

و قد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة : حديث مأثور عن الامام الباقر عليه السلام ان محمدا (ص) سأله قومه ان يأتيهم بآية ، فنزل جبرئيل و قال : ان الله يقول " : و ما منعنا ان نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الاولون و كنا اذا ارسلنا الى قرية آية فلم يؤمنوا بها اهلكناهم فلذلك اخرنا عن قومك الآيات " (١)(و ما نرسل بالآيات إلا تخويفا]

اي ان هناك نوعين من الآيات فآية مبصرة مثل ناقة صالح كفروا بها فأتاهم العذاب و آية تخوفهم و تنذرهم بعذاب الآخرة مثل الباساء و الضراء.

ولان الله ختم بنبيه محمد (ص) الرسل فقد ارسل الآيات تخويفا بالقيامة و لم يرسلها بحيث يجلب العذاب لو كفروا بها.

الرؤيا

[60]ما هي الرؤيا ؟ يبدو ان لدى كل واحد منا حاسة سادسة و نعني بذلك الحس الذي يلتقط الارهاصات التي يشعر بها مثل النعمة أو المصيبة ، و تلعب هذه الحاسة دورا أساسيا اثناء الظروف الصعبة حيث النفوس ملتهبة و لعل الرؤيا هي جزء من هذه الحاسة ذلك لان الانسان في حالة اليقظة يحجبه عن رؤية الحقائق و تفهمها ما يشاهده بعينه و ما يبتلى به في حياته اليومية ، بينما في النوم حين الاحاسيس الاخرى هامدة تبقى الحاسة السادسة هي الفعالة فيرى الانسان الامور ، و كثيرا ما يحذر الله الانسان من المستقبل و امور عديدة في حالة النوم ، الا ان غالبية بني البشر و لتورطهم بغرور الدنيا و نعم الله فيها ، لا يستفيدون من رؤياهم ، ولا من احساسهم بالخطر المحدق بهم ، و لعل الآية تشير الى هذه النعمة.

(1)تفسير الصافي / ج ٣ - ص 199

[و إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس]

علما و قدرة.

[و ما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس]

يعني تجربة و اختبارا لهم.

[و الشجرة الملعونة في القرآن]

اي و جعلنا هذه الرؤية اشارة للشجرة الملعونة.

][و نخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا]

و الله تعالى يقول في الآية التي تليها : " و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أ اسجد لمن خلقت طينا. "

ان حالة الغرور و التكبر و الاستعلاء على المؤمن و على آيات الله المحذرة و النذيرة ، كل ذلك نابع من خطا قديم ارتكبه ابونا آدم ، دفعه الى ذلك ابليس الذي تكبر على السجود لله تعالى و هذا لا يزال يزيد الانسان غرورا و كبرا.

الشجرة الملعونة

ما هي الشجرة الملعونة في القرآن ؟

لقد اختلفت التفاسير في معنى هذه الآية فبين من قال ان الشجرة هذه هي شجرة الزقوم او اليهود و

لكن من بين الاقوال تفسيرا ارتضيته ، و قد وردت فيه روايات كثيرة و من كافة المذاهب الاسلامية و قبل بيان هذا التفسير و رواياته هناك فكرة هامة علينا بيانها لاريب ان رسالة الاسلام هي أعظم و أكبر ظاهره شهدها كوكبناالارضي ، و لا ريب ان ما جرى على هذه الظاهرة الكونية الكبرى من تغيرات هائلة هي الاخرى تتسم باهمية كبرى ايضا ، و اهم تغيير جرى على هذه الظاهرة هو تغيير القيادة الاسلامية من الخلافة الراشدة الى ملك عضوض نزى عليه الامويون ، و هذا التغيير هو اكبر انحراف حدث في الامة الاسلامية ومن الطبيعي و الاسلام رسالة غيبية ، ان لا يسكت عن هذه الانحرافة الكبرى ، و هذا التغيير الخطير في رسالة الله ، و الله الذي يحب رسالته و رسوله و الامة الاسلامية لم يترك الامر الا وقد اشار إليه بطريقة أو بأخرى ، و لم تكن هذه الاشارةواضحة كأن يذبح الرسول (ص) قادة بني امية جميعا ، لان هذا ليس من شان الرسالات الآلهية لان الله يريد اختبار الناس و امتحانهم ، و في نفس الوقت لا يدع الله الأمر من دون حجة بينة بل يشير الى الحق و الباطل ، ثم يترك المجال مفتوحا لاختيارهم الحق أو الباطل.

و التفسير المختار هو ان الرؤيا هي رؤيا الرسول (ص) في منامه ان قردة ينزون على منبره و يتثاوبون عليه ، و الرسول قال هذا الكلام للناس و لكن من الذي عقله ؟؟

أهل الذكاء و الفطنة ، و اهل التوسم الايماني هم فقط الذين عرفوا بان منبر الرســول (ص) مركز قيادته ، و ان هناك فئات من الامة سوف تسعى لهذا المركز دون حق ، هم بنو امية اما الآخرون فقالوا ان طيف الرسول كطيفهم لا اثر له ، و حقيقة الأمر انه يختلف تماما، و نبي الله ابراهيم اراد ان يذبح ابنه بسبب رؤيا.

"قال يا بني انى ارى في المنام اني اذبحك " فقال له ابنه نبي الله اسماعيل " قال يا ابتي افعل ما تؤمر ستجدني إنشاء الله من الشاكرين " و هكذا كانت رؤيا الانبياء وحيا.

من هنا جاء في الحديث ان ذلك رؤيا رآه النبي في منامه ، ان قردة تصعد منبره و تنزل فساءه ذلك و اغتم به.

روى سهل ابن سعيد عن ابيه فقال : (ان النبي (ص) رأى ذلك و قال انه (ص) لم يستجمع بعد ذلك ضاحكا حتى مات).

و روى سعيد ابن يسار و هو المروي عن ابي جعفر و ابي عبد الله (و قالوا على هذا التأويل ان الشجرة الملعونة في القرآن هي بنو امية اخبره الله سبحانه و تعالى بتغلبهم على مقامه و قتلهم ذريته).

و روي عن المنهال ابن عمر قال : دخلــت على علي بن الحسين عليهما السلام فقلت له : كيف اصبحت يا ابن رسول الله (ص).

قال) :اصبحنا و الله بمنزلة بني اسرائيل من آل فرعون ، يذبحون ابناءهم و يستحيون نساءهم و اصبح خير البرية بعد رسول الله ، يلعن على المنابر ، و اصبح من يحبنا منقوصا حقه بحبه ايانا).

و قيل للحسن البصري : يا ابا سعيد قتل الحسين ابن علي.

فبكى حتى اختلج جنباه (اي تحرك كتفاه) ثم قال : واذلاه لامة قتل ابن دعيها ابن بنت نبيها.

الانسان بين كرامة الله و غرور الشيطان

هدى من الآيات

لماذا يتمرد البشر عن مسؤولياته ، و ما هو جزاء المتمردين ، و ما هو جذر الشرك بالله ؟

لنعد الى قصة الخلق الاول : فمن عرف البداية هدي الى العاقبة ، نتذكر قول الله للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس استكبر و علا بغير حق فقال انا نار)اسجد لمن خلقت طينا) فلما لعنه الله ، قال :

سترى كيف اضل ذرية هذا الذي كرمته علي ان اخرتني الى يوم القيامة ، الا قليلا منهم و انذره الله و من تبعه ان جزاءهم جهنم جزاءا وافيا.

و بالرغم من ان الشيطان سوف يستفزهم بالتضليل.

و يرهبهم بجيشه ، و يتداخل معهم فيشاركهم في الاموال و الاولاد و يحذرهمبوعود كاذبة ، فان عباد الله سوف يتحدونه بعون الله ، و بالتوكل عليه و كفى بالله وكيلا . و الله يملك كل شيء و من يعرفه و يتوكل عليه فهو حسبه.

فهو الذي يزجي السفن في اعالي البحار لمصلحة البشر ، رحمة بهم اما اذا احسوا بالضراء في البحر و غاب عنهم آلهتهم التي كانوا يشركون بهم فان يد الله تنجيهم من ورطتهم بالرغم من انهم يعرضون عنه اذا وصلوا الى الشاطئ آمنين ، و يقابلون رحمة الله ، بالكفران بدل الشكر ، دون ان يتذكروا ان الله قادر على ان يخسف بهم جانب البر ، أو يرسل عليهم ريحا تقذفهم بالحجارة ، فلا يجدون وكيلا يدافع عنهم ، أو يخشوا العودة الى البحر فتحيط بهم عواصف تغرقهم بكفرهم ولا أحد يطالب بثأرهم.

لقد كرم الله بني آدم ، و اسجد لهم الملائكة و حملهم في البر و البحر ، و رزقهم من الطيبات و فضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا و وعدهم بالنصر في مواجهة الشيطان الذي يقف لهم بالمرصاد!

بينات من الآيات

ابليس يتحدى سلطان الحق

[61][و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس]

اشرنا في سورة البقرة ان سجود الملائكة يرمز الى اخضاع الطبيعة للانسان ، و عللنا ذلك : ان كل طبيعة في الكون لها ملك موكل بها ، فهناك ملك للمطر ، و هناك ملك للريح ، و آخر للبحار و ملائكة للنهار و ملائكة لليل و .. و .. و المطلوب من الانسان هو ان يخضعنفسه و قوى الشر في الطبيعة.

[قال ء أسجد لمن خلقت طينا]

يبدو ان ابليس كان عنصريا لانه حيث زعم أن العنصر الناري افضل من العنصر الترابي ، و لم يعلم بان العنصر الترابي ليس بشيء ، لولا تكريم الله له بتلك القدسية التي نفخها الله فيه ، منحه العقل و الارادة .

[62][قال أرايتك هذا الذي كرمت علي]

قالوا :معنى هذه الكلمة اخبرني ، و لعل معنى الكلمة هل ظننت انك تغلبني و فيها نبرة التحدي و التمرد و كان اسلوب اللعين بعيدا جدا عن مقام رب العالمين اذ كان اسلوبه اسلوب تحد على من كرم الله و كأنه كان يقول : ستعلم ما افعل بهذا الذي كرمته علي و امرتنيبالسجود له!!

[لئن اخرتن إلى يوم القيامة]

اي امهلتني حتى يوم القيامة لترى ماذا اعمل!!

[لأحتنكن ذريته إلا قليلا]

ما هي غاية ابليس ؟

هدف ابليس ان يحتنك بني آدم ، و الاحتناك ، كما قال المفسرون له معنيان:

الاول : الاخذ من العنق اي سوف اقود بني آدم سوق البهائم.

ثانيا :الاستئصال اي لأستولين عليهم بالكامل قالوا : احتنك فلان ما عند فلان من مال استقصاه و أخذه بالكلية و احتنك الجراد الزرع ، اكله بالكلية (الا قليلا) ممن يتمرد علي و يتبع عقله و هذا قول الشيطان ، و يبدو من هذا الحوار ان ابليس يقول : انا اقوىمن آدم ، أنت كرمته علي بيد اني سوف ادخله النار.

[63][قال اذهب]

اعطيتك الفرصة و المهلة.

[فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا]

ان الله خلق الجن و الانس ليعبدوه و كرم بني آدم و اهله لعبادته ، اما اذا خرج عن حده و وقع في خط الشيطان ، آنئذ يسحب الله الكرامة منه و يدخله جهنم هو و جنود ابليس اجمعين . و هكذا ابليس من اشد الاعداء خطورة على ولد آدم جاء في الدعاء (الهي اشكو اليك عدوا يضلني ، و شيطانا يغويني ، قد ملأ بالوسواس صدري و احاطت هواجسه بقلبي ، يعاضد لي الهوى و يزين لي حب الدنيا و يحول بيني و بين الطاعة و الزلفى) الا ان الله سبحانه و تعالى زود الانسان بالارادة و العقل و اعطاه مزايا عدة كيف ؟ تعالوا نستمع الى هذا الحوار.

لما اعطى الله ابليس ما اعطاه من القوة قال آدم : (يا رب قد سلطت ابليس على ولدي و اجريته منهم مجري الدم في العروق ، و اعطيته ما اعطيته ، فما لي و لولدي ؟

قال : (لك و لولدك السيئة بواحدة ، و الحسنة بعشر امثالها).

قال : يا رب زدني.

قال : التوبة مبسوطة حتى تبلغ النفس الحلقوم.

قال : يا رب زدني.

قال : اغفر و لا ابالي.

كذا يمكر ابليس

و خطورة الشيطان انه يستخدم أمكر الخطط من أجل اغواء بني آدم و لولا يقظة

أبن آدم ، و عزمه الراسخ للتخلص منه ، فان ابليس يصرعه بواحدة من خططه العديدة.

و كم يكون عظيما ذلك الانسان الذي يتحدى كل خطط الشيطان و يصل الى الجنة بعد تجاوز المواقع و العقبات الشيطانية العديدة و يذكر السياق القرآني بخمسة خطط:

التضليل الاعلامي و تخريب الاقتصاد و افساد التربية و الارهاب و الترغيب.

الف / التضليل الأعلامي

[64][و استفزز من استطعت منهم بصوتك[

و الاستفزاز بمعنى الاستنهاض ، يقال فزت الدابة ، اي قامت و تحركت .. اي حرك منهم من تريد و استنهض من شئت باعلامك المضلل . و يشمل الصوت الدعاية و الموسيقى و الغناء و كل اساليب الغواية المنطوقة.

و يعتبر التضليل الاعلامي امضى اسلحة الشيطان ، حيث نرى بداية الخلق ان ابليس اغوى آدم و زوجته ، و اخرجهما من الجنة ، بالقسم الكاذب و على امتداد التاريخ استخدم الشياطين ابواقهم الدعائية لمحاربة الحق ، و كان حول الطغاة ابدا جيش من ادعياء الفكر و الدينيؤيدون سلطانهم و يغوون عباد الله.

و لا تزال شبكات المستكبرين التضليلية تقوم بأسوأ دور في مد سيطرتهم الشيطانية على المستضعفين و هكذا ينبغي ان يكون الشعب على أعلى مستوى من الوعي حتى يقاوم هذا التضليل ، و الا فان الجزارين سوف يقودونه الى المذبحة بهدوء بعد ان يخدعوه و يغروه.

باء / الارهاب

[و أجلب عليهم بخيلك و رجلك]

الارهاب وسيلة شيطانية يستنجـد بها اعوان الشيطان متى تحرك الناس تجاه دينهم ، او بدأوا بممارسة حقهم في التفكير ، أو بدأوا يستخدمون عقولهم .. (خيلك) هم الخيالة او بمعنى آخر هم القوة المحمولة للشيطان و (رجلك) اشارة الى جيش المشاة.

جيم / افساد الاقتصاد

[و شاركهم في الأموال و الأولاد]

و هذا هو الاسلوب الثالث الذي يعتمده الشيطان و هو افساد النظام الاقتصادي و حين يكون الاقتصاد فاسدا بسيطرة الرأسمال الكافر فان من الصعب جدا عبادة الله ، لان الشيطان يقطع رزق المؤمنين بعد سيطرة اجهزته على المال.

دال / افساد التربية

اما المشاركة في الاولاد فتعني التربية الفاسدة للطفل ، فالشيطان يشارك الاب في تربية ابنائه فمنذ نعومة اظفارهم يأخذهم ليزرقهم فكره ، ليكونوا حملة لرسالته.

و المعنى العميق لهذه الآية : ان الانسان لو ترك و فطرته ، لاستفاد من حياته ، و لكن الشيطان يدخل مع الانسان في كل شيء و يصير معه شريكا ، فيمتص جهوده ، فلا يستفيد الانسان من حياته لحياته الاخرى ، بل تكون حكرا للشيطان.

هاء / الترغيب

]و عدهم و ما يعدهم الشيطان إلا غرورا[

و هذه هي النقطة الاخيرة التي يعتمد عليها الشيطان و زبانيته و هي اسلوب الترغيب ، و لخطورة هذه النقطة سفهها الله سبحانه و تعالى ، لان الانسان تغريه رنة الدينار حتى يعمى بصره فيصبح لا يرى الحق الا بلج.

الغرور هو التغرير ، قال : الراغب في مفرداته : الغرور هو كل ما يغر الانسان من جاه و شهوة و شيطان ، و قد فسر بالشيطان اذ هو اخبث الغاوين.

عبادة الله عصمة و هداية

] [65]إن عبادي ليس لك عليهم سلطان[

ان عبادة الله سبحانه و تعالى ، و الاتصال به عصمة للانسان لئلا يقع في حبائل الشيطان ان عبادة الله هدى في البصيرة ، و قوة في الارادة ، و غوث في الكربة و الذين يكفرون بالله و لا يتمسكون بحبله فان الشيطان يضلهم بغروره و يرهبهم بجيشه ، و يشاركهم في الاموال و الاولاد.

و هكذا لا يمكن لاحد ان يتخلص من براثن الشيطان ، من دون الاعتصام بحبل الله المتين.

و كما ان امضي اسلحة ابليس الاستفزاز بالصوت ، فان اعظم حصن للمؤمن هو الذي يقيه تضليل الناس

.

و ذلك ببصائر الوحي و ضياء العقل ، و هكذا تكون الصلاة و الصيام و سائر العبادات وسيلة للتفكر السليم و مقاومة عوامل الانحراف الفكرية . و يفسر هذه الآية قوله سبحانه و تعالى في سورة النحل:

"فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، انه ليس له سلطان علىالذين آمنوا و على ربهم يتوكلون * انما سلطانه على الذين يتولونه و الذين هم به مشركون) " النحل / ٩٨ - ١٠٠)(السلطان) هو القدرة.

]و كفى بربك وكيلا[

من الطبيعي جدا ان ارادة الشيطان لا تستطيع ان تقف امام مشيئة الله ، لان وعد الله هو الحق و ان يعد الشيطان الا غرورا ، وقد وعد الله عباده بانه وكيلهم في صرف الشيطان عنهم ، و تقطيع مصائده و هدم مكائده.

ان مقاومة اسباب الانحراف في النفس تسير جنبا الى جنب مع التيار العام للخلق و الفطـــرة و الذي تمثله سنن الله و قوانين الطبيعة . اما الانحراف فهو السير ضد هذا التيار ، فلذلك فان الانحراف يحمل في جوفه عوامل انهياره ، حتى لو تذرع بالاساليب الملتوية منارهاب أو اغراء.

] [66]ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر[

هذه مقارنة بين غرور الشيطان و نعم الله ، فاذا كان الشيطان يرمي الى تلك المقاصد التي ذكرها الله ، فان الله سبحانه و تعالى ينقذ الانسان من براثن الشيطان و يساعده على تسخير الطبيعة حيث يزجي السفن في البحر لمصلحة البشر .

و الازجاء : هو الدفع و التحريك ، و لا يتم الازجاء الا بخلق عوامل مؤثرة تساعد على هذا الازجاء سواء بالريح التي تحرك المياه و تحدث الامواج أو بالقمر الذي يصنع المد و الجزر ، أو بخلق العوامل التي تساعد على تحريك السفن فوق سطح المياه.

]لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما[

فلم تزل السفن افضل وسيلة للتجارة ، و نقل فضل الله المتمثل في الوان البضائع من بلد الى بلـــد و بالرغم من تقدم الوسائل الاخرى للنقل البري ، كالطائرات و السيارات و القطار ، فان نسبة نقل البضائع عبر البحار اعظم من غيرها بما لا قياس . و بالاضافة الى ذلكفان البحار ستظل افضل و اعظم مصدر للطعام البشري الطيب.

[67]اسلوب القرآن الحكيم يعتمد على ابلاغ الحقيقة الى غور الفكر ، و عمق القلب ، بان يرفع الحجب التي بينه و بينها حتى يشاهد بذاته الحقائق . فهذا هو العلم الحق انه كشف و شهود و اتصال مباشر بين القلب و الحقيقة (عبر جسر المعرفة) . وهنا يذكرنا الربسبحانه :بذاته عبر منهاج وجداني يعتمد على رفع الحجب و شهود الواقع . و لعل الحديث التالي يبلور في نظرنا هذا الاسلوب.

جاء رجل الى الامام الصادق (ع) و قال له : يا بن رسول الله دلني على الله ما هو ؟ فقد اكثر علي المجادلون و حيروني.

فقال له : يا عبد الله هل ركبت سفينة قط ؟ قال : نعم قال : فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك و لا سباحة تغنيك ؟ قال : نعم.

قـــال :هل تعلق قلبك هنالك ان شيئا من الاشياء قادر على ان يخلصك من ورطتك ؟ قال : نعم . قال الصادق (ع) : فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حيث لا منجي ، وعلى الاغاثة حيث لا مغيث .

(١)[٦٧] [و إذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه]في لحظات الخطر يتذكر العبد ربه ، و يتعلق قلب الانسان بالله و ليس بذاته التي يعبدها أو بالطاغوت الذي يخضع له.

(1)بحار الانوار / ج ٣ - ص 41

و هكذا يستدل بها الله على ذاته ، فلا احد منا يخلو من لحظات الحرج و الشدة ، حيث تحيط بنا الاخطار و نعرف بفطرتنا ان اولئك الآلهة المزيفة ، التي تعبد من دون الله لا تغني عنا شيئا فتتصل القلوب برب الارباب ، و تبدا بالمناجاة الحارة ، و يفتح الرب امامنا ابواب رحمته و تستقبلنا بشائر فضله و تنقذنا يد عونه و غوثه.

[فلما نجاكم إلى البر أعرضتم و كان الإنسان كفورا]فبدل ان يزداد شكرا تراه يزداد طغيانا و كفرا بنعمة الله ،)و كفورا) صيغة تدل على الاستمرار.

[68][أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر]

اين تهرب من قدرة الله ؟! صحيح انه نجاك من هذا البحر الغاضب ، لكن من الذي يضمن لك ان لا تخسف بك الارض ، او ينفجر عليك بركان منها ، و هذه الآية اشارة الى امكان حدوث التغيرات الجيولوجية في اي لحظة.

[أو يرسل عليكم حاصبا]

الحاصب الريح المحملة بالحصى و ذرات الرمل.

عندما كانت قوافل العرب تسير في الصحاري التي تتحرك رمالها كانت الرياح تسوق كثبان الرمل فتبتلع القوافل بما فيها و بمن معها ، و لعلهم كانوا يسمونها بالحاصب.

هذه طبيعة الانسان بدل ان يشكر ربه على النعم اولا و على خلاصه من البلاء ثانيا بدل ذلك يكفر.

[ثم لا تجدوا لكم وكيلا]

سبق و ان ذكر الله سبحانه بانه وكيل عن المؤمنين في دفع الشيطان عنهم ، و لكن من هو وكيل الكافرين في دفع الموت و الضرر هذه الآية تشير الى ضرورة الرجوع الى الله لانه القوي ، و لا قوة اعلى من قوته.

عندما ذكر الله اساليب الشيطان صغرها و بين ان عباد الله اقوى منها بفضل الله فاذا كان الشيطان يستطيع اغواء اتباعه فان الله قادر على اهلاكهم رأسا بان يغرقهم في اليم ، أو يخسف بهم الارض ، أو يرسل عليهم ريحا لا تبقى و لا تذر.

بعد البلاء أما العذاب أو الرحمة

[69][أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا]اي يعيدكم في البحر ، فيرسل عليكم القاصف (القاصف) هي : الاعاصير البحرية الهائلة ، هذه الآية تشير الى غباء الانسان ، فانى له ان يهرب من عذاب الله ؟! فحتى لو اسكرته الفرصة و اذهله تتابع النعم عن شكر ربه ، فهل ينفعه ذلك ؟!

الله قادر على ان ينسيك ما اصابك ، و هذا ليس من صالحك ، إذا قد تلدغ من الجحر الذي لدغت منه في المرة السابقة ! انما عليك ان تتذكر ما اصابك من البلاء ليذكرك بالله سبحانه و تعالى حينها لن تلدغ من جحر مرتين.

ان الله سبحانه و تعالى عندما يبتلي امة فانما يبتليهم بما كسبت ايديهم و يهدف انقاذهم من السيئات التي كانت سبب البلاء كما ان الالم علامة المرض فكذلك البلاء علامة الذنب فاذا كفروا و تمادوا في الغي فان الله عندما يبتلي امة فان ذلك مؤشر انذار لهم بانهممذنبون ، وان الله لا ينجي من هذا البلاء الا عند خلوص النية ،و الخلاصة هي : ان الله سبحانه و تعالى يبتلي الانسان بالبلاء ليعمق روح الايمان فيه ، و لكنه قد يكفر اذا نجي منه وقد يتحول البلاء الى عذاب.

قال الله سبحانه و تعالى لعيسى (ع) : " يا عيسى !الا يغرنك المتمرد علي بالعصيان ، يـأكل من رزقي ، و يعبد غيري ، ثم يدعوني عند الكرب فاجيبه ، ثم يرجع الى ما كان عليـــه ، فعلي يتمرد ؟ ام لسخطي يتعرض ؟ فبي لأخذنه أخذة ليس له منجي ولا دوني ملجـأ. "

إذا البلاء ميزان العبد فقد يهتدي به فيرحمه الله ، و قد يطغى فيحول الله البلاء الى عذاب ، لقد رفع الله فوق بني اسرائيل الطور و هددهم بانه سوف يسقطه عليهم ، و لكنهم أخلصوا نيتهم فتاب الله عليهم ، و عندما عادوا الى غيهم عاد الله عليهم العذاب ، اذا علينا ان نعرف ابدا ان البلاء جرس انذار ، فنصحح انحرافنا و نتجه الى الله قبل ان يصبح عذابا شاملا.

[70][و لقد كرمنا بني آدم]

بالعقل و الارادة و باستواء الخلقة ، و قدرة الجسم على الحركة باستقامة و وجود اجهزة دقيقة له تساعده على التحكم في الطبيعة . و هكذا كرمهم بالهدى و بأن الانبياء و الصديقين منهم حيث أنزل لهم رسالاته ، و كرمهم بتسخير الطبيعة لهم ، و توطئة ظهور الاشياء لهم.

[و حملناهم في البر والبحر]

حملهم في البر : فالارض جعلها صلبة يستطيعون التنقل عليها و سخر لهم الخيل و البغال و الحمير ليركبوها . و سخر لهم سائر وسائل الانتقال في البر بفضله كما حملهم في البحر فوق السفن التي تمر المحيطات.

[و رزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا]الطيبات : الرزق الحلال و كل ما في الارض حلال الا ما استثنى ، و تفضل الله على الانسان ليس لذاته و انما ليتحمل به مسؤولية اكبر ، لان لكل شيء زكاة فزكاة المال بذله ، و زكاة العلم نشره و كذلك فان زكاة التفضيل ان تتحمل مسؤوليتك بحجم هذا التفضيل.

كيف نواجه خطط ابليس ؟

هدى من الآيات

فـي درس مضى بين القرآن الكريم مكر الشيطان و كيده ، و ها هو يبصرنا كيف نقاومه ، و يثبت افئدة المؤمنين بالحديث عن سنة الله التي اتبعها النبيون فانتصروا.

عندما يدعو الله كل اناس بامامهم . فهل تريد ان يكون امامك الشيطان ؟ و عندما تتطاير الكتب . فهل تحب ان تستلم كتابك بالشمال ؟

هنالك من يؤتى كتابه بيمينه ، و يعطون البصيرة ، يقرأون كتابهم دون ان ينقص من اجرهم شيء ، فلا يظلمون بقدر فتيل ، بينما هنالك من يؤتى كتابه بشماله و هم عمي لا يهتـدون سبيلا . بلى انهم كانوا في الدنيا لا يبصرون ، فجزاؤهم ان يكونوا في الآخرة كذلـك.

ان العاقبة الحسنى انما هي من نصيب اولئك الذين يقاومون خداع الشياطينالذين ضغطوا على رسول الله ليغيروا بعض ما اوحي اليه ، و آنئذ يتخذوه خليلا ، و عصمة الله هي التي تحفظ البشر من السقوط في شرك ابليس ، و رسول الله معصوم عن الميل اليهم بأذن الله ، و لو انه ركن اليهم شيئا قليلا لاذاقه الله - اذا - ضعف الحياة و ضعف الممات ،ثم لا ينصره الله شيئا.

هكذا يستقيم المؤمنون امام مكر إبليس و شياطينه ، الهادف تضليلهم ، اما عن قوتهم و ارهابهم فانهم ارادوا ان يستفزوا رسول الله من ارضه ، و يخرجوه منها ، و لكنهم ان فعلوا أطبق عليهم العذاب . تلك سنة الله في الماضين ، و لا تجد لسنة الله تحويلا.

و لكي نقاوم ضغوط الشياطين علينا ان نقيم الصلاة لدلوك الشمس (وقت الظهيرة و العصر) الى غسق الليل (المغرب و العشاء) و قرآن الفجر (صلاة الصبح (ان قراءة القرآن تشهده الملائكة ، و ان نقوم الليل للتهجد نافلة ، ان ذلك وسيلة التقرب الى الرب و لبلوغ المقام المحمود ، و ان ندعو الله لكي يجعل مدخلنا مدخل صدق ، و مخرجنا مخرج صدق ، و ان يجعل لنا من لدنه سلطانا نصيرا ، و ان نحيي الحق و نميت الباطل.

تلك كانت مناهج الرسالة لتحدي خطط إبليس ، و نلخصها في خمسة بنود ، اقامة الفرائض ، و التهجد في الليل ، و الصدق في جميع المواقف ، و التوكل على الله ، و اخيرا الثقة بنصره . و هذا هو محتوى رسالة الله التي اوحاها الى عبده محمد بن عبد الله صلى الله عليهوآله.

ولان سورة الاسراء تبين حقائق الوحي الإلهي تحدثنا عنها في أغلب دروسها ، و ضمن بيان حقائق اخرى تتناسب معها كقضية مكر ابليس الذي يريد إغواء بني آدم ، فيوفر الله لهم حبل االخلاص برسالاته التي اوحى بها.

بينات من الآيات
أمامة القرآن هداية و فلاح
[71][يوم ندعوا كل أناس بإمامهم]

في ذلك اليوم يدعو الله سبحانه كل امة بامامها ، و الامام يعكس قيم امته ، و هو تجسيد لكل فـــرد في الامة ، و هكذا يجب ان تنبع القيادة من صميم الامة ، و تعيش واقعها ، و كل قيادة لا تنبع من صميم الامة فانها لا تملك مبرر البقاء لانها تتنافر طبيعيا معكل فرد في هذه الامة . و الامام هو القرآن الموحى به ، و هو الذي يجسد القرآن و يكون قرآنا ناطقا فالفكرة الرسالية هي القائدة و انما يمثلها ذلك الامام الناطق بها ، و يجب على الانسان ان يتبع الفكرة قبل ان يتبع الشخص ، و ان يعرف خط القائد قبل شخصه ، فاذا اردت اتباع قيادة فلابد ان تعرف خطها اولا.

جاء في الحديث عن القرآن:

"من جعله امامه قاده الى الجنة ، و من جعله خلفه ساقه الى النار. "

و كيف يمكن ان تجعل القرآن امامك ، من دون ان تختار قيادته حسب موازينه.

[فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم و لا يظلمون فتيلا]هؤلاء الذين اتبعوا القرآن يدعون بالقرآن ، و بذلك الامام الذي اتبعوه باسم القرآن و صاروا قرآنيين : أما و انهم صاروا قرآنيين ، فان الله يعطيهم حقهم غير منقوص ، دون ان يظلمهم فتيلا ، و الفتيل هو الخيط الدقيق في شق نواة التمرة ، و لعل نهاية الآية تدلعلى ان الوهم الذي يبثه الشيطان في روح اتباعه بأن عمل الخير لا جزاء له باطل.

و ليس معنى هذه الآية ان الله يظلم من لا يؤتى كتابه بيمينه ، بل الله عادل ولو يؤاخذ الناس بعدله لما نجى احد من البشر ، و لكن الله سبحانه لا يتعامل مع الناس الا بفضله ، و قـــد ورد في الدعاء : " الهي عاملنا بفضلك ، و لا تؤاخذنا بعدلك ، فانه لا طاقة لنا بعدلك ، و لا نجاة لنا دون فضلك " و الله سبحانه لا يظلم الناس ، و لكن الناس أنفسهم يظلمون ، فاذا عاقبهم الله في الآخرة فانما يعاملهم لقاء ظلمهم لانفسهم.

[72][و من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى و أضل سبيلا]غيـر اللـه سبحانه مسار الحديث ، فبدل ان يقول مثلا : " و من اوتي كتابه بشماله .. " قال : " و من كان في هذه أعمى .. " و لو

انه قال مثل ذلك لما وضحت صفتهم الرئيسية ، و على كل حال فان هناك صفة مميزة جعلت بعض الناس اصحاب يمين و البعض الآخر اصحاب شمال ، و ان ذكر هذه الصفة في احدهما يعني وجود عكسها في الآخر ، فصفة اصحاب الشمال العمى ، فاذا تكون صفة اصحاب اليمين الابصار ، و لعل العمى في القرآن يرادف اللاوعي.

ان الوعي فـي الحياة الدنيا هو ضمان السلامة في الآخرة ، لان الواعي لا يعمل إلا وفق تقدير و حكمة ، فلذلك تقل نسبة اخطائه و معاصيه ، و من لا يمتلك وعيا في الحياة الدنيا يحجزه عن المعاصي فهو في الآخرة اعمى عن النظر الى رحمة الله ، و كلمة " أضل " اسم تفضيل على وزن افعل اي أشد ضلالا.

ان الله وفر الفرصة للانسان للهداية ، فان هو لم يتقبلها ، و كفر بالله ، و تغافل عن دواعي الهداية في نفسه ، فانه لن يكون اقل عميا في الآخرة عما هو عليه في الدنيا ، بل هو اضل سبيلا ، ذلك لان " الجزاء من جنس العمل " فمن أطفأ شعلةالهداية في نفسه ، و لم يهتد الى الصراط المستقيم ، هكذا تكون عاقبته ، و هكذا ينبغي ان يسعى البشر نحو الهداية في الدنيا حتى لا يحشر أعمى ، و يبدو من الآية ان الشيطان يسعى من أجل حجب بصيرة البشر ، و ذلك بتضليله الذي عبرت عنه الآيات السابقة بـ " و استفزز من استطعت منهم بصوتك " و على الانسان ان يتحداه و لا يخضع لغروره ، و ان يسعى نحو اسباب الهداية ، و يتجاوز العقبات التي وضعها ابليس في طريقه . ذلك لانه مسؤول عن ابقاء بصره سليما .و لا يجوز له ان يسمح لاحد ان يجعله اعمى.

الرسول يتحدى الضغوط

[73]و كل انسان مسؤول عن بصيرته الا يحجبها الشيطان ، و عن هداه الا ينحرف عنه تحت وطأة الضغوط ، و هكذا كان الرسول يتحدى الضغوط التي يمارسها اتباع الشيطان لتغيير الرسالة.

و التعبير القرآني بليغ في بيان مدى كثافة الضغوط التي يتعرض لها صاحب الهداية ، حتى انها تكاد تؤثر في الرجل العظيم الذي يصفه الامام علي عليه السلام بقوله:

"صل على الدليل اليك في الليل الاليل ، و الماسك من اسبابك بحبل الشرف الاطول ، و الناصع الحسب في ذروة الكاهل الاعبل ، و الثابت القدم على زحاليفها في الزمن الاول ، و على آله الاخيار. "

يقول ربنا : وهو يشير الى تلك الضغوط:

[و إن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك]

يسعى الكافرون و المشركون ان يفتنوا الرسول ، و يبعدوه عما اوحي اليهبالتشكيك ، أو بالارهاب ، أو بالضغوط الاجتماعية ، و النفسية.

[لتفتري علينا غيره]

ليــس فقط يريدون ان يبعدوك عن رسالتك ، بل يريدون ان تسخر هذه الرسالة لصالحهم ، لانهم يفكرون لو انهم ابعدوك عن دينك ، فانه من الممكن ان ترجع إليه ، و لكن عندما تفتري على رسالتك ، و تكذب فيها آنئذ ستفهم هذه الرسالة بشكل مشوه ، و بالتالي ستبتعد عن دينك ، و هذا ما يفعله الاستعمار اليوم ، حين يصيغ الاسلام كما يريد ، ويحرفه عن مساره ، يحوله الى دين الطقوس و الشكليات المجردة بعد ان يفرغه من جوهره ، و يختار لذلك بعض ادعياء الدين.

[و إذا لاتخذوك خليلا]

إذا كيفت رسالتك حسبما يريدون فانت اذا مخلص لهم و ما جزاء المخلص لهم الا ان ترفع مرتبته عندهم ، و هكذا يجب على الداعية ان لا يتنازل عن مبادئه في اي ظرف من الظروف ، و ان يضحي من أجل اداء رسالات ربه.

[74][و لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا]لولا اتصال الرسول (ص) بينبوع القوة ، لكانت

الضغوط تجبره للتنازل عن رسالته ، و حاشا الرسول ان يتنازل عن مبادئه ، و ينقل الرواة ان سبب النزول هو : ان المشركين جاؤوا الى الرسول و قالوا له : (كف عن شتم آلهتنا ، و تسفيه أحلامنا) ، و اطرد هؤلاء العبيدو السقاط الذين رائحتهم الصنان (الصنان : نتن الابط) حتى نجالسك و نسمع منك ، فطمع الرسول في اسلامهم ، فنزلت هذه الآية ، و جاء في حديث العياش عن الصادق عليه السلام انه سئل عن هذه الآية فقال : لما كان يوم الفتح اخرج رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم اصناما من المسجد و كان منها صنم

على المروة ، و طلبت اليه قريش ان يتركه و كان مسخا ، فلم يتركه ، ثم أمر بكسره فنزلت الآية (١. (

و لعل الآية توحي بان الداعية قد يهم لتغيير بعض بنود رسالته طمعا في ادخال الناس في الدين و هذا بدوره خطأ ، و الروايتان تشهدان على هذا التفسير.

بالرغم من ان عصمة الرسول التي تدل عليها الآية (٧٤) بصراحة تشهد على ان الرسول لم يعزم ابدا على تقديم تنازل للمشركين ، ولعله استعرض ذلك في ذهنه كاحد الخيارات المطروحة ، الا انه سرعان ما نبذه بسبب عصمة الله له ، و روي عنه انه صلى الله عليه و آله وسلم قال بعد نزول الآيات " اللهم لا تكلني الى نفسي طرفة عين أبدا " (٢. (

[75][إذا لأذقناك ضعف الحياة و ضعف الممات]

اي لاذقناك ضعف العذاب في الدنيا و الآخرة ، و نظرا لمقام الرسول و عظم مسؤولياته فانه يحاسب بقدر تلك المسؤوليات فكلما ارتفعت مسؤولية الانسان ، كلما حوسب اكثر بعكس الذين لا يحملون مسؤولية كبيرة ، لان انحراف القيادة يعني انحراف قطاع كبير من الامة.

[ثم لا تجد لك علينا نصيرا]

هذه الآية هي جواب على الآيات الاولى " و ان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك لتفتري علينا غيره ، و اذا لاتخذوك خليلا " اي لو انحرفت فقد تجد من ينصرك في الدنيا ، و لكن من الذي ينصرك من عذاب الله.

(1)و (٢) تفسير الصافي / ص - 208ج ٣

[76][و إن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها]الانسان الذي يحمل الرسالة لابد ان يضع في اعتباره انه سوف يتعرض للضغوط الاجتماعية ، و المادية ، و من ضمن هذه الضغوط (الاخراج و التهجير و المقاطعة الاجتماعية و الايذاء (و من يقرأ ما عانى رسول الله من الايذاء لا يمتلك دموعه و خاصة عندما فقد عمه و زوجته في عام الاحزان ، و لم يجد احدا يمنع المشركين عن أذاه ، فاشتد ايذاؤهم له ، و تولى ابو لهب سيادة قريش ، و يزداد أذى له و هو عمه و اقرب الناس اليه ، و اذا كان عمه هكذا فكيف يكون المشركون ؟!

ثم بعدما ضاقت عليه الارض بما رحبت هاجر الى الطائف ، و لقي من العنت مثلما لقي في مكة ، فاذا بصبيانها يدمون رجلي الرسول بالحجارة ، و عندما تأزمت الامور اكثر بين الرسول و اهل مكة حاولوا اخراجه ، و من ثم تآمروا على قتله ، فهاجر الى المدينة ليفتح بذلكصفحة جديدة أطلت على التاريخ ببوارق الأمل.

"يستفزونك " اي يخرجوك و ينفرونك ، و هذه ثانية خطط ابليس و شياطينه حيث انهم حين يفشلون في تغيير الرسالة لتوافق مصالحهم ، و لا اقل لكي لا تضرها رغم اغرائهم لصاحب الرسول بانهم سوف يدخلون في دينه لو فعل ذلك - اقول بعد فشلهم هذا يتوسلون بالارهاب ، و يحاولون طرد صاحب الرسالة

- من ارضهم.

و نلاحظ ان القرآن اشار الى هاتين الخطتين في الآية (٦٤) حيث قال : " و استفزز من استطعت منهم بصوتك و اجلب عليهم بخيلك و رجلك. "

و كأن السياق هنا يذكرنا بفشل إبليس مع نبينا ، و ان علينا الا ندعه ينجح معنا ايضا ، أو لسنا اتباع ذلك الرسول ؟!

[و إذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا]

اي لن يستطيعوا ان يواجهوك بعد ما يخرجوك . لعل الآية تشير الى سنة الهية ، قضاها الرب لعباده : ان رسل الله ، و الذين هم يسيرون على نهجهم ، أوتاد الارض ، فمن دونهم تسيخ باهلها ، بهم يحفظ الله العصاة ان يدمرهم شر تدمير ، فاذا طغى الناس و اخرجوا هؤلاء منبلادهم فان العذاب يصب عليهم صبا . و لو لا ان نبينا (ص) اختار الهجرة الى المدينة لكان أهل مكة يتعرضون لعذاب شديد ، بل انك ترى انهم تعرضوا للقتل و الاسر ، و فتح بلدهم لانهم هموا باخراج الرسول.

[77][سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا و لا تجد لسنتا تحويلا]سنة الله لن تتغير حتى يوم القيامة ، فهذه من الحتميات الالهية ، و التحويل هو تحويل الشيء الى غيره ، و سنة الله المتمثلة بنصر الرسل ، سنة ابدية محتومة ، كما الظروف الطبيعية تحتمها ، لان الكفر يسير ضد التيار العام للطبيعة ، بينما تنتصر رسالات الله ،لانها تتحرك باتجاه التيار الطبيعي للحياة ، كما انها تتوافق مع الفطرة.

الصلاة

[78]كيف يقاوم المرء ضغوط الشيطان ؟ يجيب السياق القرآني عن هذا السؤال بعد ان بين خطط ابليس في إغواء بني آدم ، و سوقهم الى النار و يتلخص الجواب في اقامة الصلوات المفروضة ، و التهجد بالليل ، و الصدق في المدخل و المخرج ، و التوكل على الله ، و الثقة بنصره ، فهذه خمسة برامج يتحدى بها المؤمن مكر الشيطان و كيده.

[78][أقم الصلاة لدلوك الشمس]

دلوك الشمس اي زوالها ، و سمى الدلوك دلوكا ، لان الانسان يدلك عينه عنده لشدة شعاعها آنئذ ، و قال البعض ان الدلوك هو الميل ، و سمي الزوال دلوكا لان الشمس تميل عنده الى جهة المغرب ، كما ان المغرب سمي به ايضا لان الشمس تميل الى الغروب.

[إلى غسق الليل]

غسق - دلجة - ظلمة - بمعنى واحد و هو شدة الظلام ، و شموله ، و لعله يتم عند منتصف الليل.

[و قرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا]

قرآن الفجر هو صلاة الصبح ، و صلاة الصبح مشهودة من قبل ملائكة الليل و ملائكة النهار ، لذلك استحب استحبابا مؤكدا صلاة الفجر في اول وقتها.

نلاحظ ان الله سبحانه حدد اوقات الصلاة بثلاث اوقات بدل ان تكون خمسة اوقات ، نظرا لتقارب وقتي الظهر و العصر ، و المغرب و العشاء.

[79][و من الليل فتهجد به نافلة لك]

نافلة الليل هي الصلاة غير المكتوبة ، و لو كتب على المؤمن غير الفرائض الخمس لكان المكتوب صلاة

الليـل لما فيها من الثواب ، و مباهات الله ملائكته بمن يصليها.

التهجد : السهر لصلاة الليل ، و أخذت الكلمة من الهجود و هو النوم ، و كأن المتهجد يغالب نومه.

[عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا]

هذه فائدة صلاة الليل و المقام المحمود للرسول الشفاعة ، و للمؤمنين درجات الكمال ، حيث جاءت الاحاديث تؤكد على صلاة الليل ، و توضح فوائدها ، فهي تزيد في الرزق ، و تزيد في العمر ، و ترفع عذاب القبر و هي نور في القبر ، و نور يوم القيامة ، و ترفع اسم الانسان ، و تزيد في بهاء وجهه ، و تزرع الخشية في قلبه ، و تحببه الى اخوانه و عشرات من الفوائد العظيمة.

شفاعة الرسول في أمته

عن الامام الصادق (ع) : عن آية " عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا " سأله رجل عن قول الرسول في تفسير هذه الآية " انا سيد ولد آدم و لا فخر " قال (ع " (نعم يأخذ حلقة من باب الجنة فيفتحها ، فيخر ساجدا ، فيقول الله : ارفع رأسك .. اشفع تشفع ، .. اطلب تعطى فيرفع رأسه ثم يخر ساجدا ، فيقول الله : ارفع رأسك .. اشفع تشفع ، .. اطلب تعطى ، ثم يرفع رأسه فيشفع فيشفع ، و يطلب فيعطى. "

و في رواية اخرى عن الامام الصادق (ع) رواها عنه الامام الكاظم (ع) : يقوم الناس يوم القيامة مقدار اربعين يوما ، و تؤمر الشمس فتنزل على رؤوس العباد ، و ينجم العرق ، و تؤمر الارض الا تستقبل من عرقهم شيئا ، فيذهبون الى آدم فيشفعونه ، فيدلهم على نوح ،يقول : اذهبوا الى نوح ، و يدلهم نوح الى ابراهيم ، و يدلهم ابراهيم الى موسى و يدلهم موسى الى عيسى ، و يدلهم عيسى الى محمد (ص) ، فيقول : عليكم بمحمد خاتم النبيين ، فيقول محمد (ص) : أنالها ، فينطلق حتى يأتي باب الجنة ، فيدق الباب ، و يقال : من هذا ؟ فيقول محمد : افتحوا ، فاذا فتح الباب ، و استقبل ربه ، فخر ساجدا لا يرفع رأسه حتى يقول الله له : تكلم ، فاسأل تعطى ، و اشفع تشفع ، فيرفع رأسه فيستقبل ربه ، فيخر ساجدا ، فيقال له مثلها ، فيرفع حتى انه ليشفع من قد حرق بالنار ، (وما) احد من الناس يوم القيامة في جميع الأمم اوجه

من محمد ، و هو قول الله تعالى : " عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا. "

و بالرغم من ان الآيات تخاطب النبي صلى الله عليه و آله ، و فسرت في اكثر النصوص المأثورة عن علماء المسلمين جميعا بالشفاعة التي خص بها الرب حبيبه محمدا صلى الله عليه و آله - بالرغم من ذلك - الا ان القرآن نزل على لغة " اياك اعني و اسمعي يا جارة" حسب النصوص المأثورة.

و هكذا نعرف ان نافلة الليل هي معراج المؤمن الى الكمال ، انها تطهر القلب عن عقده و احقاده ، و اهتماماته بصغائر الامور ، و توسع الصدر لاستقبال المسؤوليات العظام ، و تشحذ العزيمة لتحدي العقبات ، و تنهض الإرادة الخاملة ، و تعطى النفس قوة دفع ذاتية ،و كل ذلك بفضل القرب الى الرب ، و لعل كلمة " عسى " في هذه الآية كما لفظة لعل في آيات اخرى تذكرنا بان هذه الحقائق ليست مثل الحقائق الفيزيائية التي تقضي بحتمية النتائج بعد الاسباب ، بل انها حقائق فوق مادية تتبع مشيئة الله ، و الله سبحانه لا يتقبل العمل الا بالتقوى و الاخلاص ، وهو ينظر الى روح العمل قبل مظهره ، فعلى الانسان ان يستمر في الاجتهاد ، و يرجو رحمة الله ، فعسى ان يبلغه الله النتائج و بذلك يحرض القرآن المؤمنين على المزيد من العمل و المزيد من التضرع الى الله ليبلغوا المقام المحمود بفضله.

نصرة الله

] [80]و قل رب ادخلني مدخل صدق و أخرجني مخرج صدق [

الالتزام بالصدق في المواقف ، في كل مدخل و مخرج منها هو أهم واجبات الرسول و الرسالي ، ولان الانسان يحتمل ان يدخل فيما يكرهه الله ، أو يخرج عما يحبه الله ، فهو بحاجة الى حاجز يمنعه عن الانحراف ، و هذا الحاجز انما هو من عند الله سبحانه ، و المراد منهذه الآية : يا رب ادخلني في الامور

ادخالا صادقا ، و اخرجنيمنها اخراجا صادقا.

]و اجعل لي من لدنك سلطان نصيرا[

اذا التزم الانسان بالواجبات الشرعية ، و جسد الشخصية القرآنية آنئذ يصبح تحت ظلال رحمة الله في الارض ، فيصبح سلطانا من قبل الله ، بالطبع ليس سلطانا ماديا ، بل سلطانا ربانيا رحمانيا ، و يبعث الله من ينصره من المؤمنين و الملائكة.

اذا اردت ان تكـــون قائدا اصلح نفسك و كن مع الله ، لانه من كان مع الله كان الله معـه.

جاء في وصية الامام الحسن (ع) لجنادة:

"يا جنادة من اراد عزا بلا عشيرة ، و هيبة بلا سلطان فليخرج من ذل معصية الله الى عز طاعته. "

و لو عمل المسلمون بهذه الآية الكريمة لاغنتهم عما في ايدي اعدائهم ، و هيأت لهم استقلالا اقتصاديا ، و ثقافيا ، و سياسيا ، كيف ؟

لقد اودع الله في الانسان معادن لا تنفد و لا تحد ، و سخر له الطبيعة بما اعطاه من علم و ارادة و قوة . و من اعظم المواهب التي أتاها الرب للخلق الطموح ، فكل واحد يتطلع الى العظمة ، ويحب الكمال و هـذا التطلع هو جناح المرء في تحليقه في فضاء التقدم . الا ان الشيطان يغويه ، و يوجه طموحه في الاتجاه الخاطئ ، انه يلوي مقود سيارته عن الشارع المعبد الذي يمهده الجهد الصادق باتجاه الصخور الوعرة ، و يهمس في اذنه هذا هو طريق المجد ، الكذب ، الغش ، السرقة ، و انتهاب ثروات الآخرين ، و استغلالهم ، أو استجداء العون منهم ، و هكذا يخدعه مرتين حين يسلب عنه عزيمته ، و حين يخيل اليه ان الآخرين ينفعونه.

اما المؤمن فأنه يعلم ان قوة ساعده ، و نفاذ بصيرته ، و مضاء عزمه كل اولئك كفيل بتقدمه ، وا ن رزقه موجود في الطبيعة ، في الارض التي يزرعها ، في المعادن التي يستخرجها و يسخرها ، و بالتالي في التعامل الشريف مع الناس.

و هكذا يبني بناءه على الصدق ، فان دخل في عمل ، في مشروع ، في حركة ، في شركة ، دخل بنية صادقة لم يدخل ليستغـل جهـد الآخرين ، و لا ليستريح من بذل الجهد ، ثم لا يخرج الا بصدق فيكمل مسيرته حتى النهاية ، و يتم عمله باحسن وجه دون ان يخدعه الشيطان ، فيدفعه لترك العمل . متى ما رأى فيه صعوبة.

و لعل صدق العمل في المدخل و المخرج هو التحدي المناسب لخطة ابليس في مشاركة الاموال و الاولاد ، حيث قال الله سبحانه في آية مضت بينت مكر ابليس في تضليل البشر قال : " و شاركهم في الاموال و الاولاد و عدهم و ما يعدهم الشيطان الا غرورا. "

إذ ان صدق المؤمن لا يدع مجالا لمشاركة ابليس الذي يهدف افساد الاقتصاد و التربية ، و كيف يفسد اقتصاد قوم لا يأكلون الحرام ، و لا يسرقون جهد بعضهم ، و لا يتعاملون بغش ، أو تطفيف ، أو تغرير ، أو كذب!

و نستوحي من تواصل بداية الآية و خاتمتها ان الصدق في الدخول و الخروج وسيلة لنزول نصر الله ، و بلوغ القوة (السلطان (و العزة (النصر. (

و الصدق في البداية هو خلوص العمل ، بينما الدعاء في الخاتمة هو التوكل وهما العمل الصادق و التوكل على الله يتكاملان فلا توكل من دون عمل ، و لا ينفع العمل من دون التوكل.

] [81]و قل جاء الحق و زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا]سبب ارتفاع الباطل هو خفوت نور الحق و تقوقعه ، متى ما وجد الحق غاب الباطل.

و هذه الآية تعطي الثقة بالمستقبل و لعلها تعالج غرور الشيطان الذي أشير اليه ، و قول ربنا سبحانه : " و عدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا " فبينما الشيطان يخدع الانسان ، و يمنيه بالمستقبل كذبا ، فان الله سبحانه يعده صادقا ، اذ انه يبشره بانالعاقبة للمتقين ، و ان الحق منتصر و ان الباطل كان زهوقا .

وهكذا يقاوم المؤمن كل مكر شيطاني بخطة رشيدة ، و عمل مبارك:

- 1 يتحدى صوته المضلل ببصائر الوحي.

- 2 خيله و رجله و بالتالي ارهابه بالصلاة و التهجد .

- 4 - 3 مشاركته في الاموال و الاولاد بالصدق و التوكل.

- 5 وعوده و غروره بالثقة بوعد الله و الامل في المستقبل.

عاذنا الله من شر الشيطان و كيده و مكره.

القرآن بلسم الحياة و شفاء الانسان

هدى من الآيات

يبدو أن آيات هذا الدرس تتركز في بيان الموضوع الرئيسي لسورة الاسراء ، و هو الوحي ، و تعالج الموقف السلبي الذي اتخذه الكفار من القرآن.

كلما نزلت آية من القرآن كانت شفاءا عن داء ، و رحمة للمؤمنين ، بينما الظالمون لا تزيدهم الا خسارا . لماذا ؟

لان الانسان يتكل على النعم ، و يغتر بها ، فاذا انعم الله عليه بنعمة اعرض عن ربه و استكبر ، فلما زالت النعمة عنه استبد به اليأس ، و لعل هذا اعظم سبب للجحود و الكفر بالقرآن ، كما يظهر من خاتمة هذا الدرس.

و كل انسان يعمل حسب ما بنيت شخصيته عليه ، و الله اعلم بمن هو اهدى سبيل ، و لعل هذا هو السبب الثاني الذي يجعل الكفار يخسرون نعمة القرآن ، ولايستفيدون منه ، لا شفاء و لا رحمة.

و الوحي نعمة من الله و ليس من الرسول نفسه و لو شاء الله لذهب به دون أن يقدر أحد على المطالبة به ، و انه لرحمة من الله ، و فضل عظيم ، و لعل زعمهم بان الوحي من الرسول سبب ثالث لكفرهم و هو معجز لانه لو اجتمعت الانس و الجن على أن يأتوا بمثله لا يقدرونعلى ذلك حتى ولو تعاون بعضهم مع البعض الآخر.

و هو يحتوي على امثلة الحياة التي لو ساروا عليها لاهتدوا و لكن اكثر الناس يكفرون بهذه النعمة ، و تراهم يطالبون الرسول بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا حتى يؤمنوا به ، أو تكون له جنة من نخيل و عنب فيفجر الانهار خلالها تفجيرا.

و قد يطالبونه بالعذاب كأن يسقط السماء عليهم كسفا ، أو يأتي بالله و الملائكة قبيلا ، أو يقولون له لو كان لك بيت من زخرف ، أو رقيت الى السماء ، و أنزلت معلك كتابا نقرؤه لآمنا بك و هم يغفلون عن حقيقة هامة هي ان الرسول بشر مثلهم يوحى اليه ، و ان القرآن ليس منه انما هو من الله سبحانه.

بينات من الآيات

شفاء القرآن

[82]القرآن شفاء و رحمة ، شفاء يطهر القلب و البدن و المجتمع من الجراثيم ، و رحمة تنمي فيها الخير و الفضيلة.

[و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين]

كل القرآن شفاء الامراض ، و بعض القرآن شفاء لذلك المرض الذي جاء من اجل شفائه ، ولان القرآن نزل حسب الظروف تنزيلا فقد كانت آياته شفاءللامراض التي نزلت لعلاجها ، ولعل كلمة " من " تدل على ذلك.

و السؤال هنا هو : كيف يكون القرآن شفاءا و رحمة للمؤمنين ؟

اختلف المفسرون حول معنى الشفاء و ابعاده ، و لكن الشفاء المقصود به هنا هو : شفاء عام لكل جوانب الحياة.

القرآن شفاء القلب و المجتمع و البدن

أولا : بيـــن الانسان و معرفة الحقائق حجب متراكمة من ضغوط الشهوة ، و عقد النفس ، و قيــود المجتمع ،

الانسان و وجدانه من الصميم ، فيتحرك العقل من الداخل ليخترق حجب الجهل و الضـــلال ، و الغرور هو اعظم حاجز بين الانسان و الحقيقة ، لذلك تصب هذه الآيات حمـــم الانذار من خلال تصوير مشاهد يوم القيامة ، و هلاك السابقين ، ليقطع الاسترسال في الغفلـــةو احـــلام اليقظة ، و في هذا السبيل يضع شرائع مفصلة لتنمية المواهب الخيرة في القلب بعد تطهيره من امراض الاستكبار ، و الحسد ، و الحقد ، و العجب ، و الغرور و .. و..

اذ القرآن يعالج تفكير الانسان لئلا يقع في الاخطاء المنهجية لفهم الحقائق ، و ذلك عبر تقديمه للمنهج الصحيح.

ثانيا : و القرآن الحكيم شفاء للامراض الاجتماعية حيث يعطينا برنامجا في الاقتصاد ، و السياسة و التربي

ثالثا : و يقدم القرآن لنا نصائح توجيهية للحفاظ على الجسد ، فهو يؤكد على ضرورة الطهارة و النظافة ،

و نحن عند اصابتنا بأي مـرض في أي مجال نحتاج الى التسلح بالارادة و الحيوية ، و حينما تخلص نيتك لله ، فانــه سيمــن عليك بشفائه من حيث تعرف أو لا تعرف.

و هكذا جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام : " إنما الشفاء في علم القرآن " لقوله : " و ننزل من القرآن ما هــو شفــاء و رحمة " لاهلــه لا شـك فيـه و لا مريه ، و اهله أئمة الهدي الذين قال الله " ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا " (١).

و جاء في حديث آخر ، مأثور عن الامام الباقر (ع):

"ما اشتكى احد من المؤمنين شكاية قط ، و قال :باخلاص نية و مسح موضع العلة. "

"و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين الا خسارا " الا عوفي من تلك العلة ، أية علة كانت ، و مصداق ذلك في الآية حيث يقول : " شفاء و رحمة للمؤمنين " (٢).

السعادة و أبعادها

للسعادة جزءان الاول : (رفع النقمة) و هو الشفاء و (جلب النعمة) و هو الــرحمة ، و يعنـي رفع الالم و الفقر و المرض ، و منع حدوث الفتن و الحروب و ما شــابه.

(1)تفسير الصافي / ج ٣ - ص 213

(2)المصدر

اما الجزء الثاني للسعادة فهو : السكينة و الاطمئنان ببلوغ الانسان غاياته . وهكذا كان القرآن شفاء و رحمة.

[و لا يزيد الظالمين إلا خسارا]

ان في القرآن منهاجك الذي يصل بك الى اهدافك ، ولكن لا يستفيد من هذا المنهج الا المؤمنون الذين يطبقون القرآن بوعي و استقامة و اخلاص ، اما الظالمون الذين يغيرون معاني آيات القرآن حسب مصالحهم فان القرآن سيكون لهم شقاءا في الدنيا ، و خسارة في الآخرة ،فهو لا يدع مناسبة الا ذم فيها هؤلاء الظالمين بائعي الحق ، و عبدة الشيطان و الهوى ، و نتساءل : لماذا خصت الآية الظالمين بالذكر و الجواب:

أولا : ان الظلم ظلام القلب ، و حجاب و ظلمات يوم القيامة.
ثانيا : لان الظالم يفسق عن حدود الله ، و يعبد شهواته فانه يفسر آيات القرآن حسب اهوائه ، و بدل ان تد
ادة ، و لو لم يتبع هواه اذا لاهتدى الى الجادة.

[83]كيف لا ينتفع الظالمون من القرآن الا خسارا ؟

يبدو ان السياق يجيب عن ذلك في الآيتين التاليتين ، حيث ان الآية الاولى تبين طبيعة الانسان و التي لا تقضي استقبال النعم ، و الانتفاع بها اما الآية الثانية فتوضح اثر العادة في سلوك البشر و حيث ان ما تعود عليه الظالمون وهم سائر الناس غير المؤمنين من الذين انزل عليهم القرآن فلم يستجيبوا له اقول : ان سائر الناس قد جبلوا على الاعراض عند النعم ، كما انهم يعملون على الشاكلة التي ساروا عليها سابقا ،فلا يتركونها بسهولة الى القرآن ، بلى المؤمنون وحدهم يتجاوزون هذه الحالة ، و يرتفعون الى مستوى الايمان.

[وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونئا بجانبه]

قالــوا :بـان معنى الآية انه يعرض عن ذكر ربه عند النعمة ، و يبطر بها و يتولى ، فالآية حسب قولهم نظير قوله تعالى : " ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا و اذا مسه الخير منوعا. "

و لعل الاقرب الى السياق أن نقول :ان هذه الآية تبين صفة اخرى للانسان و هي الاستهانة بالنعم ، و عدم الاستفادة منها ، و عدم تقديرها حق قدرها ، و الاعراض هنا عن النعم ذاتها و ليس عن الله ، بلى ان الاعراض عن الله و عن نعمه ينبع من صفة واحدة ، ذلك لانمن يعرض عن ربه و لا يشكر نعمه ، و يزعم انما أوتي النعم بعلمه و جهوده ، بل يرى ان النعم جزء من ذاته ، و ان له طبيعة مميزة عن غيره بدليل انه خص دون غيره بالنعم فعنصره افضل من سائر الناس.

اقول ان مثل هذا الفرد يستهين ايضا بالنعم و يعرض عنها ، و بالتالي فان هاتين الصفتين تنتهيان الى طبيعة واحدة.

و لان الانسان يعرض عن النعمة ، و يتعالى عليها ، و يتولى بركنه ، و ينأى بجانبه ، فانه لا ينتفع بالقرآن الحكيم ، ولا يكون القرآن بالنسبة اليه شفاء ، و هذا اكبر ظلم ذاتي ان يترك المرء الاستفادة من اكبر النعم استهانة بها.

بلى يبذل المؤمن جهدا كبيرا حتى يستفيد من نعمة الوحي ، لانه يتواضع له ، و يسمع و يطيع و يقنت لله بخضوعه لكتابه ، فيكون الكتاب شفاء له ، و هكذا سائر النعم في الحياة.

أوليس العلم نعمة ، و لكن من الذي ينتفع به ، هل الذي يستهين به او يتعالى عليه أم الذي يقدره و يكرم مقامه.

و حتى الثمرة الناضجة لا ينتفع بها الا من يقطفها و ينظفها ثم يطعمها ، اما من يتولى عنها فهل يستفيد منها ؟!

[و إذا مسه الشر كان يؤسا]

لان الانسان يرى النعم من ذاته فانه يرى استمرارها ، فيتكل عليها ، فاذا زالت تصيبه الصدمة و ينهار لانه قد سقط متكأه و معتمده ، و هكذا يستبد به اليأس .

أما المؤمن فيشافيه الله بالقرآن الذي يكمل هذا النقص من طبيعة الانسان ، و يجعله يعتمد على الله ، و يلهمه الصبر و الأمل.

الشخصية و نهج العمل

[84]و يختلف الناس في مدى انتقاعهم بالوحي ، و ينبع الاختلاف من شخصياتهم الداخلية ، التي تكونت بالصفات و العادات المتبانية.

و بالرغم من ان الله قد وهب للانسان من القدرة و المعرفة ما يمكنه من صياغة شخصيته حسب ما يشاء ، الا انه لو لم يفعل ذلك فسوف يقاد بلجام شخصيته ، و ستكون اعماله في تجاه شخصيته ، حتى مواقفه من المعارف الالهية سوف تتأثر بنوع شخصيته ، و صفاته ، و عاداتهو ملكاته.

[قل كل يعمل على شاكلته]

الشاكلة مشتقة من كلمة (الشكل) وهو الجام الدابة ، و الشكل لجام الدابة ،و يبدو ان المعنى المناسب لهذه الكلمة بالنظر الى اصل معناها اللغوي و سياق ذكرها هنا هو الطريقة و المذهب ، أو الطبيعة أو الخلقة ، فيكون معنى الآية كل شخص يعمل حسب طريقته و طبيعته ، و بالتالي فان مظهر عمله ينبئ عن مخبر ضميره و نيته ، و هكذا تكون اعمال الناس تعبيرا عن طرائفهم ، و مذاهبهم ، و طبائعهم ، و عاداتهم ، و علينا ان نكتشف من خلالها نياتهم ، و نصبغ اعمالهم بها.

من هنا جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق)ع):

"النية افضل من العمل ، الا و ان النية هي العمل. "

ثم تلا " قل كل يعمل على شاكلته. "

و قد تكون الاعمال متشابهة الا ان اختلاف النيات ، و شخصيات العاملين ، و اهداف العمل يجعلها متناقضة ، فالصلاة و الصيام و الحج قد يقوم بها المخلص فتكون معراجا و جنة و جهادا أكبر ، و قد يقوم بها المرائي فتكون وبالا على صاحبها.

والله سبحانه و تعالى هو الحكم الذي يقضي بسلامة النية أو الغل فيها.

[فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا]

و اذا كنت تحب عملا ، أو تهوى طريقة أو تعودت على سلوك و مذهب فلا يعني ان كل ذلك حق ، بل مقياس الحق و الباطل هو الله الذي اوحى بالكتاب ليكون فرقانا ، و يهدينا الى سبل السلام ، فلا تزك نفسك ، ولا تجعلها مقياس الحق و الباطل.

قل الروح من أمر ربي

[85]من انزل القرآن من عند الله على قلب الرسول ؟ و من يسدد الانبياء و يؤيدهم باذن الله ؟

أوليس هو الروح الذي قال عنه ربنا سبحانه و تعالى:

"نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين " (الشعراء / ١٩٣)فما هو الروح و من أين يأتي و من يسوقه ؟

[و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي]

و هذا الروح ملك من ملائكة الله ، مخلوق مدبر ، و هو الذي ينزل في ليلة القدر حيث يقول ربنا سبحانه.

"تنزل الملائكة و الروح فيها " و هو الذي يسدد الله به الانبياء و هو اعظم من جبرئيل و ميكائيل ، و كذلك جاء في الاحاديث و اضاف بعضها:

"له سبعون الف وجه لكل وجه سبعون الف لسان يسبح الله بجميع ذلك " (١).

و يرى بعض المفسرين ان الروح هنا هو روح الانسان ، و الكائنات الحية ، بيد ان سياق الآية يدل الى ان المراد منه هو روح القدس ، أو ليس الحديث لا يزال عن القرآن و هو الذي نزل به الروح الأمين ، بلى لا يمكننا ان نقول روح الانسان ، و جميع الاحياء بل حتـــارواح الملائكة تقتبس الحياة من ذلك الروح ، و الروح واسطة بين الانسان و الحياة ، و هناك العقل هو ظل من ظلال الروح ، و العلم الانساني جزء من علم الروح ، ذلك الملك العظيم ، و هكذا اختلفت الاحاديث المأثورة عن مصادر الوحي في معنى الروح هنا ، فبينما نجد بعضها يؤكد على انه الملك العظيم ، يقول : بعضها بانه روح الانسان ، و الواقع انهما معا من مشكاة واحد ، تعال نقرأ معا بعض تلك النصوص:

(1)راجع كتاب نور الثقلين / ج ٣ - ص (٢١٥ - ٢١٩)١ - يروي حمران عن ابي جعفر)الباقر) و ابي عبد الله (الصادق) عليهما السلام بعد السؤال عن قوله يسألونك عن الروح . قالا : " ان الله تبارك و تعالى احد صمد ، و الصمد الشيء الذي ليس له جوف ، فانما الروح خلق من خلقه (له) بصر و قوة و تأييد يجعلهفي قلوب المؤمنين و الرسل. "

- 2و روى ابو بصير عن احدهما الباقر أو الصادق)ع) قال : سألته عن قوله : " و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي " ما الروح ؟

قال : " التي في الدواب و الناس " قلت : وما هي ؟ قال " : هي من الملكوت ، من القدرة. "

- 3و روى ابـو بصير ايضا قال : سألت ابا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل " يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي " قال : " خلق اعظم من جبرئيل و ميكائيل ، كان مع رسول الله ، و هو مع الأئمة و هو من الملكوت " (١).

و هكذا نجد الروح من الملكوت ، سواء الذي يؤيد الله به الرسول أو الذي يحيي به الله البشر و الاحياء ، إلا ان الله يعطي منه لمن يشاء كيف يشاء بقدر ما يشاء ، و هو اعلم بحقيقته لذلك قال ربنا:

[و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا]

[86]و لئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا]ان القرآن ليس من صنع الرسول ولا غيره من البشر ، انما اوحي اليه عن طريق(١ (المصدر

الروح ، و الدليل على ذلك : ان باستطاعة ربنا سبحانه أخذ هذا الوحي من نبيه ، و لا يستطيع النبي ان يفعل شيئا ، و هذا دليل على قدرة الله.

[87][إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا]

و من رحمة الله بعباده تنزيله الوحي عبر الروح على رسوله ، و هذه هي اكبر النعم على امة الرسول حيث يتبعون منهاجه و يستضيؤون بقبسات هديه ، و العقل و العلم ظلال لتلك الروح و مثل هذه الروح لا تقهر ، و مثل هذا القرآن لا يهزم.

القرآن يتحدى

[88][قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا]لو قام جميع سكان المعمورة بالاجتماع من اجل صنع آية كآيات القرآن لما استطاعوا ذلك ، و القصص التاريخية كثيرة في هذا المجال ، فذات مرة اجتمع ثلاثة من كبار بلغاء العرب و زنادقتهم و فيهم ابن ابي العوجاء الملحد المعروف ، و قرروا في اجتماعهم تأليف آيات يضاهون بها القرآن ، و طال بحثهم لمدة سنة كاملة فما رجعوا الا بالخيبة و الخسران ، و هـا هو القرآن بعد اكثر من (١٤٠٠) عام يتحدى الغرب و الشرق ، فهل من منافس ؟! كلا.

[89][و لقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل]و من معاجز القرآن انه يحدثنا عن كل شيء ، و يضرب لنا الأمثلة في كل ناحية ، لذلك كان القرآن واقعي التشريع ، صحيح المنهج ، فواضعه علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية في السماوات و الارض.

[فأبى أكثر الناس إلا كفورا]

فبدل شكر النعم تراهم يكفرون بها ، لماذا ؟

لان منطلق الناس في تقييم القرآن هو منطلق مادي بحت ، و هم يظنون ان القرآن يجب ان يوزن بمقدار الذهب ، و مكاييل الفضة ، و مساحات العقار ، و هذا هو نمط تفكيرهم المنحرف.

حوار العاجزين

[90][و قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا]

يبدأ المعارضون في طرح افكارهم التبريرية ، و شروطهم التعجيزية في محاولة يائسة للتنصل من مسؤوليات الايمان بالرسالة ، فبدل أن يسألوا عن تطلعات الرسالة ، و برامجها في الحياة يطلبون من الرسول ان يفجر لهم ينبوعا من الماء ، و ما قيمة الينبوع امام منهج الحياة ، و تنظيم السلوك و المجتمع ؟!

[91][أو تكون لك جنة من نخيل و عنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا]و هنا تتجلى بوضوح مادية النمط التفكيري للكفار ، فهم يطالبون بالماء و النخيل و الجنات و الانهار لتكون شواهد على صدق الرسالة ، و لكن السؤال الذي يطرح على امثال هؤلاء هو : ماذا يعني تفجر الينابيع بالنسبة للرسالة ؟ و ما علاقة مبدأ الرسالة و احقيتها بهذه المطالب المادية ؟ و هل تصلح هذه لكي تكون شواهد صدق على عصمة الرسالة و عظمتها ؟

[92][أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي باللهو الملائكة قبيلا]

و يستمر السفه الفكري ، و الخواء الثقافي النابع من المنطلقات المادية للمجتمعات الكافرة ، فهم تارة يطلبون ينابيع الماء ، و في اخرى يطالبون بالجنات و الانهار ، و يبلغ بهم السفه حدا يطالبون بحضور الله و ملائكته عندهم ليتأكدوا صدق الرسالة (!!) انهم قوملا يؤمنون الا بالمحسوس ، و أما غير ذلك فهم به كافرون ، و القرآن يدعوهم لإثارة عقولهم ، و التخلي عن هذه المنطلقات السخيفة في تقييم الافكار و ابعاد الحياة.

[93][أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء و لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه]و من مقومات الرسالة و الرسول عند امثال هؤلاء : امتلاك الوسائل المعيشية كالبيت الجميل ، و المكانة الاجتماعية الرفيعة ، و الكلمة النافذة ، وان يكون فوق البشر انطلاقا من نظرتهم المادية القاصرة ، و هم يطلبون صعود الرسول للسماء ، و أخذ رسالة من الله مكتوبة في ورقة.

ان كل رسالة ان لم تكن مختومة بختم الواقع ، و مدموغة بدمغة الحق الالهي هي باطلة بلا جدال ، و هذا هو المعيار الحق لتقييم الرسالات و ليست تلك المنطلقات الهزيلة.

[قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا]

ان مشكلة الناس هي وقوفهم عند نقطة بشرية الرسول ، و اختلاط المقدمات بالنتائج في شكل غير صحيح في تقييمهم للرسالة مما يؤدي الى نشوء معايير و مقاييس غير سليمة ، فمصدر الرسالة هو الله و اليه المرجع و المصير ، و ما الرسول الا بشير و نذير ،يبلغ رسالات الله ، و أمره و نواهيه ، قم تم اختياره من البشر ، و من مجتمعه بالذات لاعتبارات ذاتية واقعية ، و اخرى نفسية ، و اجتماعية و غيرها مما لا يلم به الا علم الله الواسع.

التكذيب أسبابه و نتائجه

هدى من الآيات

ما الذي منع الناس عن الايمان برسالات الله ؟ يجيب القرآن عن هذا السؤال و يعالجه.

أولا : تساءلوا مستغربين و منكرين ابعث الله بشرا رسولا ، و اجابهم الوحي بلى ، أوليس النبي ينبغي ان
ثانيـــا : ان الله هو الذي يشهد على صدق الرسالة و كفى به شهيدا ، و ان عليه الهدى ، امـــا من يضلله

نستوحي من السياق ان معالجة الكفر بالرسالات تكون بالتذكرة بالجزاء الموفور

الذي ينتظر الكفار في يوم القيامة و هكذا نجد القرآن يدفع هنا شبهة الكفار حول البعث ، و يتساءل أو ليس خالق السماوات و الارض قادر على ان يخلق مثلهم.

و بعد ان يبين طبيعة الشح عند الانسان (و لعلها سبب من اسباب الكفر بالرسالات) يبيـن قصة موسى كيف واجه فرعون الذي قال : اني لأظنك يا موسى مسحورا ، فاجابه ان الوحي بصائر ، و قال له : " إني لأظنك يا فرعون مثبورا "و لخصت هذه القصة كثيرا منحقائق سورة الاسراء حيث اراد فرعون استفزاز موسى و قومه فاغرقه الله و من معه جميعا ، و أورث بني إسرائيل ارضهم الى أجل محدود.

بينات من الآيات

من أهم الموانع التي تصد طائفة كبيرة من الناس عن الايمان بالرسالات شبهة عميقة الجذور تقول : لماذا الرسل بشر ، و لعلها تعود الى احساسين شاذين:

أ -استصغار الانسان نفسه مقارنة مع ما في عالم الطبيعة من عجائب خلق الله ، ولذلك يزعم ان الله سبحانه و تعالى أعظم من ان يتصل بالانسان بصورة مباشرة أو يبعث من البشر رسولا!

ب - عدم معرفة الوسيلة التي يتم عبرها اتصال الله باهل الارض ، فهل ينزل من السماء ملك الى الارض ؟ من هو اذن ؟ و كيف يكون ؟

و قبل كل شيء لابد ان نعرف:

ان التعجب نوع من الجهل و انه سيكون حجابا بين المرء و الحقيقة ، و ان الكثير من النـــاس يكذبون بالحقائق لاستغرابهم منها ، و عدم احاطة علمهم بابعادها ، كما يقول ربنا " بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه " كذلك يؤكد ربنا بان سنة الله قضت بان يرسلالرسل من نفس جنس المرسل اليهم ، و لو كان سكان الارض ملائكة إذالبعث منهم رسولا اليهم.

[94][و ما منـــع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رســولا]ان الحجـــاب الذي حجب الناس عن الايمان برسالات الله هو عدم تصديقهم بهذه الحقيقة : ان يبعث الله بشرا رسولا ، و كأن الرسالة مرتبة عالية لا يمكن ان يصل اليها بشر أو كأن اتصال الغيب بالشهود محال.

[95][قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا]لو كان سكان الارض ملائكة لبعثنا اليهم رسولا منهم و من جنسهم ، و هكذا فان الرسول ، اي رسول هو من نفس القوم الذي بعث اليهم قال ربنا سبحانه " : رسولا من انفسهم " " بعث في الاميين رسولا منهم " " و إلى عاد اخاهم هودا " "كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم اخوهم صالح الا تتقون. "

و هناك تفسير آخر لهذه الآية يقول : ان ربنا سبحانه و تعالى يذكر بان من طبيعة الانسان حاجته للتذكير ، لأن مادته ترابية تجذبه نحو الشهوات ، كما ان فيه ومضة روحية ترفعه نحو القيم لذلك فهو بحاجة الى عامل خارجي يقوي شعوره بالومضة الروحية حتى يعلو ، فكانت هذه حاجته الى الرسالة : و لو خلق الله الملائكة كما خلق الانسان من طبيعة ترابية تقوم بالفساد كما قالت الملائكة " اتجعل فيها من يفسد فيها " اذا لبعث الله اليهم رسولا ملكا منهم ، و هذا التفسير يتبناه العلامة الطباطبائي رحمة الله عليه ، و يستدل على ذلك بكلمة " يمشون مطمئنين " دلالة على جاذبية الارض للانسان التي تسبغ على حركته فوق الارض طمأنينة و توازنا و لولاها لصعد في الهواء ، أو لأضطرب في مشيه و حركته.

شهادة الله

[96][قل كفى بالله شهيدا بيني و بينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا]

تلك كانت شبهات تحول بين تصديق الناس للرسالات ، ولكن صدق الرسالات يتجلى عبر عدة مظاهر جعلها الله شواهد على صدق الرسالة ، و كفى بالله شهيدا.

أولا :لقد اودع الله في عقل الانسان مجموعة قيم و تعاليم ترشده الى الحق ، و الرسالات السماوية حين تأتي للبشرية تدعو الانسان الى ذات القيم و التعاليم و هكذا يطمئن الانسان الى صدق تعاليم الرسالة و قيمها ، لانطباقها على القيم و التعاليم التي يحملها فينفسه ، وفي ذلك يقول رسول الله (ص):

"ان لكل حق حقيقة ، و على كل صواب نورا . "

و ذات مرة جاء رجل الى النبي (ص) و قال : يا رسول الله اني اعيش في الصحراء و لا املك من يهديني ولا استطيع ان آتي اليك باستمرار فعظني فأمره رسول الله (ص) ان يدنو منه حتى اذا وصل بمحاذاته و ضع النبي الأكرم (ص) يده على قلب الرجل و قال : " ما أمركبه هذا فأفعله ، و ما نهاك عنه فانته " و هذه شهادة باننا لو تجردنا من الضغوط و الأهواء و العادات و الافكار المسبقة ، لرأينا بوضوح انطباق تعاليم القرآن مع التعاليم التي تكنها عقولنا و فطرتنا.

ثانيا : رغم كل الصعوبات و العراقيل التي وضعها اعداء الرسالة ولا يزالون نجد ان الاسلام قد اجتاح الارض كلها ، و لولا تأييد الله سبحانه للمسلمين في حروب بدر و حنين و الاحزاب و غيرها إذا لاندحر الاسلام و المسلمين منذ البداية ، و لولا نصرته لعباده في حطين وعين جالوت لانطفأت شمعة الاسلام ، و لولا تأييده للمؤمنين في ايران على الشاه لما انتعش الأمل بتحقيق وعد الله " و هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون " و استمرار التأييد الغيبي لدينه دليل على صدق النبي و صدق رسالته ، وما اكثر الشواهد الغيبية ، و الالطاف الخفية و الظاهرة التي انعم الله بها على عباده المؤمنين في جهادهم.

ثالثا :عظم درجة رسول الله (ص) و منزلته الخصيصة عند الله فقد جرب بعض اصحابه كيف كان يشفع

لهم عند الله في تحقيق مسائلهم ، فيستجيب الله لهم ، بل لا تزال الشفاعة الى يومنا هذا ، فالله يستجيب لكل مؤمن اذا توسل اليه بجاه رسوله ، و قد جاء فـي الحديث كتاب (فيض القدير) فيما روى الطبراني في الاوسط عن علي (ع) موقوفا قـال:

"كل دعاء محجوب حتى يصلى على محمد و آل محمد . "

وهناك الكثير من الشواهد التي يوجزها الله سبحانه بقوله : " كفى بالله شهيدا. "

هذا وقد ذهب البعض في تفسيره لهذه الآية " قل كفى بالله شهيدا بيني و بينكم " بانها قطـع للجـــدل و الصراع بين الرسول (ص) و قومه حينما غضب عليهم لعنادهم ، فقال : " كفى بالله شهيدا بيني و بينكم " و هذا تفسير بعيد ، بل هذه شهادة من الله على صدق الرسالة كما فعل الله لأنبيائه السابقين عليهم السلام ، حيث حول نيران نمرود الى برد و سلام على ابراهيم ، و كانت حجة على صدق ابراهيم ، و اغراق فرعون ، و نصر موسى (ع) ، و إحياء الموتى على يد عيسى (ع) و كثير من الحجج التي حدثنا عنها القرآن من هذا القبيل معاجز عاجلة أو آجلة تشهد

على صدق الرسالات.

[97][و من يهد الله فهو المهتد و من يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه]ثم يبين القرآن ان الله هو الهادي الذي يهدي العباد الى الرسالة و الايمان بها ، و سبق ان أوضحنا ان الهداية مرحلة متقدمة من التكامل البشري ، لان الانسان لن يبلغ مرحلة الهداية الا بعد رحلة شاقة ، و لن يصل اليها الضال الذي حجبته المعاصي عن رؤية الحق وأولئك لا ينفعهم احد من أوليائهم شيئا.

[و نحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا و بكما و صما]لانهم لم يستفيدوا من نعم الحواس و العقل ، لذلك سوف يسلبهم الله تلك النعم يوم القيامة ، و هذا جزاء من عطل وظيفة عينيه و اذنيه و لسانه.

[مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا]

كلما ضعفت نار جهنم باعتبارها مادة ، يزودها الله سبحانه بالوقود لتزداد سعيرا -و العياذ بالله - فالعذاب دائم و النار تتجدد ، و لا منقذ لنا من عذابها سوى اخلاق الايمان ، و محض الطاعة ، و انتهاز الفرص و اختلاس لحظات العمر ، لنقضيها في عبادة الله ، وأمامنا فرصة عند كل منعطف في مسيرتنا . فرمضان ربيع المؤمنين ، و الحج معراج الصالحين ، فيجب ان لا نفوت تلك الفرص ، و الحديث الشريف يقول:

"ان من لم يغفر له في شهر رمضان فلا يغفر له الا اذا ادرك عرفات "فلننقذ انفسنا من نار جهنم التي لابد من ورودها كما قال : " وان منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا " فمن استطاع انقاذ نفسه ، و تدرع ضد جهنمبلباس التقوى فقد فاز.

[98][ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا]

فعذاب جهنم الدائم جزاء من يكفر بآيات الله ، لا شفقة و لا عطف عليهم لانهم كفروا ، ان حجب العصبية و حب الذات و اتباع الشهوات تغطي قلوبهم و من دون التخويف الذي يوقظ القلب ، و ينشط فيه العقل و الارادة لا يمكن اختراق تلك الحجب المتراكمة ، و اي تخويف اعمق أثرا من تخويفهم بعذاب جهنم ، هكذا يعالج الكتاب امراض القلب ، و يوفر للانسان افضل فرصة للخلاص من حجب قلبه.

البعث من جديد

[و قالوا أإذا كنا عظاما و رفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا]

و كأنما هذا الاشكال سينقذهم ! ان الله قادر على البعث ، و سيرون العذاب بعد حين ، و حالة الاستغراب و التعجب التي حالت بينهم و بين الايمان بالآخرة لن تفيدهم.

[99][أولم يــروا أن الله الذي خلق السموات و الارض قادر على أن يخلق مثلهم]أولا تكفــي الطبيعـة بكل روعتها و بهائها و ما بها من جبال ، و وديان ، و بحار ، و انهار ، و منظومات ، و مجرات شهادة على قدرة الله سبحانه و .. و .. ؟! و هل خالق كل هذا يعجزه خلق الانسان من العدم ، و ما دام الفرد قد خلق لا من شيء فهل يعجزه ان يعيدخلقه مرة أخرى ؟!

[و جعل لهم أجلا لا ريب فيه]

للانسان اجل لا ريب في ذلك ، و اموره جميعا بيد الله ، بقاؤه ، حياته ، موته ، و حياته من جديد و اذا اخر الله سبحانه عذابهم فانما رحمة بهم ، و تنفيذا لاجل مقدر سلفا ، و لعلهم يرجعون ، و لكنهم بدل ان يشكروا نعمة الله و ينتفعوا بهذه الفرصة الاخيرة التي منحت لهم تراهم يكفرون بالله ، و يكفرون بنعمة الاجل ، بل يتخذون من تأخير الاجل دليلا على عدم العقــاب ، افليس ذلك منتهى الكفران بالنعمة ؟! بلى ، و السؤال لماذا هذا الكفران ؟ و الجواب : لانهم ظلموا انفسهم . و ظلموا الناس ، و تجاوزوا حقوق الله و حقوق الناس.

[فأبى الظالمون إلا كفورا]

كلما ازدادت الجرائم حجبت القلوب عن الايمان فيكفرون ، و هذه فكرة طالما تكررت في القرآن الكريم ، و هناك تجربة شخصية يمكن لاي شخص ان يلاحظها في نفسه فعندما يدفع الشيطان الانسان الى ارتكاب معصية ما تجد قلبه معرضا عن ذكر الله ، و خلال صلاته يكون مشغولالبال ، اما حينما يكون القلب نظيفا فانك تجده متصلا بنور الله سبحانه حتى في غير الصلاة.

] [100]قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق و كان الانسان قتورا [الحاجز الآخر الذي يحجز الانسان عن الايمان هو (البخل) فالانسان مجبول على الشح سواء كان غنيا أو فقيرا ، فلو كان يملك خزائن الله ، و خزائن رحمته التي وسعت كل شيء لقبض يده خشية الانفاق.

لقد تكررت في سورة الاسراء المباركة مثل هذه الآية التي تذكرنا بطبائع الانسان كقوله سبحانه " :و كان الانسان عجولا " (١١) و قوله " و كان الانسانكفورا " (٦٧) و قوله : " و اذا انعمنا على الانسان اعرض و نأى بجانبه و اذا مسه الشر كان جزوعا " (٨٣) و لعل السبب يكمن في ان هذه السورة تبين فوائد الوحي و من اعظم فوائده : شفاء البشر من طبائعه الضعيفة و المنحرفة ، ومن هنا ذكرت السورة ببعضهذه الطباع.

[101][و لقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسئل بني اسرائيل إذ جاءهم]لقد كذبوه لانهم نظروا اليه بمثل نظرتهم الى نبيكم ، فقد كان راعيا ، ذا ملابس بسيطة و حين قال : اني رسول رب العالمين إليكم اتهمه فرعون بالجنون.

[فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا]

يبدو انه زعم ان موسى قد ابتلي بالسحر لانه كان شائعا في مجتمعه ، و لان عواقب هذه الدعوة كانت تضر موسى ، و لا يقدم على مثلها عاقل.

هكذا كان يزعم فرعون ذلك الجبار الكافر بجبار السماوات و الارض سبحانه.

و الواقع ان تحدي انبياء الله لسلطات عصرهم و فساد مجتمعهم كان عظيما و شاملا و جذريا ، الى درجة كانوا يتهمون بالجنون لولا ان كل تصرفاتهم و اقوالهم كانت تفيض بالحكمة و المعرفة ، فلو لم يكونوا متصلين بالغيب ، و واثقين من نصر الله لهم ، و مخلصين لقضيتهم فهل كان تحديهم غير الجنون ، إذا ذات التحدي كان اعظم شهادة على صدق رسالاتهم ، و لعل القرآن ينقل لنا تهم الطغاة للانبياء بالجنون لنعرف هذه الحقيقة.

ولم يكن موسى مسحورا بل كان رسولا ، و علامة رسالته تحديه لسلطة فرعون ، و ارهابه و تضليله لذلك قال:

[102][قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات و الأرض بصائر و إني لأظنك يا فرعون مثبورا]انك هالك يا فرعون فانت تعلم ان الحق معي ، الا ان فرعون ما كان يعلم عن نبوة موسى علم ايمان ، و انما كان يعلم علم حجة ، بمعنى ان الحجة ثبتت عنده ، و لكن لم يؤمن ، و تلك الآيات العظام لا تجري على يد انسان غير نبي لذلك قال ربنا " لقد علمت "يا فرعون ان الآيات التسع و هي : خروج اليد بيضاء من غير سوء و العصا - و السنون - و نقص الثمرات - و الطوفان - و الجراد - و القمل و الضفادع - و الدم انما هي من عند الله و لم تجر على يد انسان عادي.

و قرء " و لقد علمت " بالضم يعني موسى هو الذي علم كما يؤيد ذلك حديث يروى عن الامام علي (ع) يقول : فيما معناه:

"كلا لم يعلم فرعون ان الله بعث موسى بتلك الرسالة ، انما موسى هو الذي علم فهو واثق من أمره " .

و القرآن جعل الكتب السماوية بصائر تساعد الناس على رؤية الحقائق ، و لما كذب فرعــون بتلك الحقائق كلها بصره موسى (ع) بخاتمته " و اني لأظنك يا فرعون مثبورا! "

[103]حينئذ ثارت ثائرة فرعون.

[فأراد أن يستفزهم من الأرض]

حيث اراد ان يزعج موسى (ع) بطرده مع بني اسرائيل ، و نفيهم من البلاد الا ان الله سبحانه و تعالى وقف له بالمرصاد.

[فأغرقناه و من معه جميعا]

[104]و هذا احد معاني شهادة الله على صدق رسالات الانبياء ، فقد أخذ الله سبحانه و تعالى فرعون و ملأه ، و نبذهم في اليم فابتلعهم الماء كما يبتلع النهر الحصاة.

[و قلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا]قالوا في معنى اللفيف انه بمعنى متلاحم بحيث يلف بعضه ببعض ، فلا يميز البعض عن الآخر لشدة اندكاكهم ببعضهم.

و هكذا ذهب فرعون و بقي منه عبرة للعالمين!

و بالحق انزلناه و بالحق نزل

هدى من الآيات

هذا هو الكتاب ، و تلك هي رسالات الله التي فيه ، انه الحق الذي انزله الله و سوف يحفظه ، و اما الرسول فان هو الا مبشر و نذير ، و انما نزله على دفعات ، لانه ابلغ اثرا حيث يستوعبه الناس و ان للقرآن فئة من الناس يؤمنون به ايما ايمانا ، فهم يخرون للاذقان ساجدين كلما تليت عليهم آياته ، و يسبحون الله و يثقون بوعده ، و يسجدون له و يبكون و يزيدهم القرآن خشوعا.

ان هؤلاء الذين يصوغهم الوحي مثل حي للقرآن و شهادة مبينة على صدقه ، و على انه من الله أوليس القرآن يهدي الناس المؤمنين الى ربهم و يأمرهم بدعائه و باسمائه الحسنى ، يأمرهم بالصلاة دون الجهر من القول و يختم القرآن سورة الاسراء المباركة بحمد الله ، كمابدأها بتسبيحه ، ذلك الله الواحد الاحد ، الذي لم يتخذ ولدا و لم يكن له شريك في الملك ، و لم يكن له ولي من الذل.

التسبيح و الحمد و التكبير هو نسب الله و صلة العبد به سبحانه و تعالى.

بينات من الآيات

[105]ما هو محتوى الرسالات ؟ انه الحق الذي انزل الله به القرآن ، و انه الحق الذي بقي القرآن عليه دون ان تمد اليه يد التحريف ، و لكن ما هو الحق ؟

- 1و جود الكون و الانسان حق.

- 2قوانين الطبيعة ، تلك السنن الالهية التي اجراها الله في كل شيء حق.

- 3عقل البشر الذي اودعه الله قلب كل انسان و به يستوعب واقعيات الاشياء حق.

و القرآن حقيقة واقعة و قد نزل ليعكس الحقائق و يهدي الى السنن و يثير العقول كمحتواه حق لا ريب فيه.

[و بالحق أنزلناه و بالحق نزل]

لقد قدر اللــه ان ينزله بالحق (و بالحق انزلناه) ، و تحقق هذا التقدير (و بالحق نزل) و ان محتواه حق (و بالحق انزلناه) و ثمراته حق (و بالحق نزل) و ان الحق الــذي انزله الله به (و بالحق انزلناه) سوف يستمر (و بالحق نزل) . أو لم يقل ربنا : " انا نحن نزلنا الذكر و انا له لحافظون " ، فلم و لن يقدر احد على تغييره ، هكذا ينبغي ان تفهم هاتان الكلمتان.

قال بعض المفسرين : ان نزول القرآن كان مصاحبا للحق ، كما ان الحق كان مصاحبا للقرآن ، و نتساءل ما هو معنى الباء في قوله بالحق ؟

الباء :حرف جر للاستعانة فان قلت : اكتب بالقلم ، اي استعن بالقلم في الكتابة و هذا المعنى يصح في الآية ، اذ ان الحق محتوى القرآن و جوهره بل ان كل آية فيه دليل حق ، لان القرآن جاء لاحقاق الحق كله.

قال تعالى : " و يريد الله ان يحق الحق بكلماته و يقطع دابر الكافرين " (الانفال / ٧)[و ما أرسلناك إلا مبشرا و نذيرا]

الرسول بالنسبة الى من ارسل اليهم لا يعدوا ان يكون مبشرا لهم بالخير ان هم آمنوا ، و نذيرا لهم بالعذاب ان هم كفروا و لم يكن الرسول كفيلا أو وكيلا عليهم و لم يؤت صلاحية تغيير القرآن ، و قد عصمه الله من ان يغير فيه شيئا.

[106][و قرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث]للقرآن عدة اسماء فمرة يقال : انه كتاب لانه يكتب ، و مرة يقال : انه فرقان لانه يفرق بين الحق و الباطل ، و مرة يقال : انه ذكر لانه يذكر ، و هكذا يسمى القرآن قرآنا لانه يقرأ ، و هكذا تختلف المسميات . و المسمى واحد و لعل ذلك من أجل الا يعتقد الانسان ان أهمية القرآن تكمن في كتابته أو في قراءته ، و لكن أهمية القرآن تكمن في جوهره . و ما هذه الاسماء الا تلخيص لاهداف القرآن و اشارة اليها.

(فرقناه) اي فصلناه و فرقناه " على مكث : "اي بتأن و تؤده ، بين فترة و اخرى حتى يستوعبه الناس.

[و نزلناه تنزيلا]

في الآيتين السابقتين قال الله كلمة واحدة باختلاف بسيط ، فقال مرة : انزلناه ،و مرة نزلناه ، فما هو الفرق بين الكلمتين ؟

الفرق هو ان كلمة (انزلناه) اي انزلناه جملة واحدة و (نزلناه) اي على اقساط و هذا يؤكد ما قيل : ان القرآن نزل مرتين على قلب الرسول (ص) مرة في ليلة القدر ، و المرة الاخرى خلال ثلاث و عشرين سنة حسب المناسبات و الظروف لكي تترسخ آياته و تعاليمه في ضمير المؤمنين و في واقع الحياة الأجتماعية.

[108 - 107]ان النفس العالمة لا تستطيع ان تصبر امام النور الباهر المنبعث من القرآن ، و يخر صاحبها سجودا.

و لكن من هم الذين اوتوا العلم ؟

الذين أوتوا العلم هم احد اثنين:

- 1اما أولئك الذين اعطاهم الله العلم من أهل الكتاب عن طريق الرسالات الالهية السابقة ، و عندما سمعوا الآيات القرآنية استوعبوها و رأوا ان هذه الآيات مصدقة لما اوتوه ، بل هي اعظم فسجدوا للحق و خضعوا له.

- 2و اما ان يكونوا من العرب الذين غمرت نفوسهم بزخات العلم ، فكانوا غير اولئك الجهال الذين يبحثون عن الامور التافهة لذلك فهم عندما يستمعون الى صوت الحق ، و يرون النور الباهر يؤمنون به ، و يستجيبون لندائه.

كان اويس القرني يعيش في الصحراء عيشة العز و الشرف ، فعندما سمع بالرسول و بقرآنه ، آمن به و بقرآنه من دون ان يراه فصار بذلك من المقربين الى رسول الله (ص) ، و اسلم و احسن اسلامه فكان يقضي نهاره بالصوم و ليله بالعبادة ، و مثل اويس ابوذر و المقدادو كثيرون آخرون.

[قل آمنوا به أو لا تؤمنوا]

لا يهمنا ان تؤمنوا أو لا تؤمنوا ، فلسنا محتاجين الى ايمانكم ، اذا كان الله يريد ان يضلكم ، فهناك من يؤمن بالقرآن ايمانا عميقا ، وهم اهل المعرفة.

[إن الذين أوتوا العلم من قبله]

أي أوتوا العلم من قبل نزول القرآن.

[إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا]

الخرور : هو الوقوع السريع.

خروا بسرعة على وجوههم ، و لعلهم نسوا انفسهم امام القرآن و وقعوا على اذقانهم و لم يقعوا على جباههم ، لانهم وقعوا من دون اختيار ، فوقعوا على اذقانهم ثم سجدوا بوجوههم.

[و يقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا]

يبدو من هـــذه الآيـــة انهم كانوا يتوقعون شيئا و قد تحقق في القرآن أو انهم عبروا - بهذه الكلمة - عن غاية ايمانهم ، و منتهى يقينهم حيث نزهوا الله عن خلف الوعد ، و أكدوا ان وعده في الكتاب بنصر المؤمنين في الدنيا ، و حسن جزائهم في الآخرة حق . و سيتحقق اكيدا . و هذا احد معاني الحق الذي جاء في الآية السابقة " و بالحق انزلناه و بالحق نزل. "

ان مخففة بمعنى " أن و عد ربنا لمفعولا . "

[109][و يخرون للأذقان يبكون و يزيدهم خشوعا]

يبدو ان للانسان امام الحالات الغريبة ، حالتين متدرجتين:

الاولى : الانصعاق و الدهشة .

الثانية : الانبهار الواعي.

و لعل الآية التالية تشير الى هاتين الحالتين حيث يقول سبحانه " : الله انزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم و قلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي من يشاء و من يضلل الله فماله من هاد " (الزمر / ٢٣).

في البدء يرتجف الانسان و يصعق ، ثم يستوعب الصعقة و هكذا المؤمنون فهم يخرون أولا لقوة النور ، و ما يلبثون ان يتعودوا على قوة النور ، فيخرون خشوعا لله سبحانه.

توحيد الله

[110][قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى]

كتب العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان بحثا مطولا في هذه الآية فقال ما محتواه : ان البوذيين و المجوس و غيرهم من اتباع الاديان ، و من تأسى بهم يعتقدون ان لله مظهرا و جوهرا ، و ان مظهر الله يختلف عن جوهره ، فمظهره هي اسماؤه و هي منفصلة عن جوهره ، أو بمعنى آخر منفصلة عن ذاته ، و يعتقدون بان الله اجل من ان يسمى بهذه الاسماء ، و اسماؤه انما هي الملائكة ، فكل ملك من الملائكة يحمل صفة من صفات الله ، فاحد الملائكة يمثل العلم ، و آخر يمثل العزة ، و آخر يمثل القدرة ، فهم يعبدون الملائكة و يجسمونها بتجسيمات مختلفة ، و بالتالي فهم لا يعبدونها الا

لتقربهم الى الله زلفى ، فصنعوا لله ثلاثمائة و ستين إلها ، كل إله يختلف عن الآخر ، فجمال الله يختلف عن عمله و علمه يختلف عن جلاله ، و جلاله يختلف عن قدرته و هكذا..

هذه هي الوثنية ، أما عقيدة التوحيد فترفض ذلك و ترى ان اسماء الله تشير الى الحق الواحد فالله رحيم عزيز ، و بيد ان العزة و الرحمة تشيران الى ذات واحد ، و هكذا جبار و كريم ، و رؤوف .. الخ ، و هذه الاسماء مجرد آيات تشير اليه سبحانه فعندما نقول : سميعبصير ، فهو سميع بصير بدون آلة سمع أو بصر ، و قد قال الشاعر:

عباراتنا شتى و حسنك واحد و كل الى ذلك الجمال يشيرقال كفار قريش عن الرسول (ص) مرة : انظروا الى هذا الصابئي يأمرنا ان نعبد إلها واحدا و هو يعبد إلهين ، يقول :الله ، الرحمن ، فجاءت الآية لتقول : سواء قلت الله أو الرحمن أو الرحيم او الواحد أو القهار فان ذلك يدل الى شيء واحد ، و ان الاسماء الحسنى كلها لله و هي ليست بعيدة عنه - فهي صفات له ، و هي غير ذاته.

جاء في الحديث عند سؤال هشام بن الحكم الامام الصادق (ع) عن اشتقاق كلمة (الله (فقال له : " يا هشام ! " الله " مشتق من " اله " و " إله " يقتضي مألوها ، و الاسم غير المسمى فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئا ، و من عبد الاسم و المعنى فقد كفر و عبد اثنين ، و من عبد المعنى دون الاسم فذلك التوحيد ، ، افهمت يا هشام ؟ " قال : فقلت : زدني فقال : " ان لله تبارك و تعالى تسعة و تسعين إسما ، فلو كان الاسم هو المسمى لكان كل اسم منها الها ، و لكنالله معنى يدل عليه هذه الاسماء ، و كلها غيره ، يا هشام ! الخبز اسم للمأكول ، و الماء اسم للمشروب ، و الثوب اسم للملبوس ، و النار اسم للمحروق ، افهمت يا هشام فهما تدفع به و تناضل اعداءنا ، و المتخذين مع الله عز وجل غيره ؟ " قلت : نعمقال : فقال " نفعك الله به و ثبتك " قال هشام : فو الله ما قهرني احد في علم التوحيد حتى قمت مقامي هذا](1) "و لا تجهر بصلاتك و لا تخافت بها و ابتغ بين ذلك سبيلا

[جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق (ع):

"الجهر بها رفع الصوت ، و التخافت بها ما لم تسمع نفسك ، و اقرأ بين ذلك " (٢)و لعل الآية تشير الى فكرة هامة هي انه لا ينبغي الصراخ في الصلاة لان الصراخ ليس من آداب الدعاء و لا يجوز الاخفات الى درجة بعيدة صحيح ان الله بعيد عنك بعلوه و جلاله الا انه قريب منك بلطفه و علمه ، و كما جاء في الدعاء (الذي بعد فلا يرى ، و قرب فشهدالنجوى) و لذلك شرع في الصلوات الاخفات في الصلاة النهارية ، و الجهر في الصلاة الليلية.

الله يتجلى في كتابه

[111]لم تحر البشرية في مسألة كحيرتها في الرب ، لان عقل الانسان محدود فبالرغم من ان الله علمه الاسماء كلها ، قصر عن معرفة كنه وجود الله سبحانه ، إذ ان علمه و عقله ، و كل وجوده أقل من ان يحيط برب السماوات و الارض ، فكيف يحيط بكنهه و هو لم يحط بنفسهعلما . بل الاحاطة بكنه الطبيعة من حوله الا أن الله سبحانه ما ترك الانسان سادرا في حياته تلك ، فقد عرفه نفسه و تجلى له مرتين : مرة في آفاق العالم و مرة في نفسه عبر الذكر الحكيم . و آيات الذكر تذكرنا بآيات الطبيعة.

(1)البحار / ج ٤ - ص ١٥٨

(2)نور الثقلين / ج ٣ - ص 234

فنحن اذن أحوج ما نكون الى القرآن لكي نعرف ربنا ، و نعرف اسماءه الحسنى . و ان معرفة الله سبحانه اعظم فائدة يستفيدها الانسان من خلال قراءته للقرآن ، لو قرأها من دون حجاب بينه وبينها ، و هي بالتالي اعظم شهادة على صدق رسالات الرب.

جاء في الحديث المأثور:

"ان الله تجلى في كتابه لعباده و لكن الناس لا يبصرون "فهذا القرآن أنزل الله فيه ما لو نزل على جبل لفته فتا ، فقال : " لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله * و تلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) " الحشر / ٢٢).

هذا هو حال الجبل الاصم من عبر القرآن و دروسه فكيف بالانسان.

[و قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا]

الحمد لله على انه لم يتخذ ولدا ، لعل أحد معاني هذه الكلمة انه سبحانه لم يفضل عنصرا على عنصر و لا جوهرا على جوهر الا بالتقوى ، مما اعطى للجميع فرصة التعالي اليه ، و الكمال بفضله ، و الآية تفضح ما يعتقده الوثنيون من ان لله اولادا هم الملائكة.

جاء في الحديث:

"الحمد لله الذي لم يلد فيورث و لم يولد فيشارك. "

و حيث نفي الولد ، نفي الشرك لان من لم يلد صمد الا جزاء ، فكيف يكون مولودا و من لم يكن مولودا لا يكون شبيها بشيء ، فلا كفو له و لا نه لا شريك له لاولي له من الذي ينصره لانه غني بذاته فكيف يستعين بغيره..

[و لم يكن له شريك في الملك و لم يكن له ولي من الذل]قيل ان هذه الآية جاءت ردا على اليهود و النصارى حين قالوا : اتخذ الله ولدا ، و على مشركي العرب حيث قالوا : لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك ، و على الصابئين و المجوس حين قالوا : لولا اولياء الله لذل الله . (١)و قد جاء في الدعاء المأثور) :

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا فيكون موروثا ، و لم يكن له شريك في الملك فيضاده فيما ابتدع ، ولا ولي من الذل فيرفده فيما صنع) . (٢)لــم يكن عند الله شريك فيضاده أو يساعده ، لانه لو كان له شريك يضاده لتزعزع النظام ، و لو كان له شريك يساعده فالاول قوي و الآخر ضعيف فما هي حاجتنا الى الضعيف.

في الحديث المأثور عن هشام بن الحكم في حديث الزنديق الذي اتى ابا عبد الله (ع) و كان من قول ابي عبد الله (ع) " لا يخلوا قولك انهما اثنان من ان يكونا قديمين قويين ، أو يكونا ضعيفين أو يكون احدهما قويا و الآخر ضعيفا ، فان كانا قويين فلم لا يدفع كل منهما صاحبه و ينفرد بالتدبير ، و ان زعمت ان احدهما قوي و الآخر ضعيف ، ثبت انه واحد كما تقول للعجز الظاهر في الثاني ، فان قلت : انهما اثنان لم يخل من ان يكونــا متفقين من كــل جهة أو متفرقين من كل جهة فلما رأينا الخلق منتظما و الفلك جاريا ، و التدبير واحدا ، و الليل و النهار و الشمس و القمر ، دل صحة الأمر و التدبير و ائتلاف الأمر على ان المدبر واحد ثم يلزمك ان(١ (مجمع البيان.

(2)دعاء عرفة للامام الحسين (ع) مفاتيح الجنان.

ادعيت اثنين فرجة ما بينهما حتى يكونا اثنين ، فصارت الفرجة ثالثا بينهما قديما معهما فيلزمك ثلاثة فان ادعيت ثلاثة لزمك ما قلت في الاثنين ، حتى يكون بينهم فرجة فيكونوا خمسة ثم يتناهى في العدد الى مالا نهاية له في الكثرة (1) . "ان ما يتوهمه المتوهمون هو مخلوق لهم ، مردود عليهم ، فالله لا يوصف بتمثيل ولا يشبــه بنظير فبدل ان يفكروا في ذات الله يجب عليهم ان يتفكروا في خلقه الذي يقودهم اليــه.

[و كبره تكبيرا]

ليس من الصحيح ان نقول ان الله اكبر من كل شيء ، فهل هناك شيء يحتمل ان يكون اكبر منه !؟ و انما نقول هذا الشيء اكبر من هذا الشيء لوجود تقارن بينهما ، و لكن الاصح ان الله اكبر من ان يوصف ، لا ان تقول الله اكبر من الشمس فهناك اذ ليست هنالك مقارنة بينهما ، كيف تضع الحقير المخلوق بجانب الخالق الكبير ؟! و لكن يمكنك ان تقول : ان الشمس اكبر من القمر.

جاء في الحديث عن ابي عبد الله (ع) قال لجميع بن عمير:

"اي شيء الله اكبر " ؟

فقلت :الله اكبر من كل شيء ، فقال : " و كان ثم شيء فيكون اكبر منه " ؟ فقلت : فما هو ؟ قال : " اكبر من ان يوصف " (٢) و جاء في حديث آخر : عن ابي عبد الله (ع) قــال رجل عنده : الله اكبر فقال : الله اكبر من اي شيء ؟ فقال من كل شيءفقال : حددته فقال الرجل : كيف اقول ؟ قال : قل الله اكبر من ان يوصف (٣).

(1)نور الثقلين / ج ٣ - ص 238

(3) (2)نور الثقلين / ج ٣ -ص ٢٣٩

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن الامام الحسين (ع) قال:

"من قرأ سورة الكهف في كل ليلة جمعة لم يمت إلا شهيدا ، و يبعثه الله من الشهداء ، و وقف يوم القيامة مع الشهداء "نور الثقلين / ص ٢٤٥ - ج ٣

عن الرسول الاكرم (ص) قال:

"من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظا لم تضره فتنة الدجال ، و من قرأ السورة كلها دخل الجنة. "

مجمع البيان / ص ٤٤٧ - ج ٣

الأسم

معلوم ان اسم (الكهف) أخذ من قصة تاريخية وقعت بعد مبعث عيسى بن مريم (عليه السلام) و كانت شائعة بين اهل الكتاب ، بل في اوساط الجزيرة العربية ، و لأهمية القصة سميت السورة بالكهف الذي هو رمز حماية الله للأنسان من الأخطار اذا التجأ إليه.

الإطار العام

تمهيد

نور الشمس يغمر الارض فيضيء الأشياء و الأشخاص ، و يظهر الألوان ، ثم يقف دوره عند هذا الحد ليبدأ دور العين بعملية الرؤية و الملاحظة ، و كذلك القرآن يؤدي دوره عندما ينشر الهداية و يبين الحقائق ، و بعد ذلك يبدأ عمل القلب و البصيرة في ادراك هذه الحقائقو استيعابها ، و اذا اقفل الانسان بصيرته و قلبه فأنه لن ينتفع بهدى القرآن و لن يعرف الحقائق ، تماما كمن يغمض عينيه فأنه لا يرى الأشياء رغم سطوع نور الشمس عليها و وضوحها.

و هكذا فأن القرآن لا يلغي دور العقل و التفكر ، لكن العقل من المتعذر عليه ان يكشف الحقيقة بدون القرآن ، كالعين التي يستحيل ان ترى الأشياء بدون الضوء ، و هكذا التفكر لا يلغي دور القرآن ، كما ان العين لا تلغي دور الضوء.

و بناء على ذلك فلا يجوز للأنسان أن يقول : ما دام القرآن موجودا فلا حاجة لأن اعقل و اتفكر و اتبصر ، و الا كان مثله كمثل من يترك النظر و الملاحظة و يضع حجابا على عينيه انطلاقا من ان النور موجود ، و الأرض مضاءة ، و الألوان ظاهرة ، ان وضوح الأشياء و اضاءتها يساعد على الرؤية ، و ليس هو الرؤية بذاتها .

مفردات قرآنية

و لذلك نرى القرآن يصف نفسه بالنور و الذكر و البصيرة و الهدى ، فنجد كلمة النور في آيات مثل:

" - 1 نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء . "

" - 2 انا ارسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا * و داعيا إلى الله و سراجا منيرا " - 3"فالذين آمنوا به و عزروه و نصروه و اتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون. "

و كلمة الذكر ترد في القرآن بصيغ مختلفة مثل:

" - 1 انا نحن نزلنا الذكر و انا له لحافظون "٣ - " و يبين الله آياته للناس لعلهم يتذكرون "٣ - " ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع و هو شهيد "٤ - " كلا انها تذكرة"

و هي تعني ان عقل الانسان يعرف الحقيقة و لكنه ينساها ، و كذلك قلبه يشعر بها و لكنه يغفل عنها ، فيحتاج الانسان الى من يذكره و يلفت انتباهه اليها.

و كلمة البصيرة تعبر عن الحقيقة البينة التي يبصر بها الشيء على ما هو به عليها في المجمع.

مجمع البيان / ج ٤ - ص ٣٤٥

"يا ايها الناس قد جاءكم بصائر من ربكم فمن ابصر فلنفسه "و مجموع البصائر التي تفضل الله سبحانه بها على عباده تمثل الهدى و هو نور القلب و العقل.

" - 1 فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون "٣ " - ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء و هدى و رحمة و بشرى للمسلمين "و هذه الصفات لو تدبرنا فيها قليلا لراينا انها تعني الحقيقة التي تساعد العقل على التفكر ، و القلب على التدبر ، و ليس ما يلغيها و يحل محلها.

اتجاه خاطئ

و اذا تثبتت الفكرة و توضحت ، فلابد ان ندين الاتجاه الخاطئ في التفسير سابقا وهو : تحـويل القرآن الى شيء بديل عن التفكير او العقل ، بينما القرآن هو طريق الفكر و العقـل ، و الذي يجعل القرآن بديلا عن الفكر هو كمن يريد ان يجعل النظارة بديلا عن العين ،او النور بديلا عن الرؤية ، او كالذي يجعل الارقام في الرياضيات بديلا عن الحقائق التي وراءها.

التفسير و التدبر

و لعل هذا هو الفرق جليا بين كلمتي : التفسير و التدبر و هكذا الفرق بين كلمتي التفسير و التأويل.

فالتفسير هو : شرح و توضيح الآيات القرآنية ذاتها فيما يرتبط بالقرآن ذاته ، حروفه و كلماته و جمله و آياته ، و سياق المجموعة التوجيهية في القرآن و ارتباط السور مع بعضها.

بينما التدبر شيء آخر ، و هو ما دعى القرآن الى ان يكون وسيلة لمعرفة التأويل او النهايات و النتائج الواقعة لآياته ، و الكلمة مشتقة من (الدبر) و هو مؤخرة الشيء ، و هذا يوحي بأن التدبر هو عدم الوقوف عند ظواهر المعاني و الحوادث ، بل محاولة معرفة ماورائها.

قال الطبرسي (قدس الله روحه) التدبر : النظر في عواقب الأمور.

مجمع البيان / ج ٣ - ص ٨١

و عاقبة الأمر : هي ما يؤول اليه الأمر ، و هو تأويله.

قال الله سبحانه و تعالى : " هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق " (الاعراف / ٥٣)و قال في قصة يوسف " :قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله " . (يوسف / ٣٧ (فتأويل الأنذار ما تحقق ما انذر به واقعا و تأويل الرؤيا تحولها الى حقيقة واقعة ، و يبدو ان التدبر هو البحث عن التأويل.

و لهذه الكلمة عدة أبعاد:

البعد الأول

هو التفكير منذ البداية في آخر الأمر و مآله ، فالقرآن عندما يقول الظلم ظلمات و عاقبته خزي في الدنيا

و عذاب في الآخرة ، فلا نتوقف عند ذلك و انما نأخذ هذه المعلومة شمعة و نذهب الى الواقع الخارجي ، نذهب الى الحياة و نفتش عن ظلم ثم نجعل تلك الشمعـــة عند ذلك الظلم الذي يأخذ مجراه عمليا ، و نتحرك معه الى ان نرى نتيجته النهائيــة.

و عندما يحدثنا القرآن عن قوم عاد و كيف انهم بطشوا بطش الجبارين ، و بالتالي انتهـــى مصيرهم الى الدمار ، فعلينا ان لا نقرأ ذلك قصة و نستغني بها عن التفكير ، و انما نحمل تلك القصة مصباحا وهاجا بأيدينا ، ثم نبحث في الحضارة المادية ، و عن طريق هذا المصباح نعرف مصيرها في المستقبل و الى اين تنتهي عاقبتها .

البعد الثاني

ينبع من ذات كلمة (التدبر) و هي من الصيغ التي تنطوي على الاشارة الى بذل المجهود في الأمر ، و الذي يستخدم الانسان فيه طاقاته ، فكلمة تصرف غير كلمة صرف اذ الأولى تعني السيطرة على الشيء ، و محاولة صرفه بقوة او بجهد ، كذلك التحدث يعني استخدام الجهد في الحديث ، و هكذا فأن التدبر يعني بذل الجهد في التفكير للوصول الى نهايات الأمور ، و هنا نصل مرة اخرى الى ذات الحقيقة و هي ان القرآن ليس بديلا عن جهد الانسان.

البعد الثالث

هو ان كلمة التدبر مرتبطة بالواقع الخارجي ، فبينما التفسير يرتبط بذات الآيات حيث نكتشف معنى الآية الكريمة عن طريق تفسير الآيات ببعضها ، و معرفة معاني المفردات من المراجع اللغوية ، و ربط الجمل ببعضها ، و الاستفادة من السياق ، و استخراج معنى الكلمة من مقارنتها بمفردات مماثلة جاءت في آيات اخرى من القرآن الحكيم ، و تفسير الآيات بالروايات و الأحاديث الشريفة و بالاستفادة من العلم الحديث.

فاننا في التدبر أو التأويل ، و بعد انتهاء عملية التفسير ، و معرفة الآية معرفة ذاتية ، فاننا نحمل الآية القرآنية الى الواقع الخارجي ، و نبحث عن انطباقها على الناس و الأشياء و الأحداث المتغيرة.

فإذا جـاء فـي القرآن كلمات مثل : الذين آمنوا ، الذين كفروا ، المنافقون ، المستكبرون ، المستضعفون ... فينبغي علينا ان نحاول تحديدهم و تشخيصهم واقعيا ، و لا نكتفي بمعرفة معاني هذه الكلمات و مدلولاتها اللغوية فقط.

و اذا قرأنا عن مجتمعات مثل : عاد ، ثمود ، قوم لوط ، اصحاب الايكة ، اصحاب موسى)ع) اصحاب محمد (ص) فيجب ان نبحث عمن يمثلهم في واقعنا الحاضر الذي نعيشه ، فمن الذي يتبع عليا و الحسين (عليهما السلام) اليوم ؟ و من الذي يمثل دور معاوية و يزيد ؟ و هكذا.

فالتدبر هو : البحث عمن يمثل دور القصص و الآيات القرآنية في الواقع الخارجي ، و بالتالي معرفة معاني الأشياء عمليا و محاولة تحسسها و الأقتراب منها.

و التدبر بحاجة الى جهد فكري و آخر جسدي ، فلا يمكننا ان نتدبر و نحن نغلق الأبواب على انفسنا و ننفصل عن الواقع ، و اذا اردنا ان نتدبر فعلينا ان ندخل في حياة المجتمع و نعرف خصائصه و مميزاته ، و ندرس طبيعته ، ثم بعد ذلك نرجع الى القرآن و نسأله : ماذا نسمي مجتمعا هذه ميزاته و خصائصه ، و تلك سلبياته و ايجابياته ؟ هل هو مجتمع لوط او شعيب او ثمود او غيرهم ؟ و المطلوب من الانسان في دراسته للقرآن التفسير ثم التدبر و التأويل بمعناها المذكور آنفا.

التدبر والمسلمون في العصر الحاضر

لقد توقف المسلمون اليوم عند القرآن ، كان القرآن منطلقا فجلسوا عند المنطلق ، و كان مطارا يجب ان يقلعوا بواسطته فمكثوا في المطار ، و كان مصباحا يضيء العالم فأكتفوا بجعله زينة ، و كفوا عن الاستضاءة بنوره في دروب الحياة المظلمة.

انهم الغوا دور افكارهم و عقولهم ، و بذلك الغي التدبر من القرآن ، فسد باب عظيم من ابوابه التي أمرنا الله بدخولها ، اننا لا نجد في القرآن الحكيم آية تشير الى التفسير بينما توجد عدة آيات حول ضرورة

التدبر.

" - 1 افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها "٢ " - كتاب انزلناه مبارك ليدبروا آياته و ليتذكر اولو الالباب "و عشرات الآيات تأمرنا بالتفكر ، والسير ، و الحركة ، و التذكر ، وكلما يحرك طاقات الانسان نفسه.

و هنا يكمن سر الغموض في فهم القرآن لدى اغلب المسلمين لأن عملية التأويل و التفسير متكاملتان و التفسير اذا دعم بالتأويل و التطبيق فأنه يصبح اكثر وضوحا و يمكن اكتشاف خفاياه بصورة افضل .

زينة الحياة و الهدى

ان القرآن الحكيم يتابع في سورة الكهف سلسلتين من القضايا:

الأولى : عن زينة الحياة الدنيا ، و موقف الاسلام منها.

و الثانية : عن القضايا التي تتصل بالهدى و العلم و المعرفة.

و لا ريب ان بين هاتين السلسلتين علاقات هامة ، اذ ان الانسان الذي يتسلح بالهدى و العلم يتخذ موقفا ايجابيا و متساميا من زينة الحياة الدنيا ، اما ذلك الذي يفقد هذا السلاح ، فان موقفه من زينة الحياة الدنيا و متاعها الزائل هو موقف الأتباع المطلق و الاستسلام التام.

و الواقع ان هذا من مظاهر اعجاز القرآن ، و بلوغه في البلاغة المنتهى ، حيث ان آياته الكريمة تتبع عدة خطوط متوازية و متناسبة تتظافر على توجيه القلب البشري الى قضية جوهرية واحدة ، الا ان السلسلة الاولى كما يبدو هي المحور في آيات هذه السورة حيث تتحدث سورة الكهف عن الرؤية الاسلامية الى زينة الحياة ، و كيف ينبغي على الانسان ان يتحرر من ضغوط زينة الحياة و حب الدنيا و ينظر الى الحياة نظرة موضوعية قوامها معرفة عاقبة الحياة ، و العلاقة الوثيقة بين زينة الحياة الدنيا و التمتع بها و بين عمل الانسان.

فنجد في هذه السورة قصة اصحاب الكهف و الرقيم الذين تحرروا من حب الجاه الذي كانوا فيه ، و استطاعت ارادتهم السامية ان تقلع بهم من قاع الحياة المادية الى سماء الحقيقة و القيم ، و نجد في هذه السورة ايضا قصة معاكسة لذلك ، و هي قصة صاحب الجنة التي دخلهاو زعم انه خالد فيها ، و كلما نصحه الناصح الأمين و قال : ان هذه الجنة انما هي بأذن الله ، و لولا ان تقول ما شاء الله حين تدخل جنتك ، فانهاسوف لا تنفعك و لكنه لم يقبل هذه النصيحة ، و دخل جنته و هو ظالم لنفسه و قال : ما اظن ان تبيد هذه ابدا ، الى ان انتهيت حياته و جنته جميعا الى الفساد و التلف.

و هناك مثلا عن واقع ذي القرنين لأولئك الذين بلغوا جاها عظيما و ملكا كبيرا ، و لكنهم رفضوا الخضوع لضغوط الجاه و زينة الملك.

و تعطينا السورة الكريمة في اطارها العام نظرة شمولية الى موقف الاسلام من زينة الحياة الدنيا ، اما القسم الأول منها فأنه يلقي نظرة عامة على موضوعات السورة كعادة القرآن في بدايات السور التي تتميز بحسن المستهل ، حيث انها تلقي الضوء على اطار السورة و مجمل الموضوعات التي تبحثها.

حيث تذكر آيات هذا الدرس (١ - ٨) بأن القرآن كتاب هداية ، و ان الهداية هي طريق الانسان المستقيم الى نعم الله.

و تحدثت كذلك عن الحوافز التي تدفع الانسان الى الالتزام بهدى الله و منها الأنذار و التبشير.

و اشارت الى أخطار الشرك بنسبة الولد الى الله سبحانه و تعالى عما يشركون ثم اشارت الى ان على الرسول أو القائد الذي يقوم مقامه ، واجب التبليغ و بيان الحقائق ، و ليس له ان يقتل نفسه غما وكمدا ، اذا لم يستجب الناس لهدى الله.

و اخيرا بينت الرؤية الاسلامية لزينة الحياة الدنيا ، و متاعها ، بأنها مادة للابتلاء و الإمتحـان الإلهي

بالنسبة للبشر و انها بالتالي زائلة ، لان الأرض سوف تصبح صعيدا جــرزا.

ثــم تحدثـت الآيـات من (٩ - ١٦) عن وجوب ملاحظة الانسان لسنن الله في الكون ، فيسلم لحكم الله مهما كانت الحوادث التي يشاهدها او يسمعها بالغةالغرابة عنده و جديدة عليه و الثورة على الظلم هي احدى سنن الله في الحياة ، لان الله يأمر بالعدل و هو قائم بالقسط . كما بينت الآيات اسلوب الثورة و هو : ان يستجيب الانسان لإلهام فطرته ، و يفجر الثورة على كل ألوان الظلم ابتداء من نفسه ، و يعتزل مجتمع الشرك و الجاهلية ، ثم يأتيه تأييد الله الذي يهديه الى الوسائل المادية و المعنوية للإنتصار.

ثم تحدثت الآيات من (١٧ - ٢٠) عن الألطاف الإلهية و النفحات الربانية التي يتعرض لها الذين يقومون لله و بأسم الله ، الى الحد الذي قد يوقف الله سبحانه معه بعض السنن الطبيعية او يغيرها لمصلحتهم ، ثم اشارت الى سلاح هام يعطيه الله لأوليائه و هو سلاح الرعب ، و تعرضت الآيات لذكر بعض الصفات الأخلاقية الثورية ، كما بينت ان أول مرحلة من مراحل العلم بالنسبة للانسان هو الاعتراف بالجهل ، ثم اقتباس العلم من منبعه الحقيقي و هو : الله العليم الحكيم.

ثم تابعت الآيات من (٢١ - ٢٦) عن دور حادثة أهل الكهف كواحدة من الظواهر التي تبيــن للناس صدق وعد الله و ترفع من نفوسهم كل ريب حول قضية الساعة و المبعث ، ثم اشارت بطريقة ايحائية الى موقف القرآن من زيارة قبور الأولياء و الصالحين ثم بينت ان الإسلام يؤيد المنهج العلمي القائم على الحقائق لا على الرجم بالغيب و الجدليات العميقة ، و ان القرآن يدعوا الى المرونة و التكيف السليم مع الحياة و يرفض البرامج الجامدة و الأفكار المتحجرة.

و تحدثت الآيات من (٢٧ - ٣١) عن الضمانات الوقائية للانسان تجاه ضغوط زينة الحياة ، و هي تلاوة القرآن و الأتصال الدائم بالله ، و الانتماء الى التجمع الايماني القائم على اساس المبادئ الرسالية ، لا الاعتبارات المادية ، و اخيرا التحلي بروح التحدي و الاستعداد للصراع ، ثم بينت المقياس الذي يتبعه الانسان لمعرفة القيادة الصالحة ، ثم عرضت صورا مجسمة للجنة و للنار فيها عبرة لمن اعتبر.

و بينت الآيات من (٣٢ - ٤٤) موقف الانسان من النعمة و المنعم ، و ان من مكر الله بالجاحدين ان يملي لهم فيوسع النعمة عليهم ، و من ثم يؤدي اغترارهم بها الى انزال العقوبة الصارمة بهم ، ثم بينت مراحل التدهور العقيدي و من ثم السلوكي عند الانسان الكفور ، الذيبستند على معادلة خاطئة و هي ان العطاء في الدنيا دليل رضى الله ، بينما هو في الواقع امتحان للعباد ، كما بينت ان الخضوع للثروة و الاثرياء فيصبح بمنزلة الشرك بالله ، و ان الولاية الحقيقية على العباد لله الصمد فقط ، لا لغيره من المخلوقات التي يطرأ عليهاالتغيير و الزوال.

و صورت لنا الآيات (٤٥ - ٤٩) الحياة من واقع قصة الطبيعة ، و دعت الى الاهتمام بزينة الآخرة و هي الباقيات الصالحات ، ثم بينت دور العمل الصالح في بناء الحضــارة ، و دعت الى شمول النظرة المستقبلية ، و امتدادها الى ما بعد هذه الحياة الزائلة.

ثم عرضت لنا مشهدا من مشاهد يوم القيامة يبين لنا ان كل شيء في هذه الحياة يتحرك ولا يثبت على حال ، حتى الجبال الراسيات ، اذن فلا مسوغ للأعتماد على زنية الدنيا لأنهــا هي الآخرى تتحرك و تزول ، و حملت الانسان مسؤولية اعماله كاملة امام ربه ، تلك الأعمال التي سيراها مسجلة بالكامل و مجسمة امامه ، ان خيرا فخير ، و ان شرا فشر.

ثم جاءت الآيات من (٥٠ (56 - لتبين موقف الانسان من اصحاب الزينة ، و هم المستكبرون في الأرض و عن طريق الصور التاريخية و المستقبلية ، يحث القرآن على ايجاد فاصل بين المؤمنين و بينهم ، فلا يتبعونهم و لا يتخذون منهم عضدا ، لأنهم اعداء أولا ، و جاهلون مضلون ثانيا.

ثم تحدثت عن دور التصور الذهني في معرفة الحقائق الغيبية ، وبينت ان جدلالانسان لا حدود له ، مهما كانت الحقائق القرآنية كثيرة امامه ، ثم اكدت على ان الانسان ليس مجبرا على الهداية ، و ان الاستهزاء هو اخطر حجاب بين عقل الانسان و بين الهداية . و من أشد ظلما لنفسه و للناس و للحقائق ممن اودع الله قلبه فطرة الايمان ثم ذكره عبررسالاته بآيات ربه فأعرض عنها و نسي ذنوبه فجعل الله على قلبه

ستارا ، و منع عنه الفقه و جعل في اذنه وقرا فاذا به لا يهتدي ابدا.

و لان اللــه غفــور ذو رحمــة ، فهــو لا يعاجــل الكافريــن بالعـــذاب إلا أن لهــم موعدا لا يحيدون عنه ، و شاهد ذلك تاريخ القرى التــي اهلكت فـــي الموعد المحدد لهلاكها - (٥٧ - ٥٩. - (

و يستمر السياق القرآني (٦٠ - ٦٤) يحدثنا عن قصة موسى مع العالم ، و من خلالها يبين لنا صفات العالم و المتعلم ، و أهمية العلم ، كما يشير الى وجود خلفيات هامة للتقديرات الإلهية ، والأحكام الشرعية.

فلقد عقد موسى العزم على الرحيل الى مجمع البحرين و أنبأ فتاه و مرافقه بأنه حتى لو مضت حقب من الزمان فلن ينثني عن عزمه هذا ، و عندما بلغا مجمع البحرين نسيا حوتهما الذي سرب في الماء و عندما تركا الموقع طلب من صاحبه الغذاء ، الا أنه أخبره بقصة الحوت التي كان قد نسيها وقال : ان الشيطان هو الذي انساه و حين عرف موسى بقصة الحوت علم بأن موقع قرب الحوت في البحر هو بالذات ميعاده مع العالم فعادا او رجعا اليه.

عند الموقع وجد موسى العالم الذي أتاه ربه الرحمة و العلم ، و حين ساله موسى عما اذا كان مستعدا لتعليم رشدا مما علمه الله ، اخبره انه لن يصبر على ذلك الرشد لأنه لم يحط بذلك خبرا ، و اصر موسى و وعده بالطاعة انشاء ربه.

كان موسى نبيا ، و عارفا باحكام الرسالة الظاهرة ، و من خلال تعلمه لخلفيات الأحكام كان ينتفض مستنكرا لأنه لم يعلم حكم الشريعة.

فلمــا خرق العالم السفينة استعظم الأمر ، اما حينما قتل غلاما فقد استنكر ذلك بقوة ، و هكذا عندما بنى جدارا لقوم لا يستحقون و لم يطالبهم بأجر.

و فــي كل مرة يذكره العالم بوعده و يعتذر منه موسى ، حتى افترقا - (٦٥ – ٧٨). -

لقد اخبره ان السفينة كانت لمساكين و انه سيقرر الملك مصادرة السفن الصالحة فقط فأردت أن اعيبها لمصلحتهم.

امــا الغلام فقد كان يخشى على ابويه الكفر فأراد الله تبديله بمن هو ازكى و اقرب رحمــا.

اما الجدار فقد كان تحته كنز ليتيمين ، فأراد الله سبحانه و تعالى حصولهما على الكنز كرامة لابيهما الذي كان صالحا - (٧٩ – ٨٢). -

و في اطار الحديث عن زينة الحياة الدنيا في سورة الكهف تناول السياق اهم زينة منها و هي السلطة و ضرب لنا عن واقع ذي القرنين مثلا ، كيف مكن الله به في الأرض و أتــاه من كل شيء سببا و وسيلة اما هو فقد مضى على طريق الأسباب الى أهدافه النبيلة ، فبلغ مغربالشمس و سار في اهلها بالعدل ، و مضى قدما في اتباع الأسباب حتى بلغ مطلع الشمس حيث وجد الناس يعيشون حياة بدائية ، و حتى انهم لا يجدون ما يسترهم عنها ، و مضى في طريق الأسباب فوجد منطقة جبلية ، كان أهلها يحتاجون الى سد يحفظهم من غارات يأجوج و مأجوج المفسدين ، فبادر الى بناء السد دون ان يطالبهم بأجر ، بل شكر ربه على نعمة السلطة.

انما يسخر طاقاتهم البشرية و مواردهم في بناء الروم ، فجعل زبر الحديد على بعضها و امرهم بأن ينفخوا في النار التي اججوها حولها فلما تحولت الى نار و التحمت ببعضها افرغ عليها لباسا مصنوعا من النحاس المذاب ، فأصبح سدا مرتفعا و منيعا ، فلا استطاعوا عبوره ولا اختراقه.

و شكر ذو القرنين ربه على هذه السلطة بدل ان يفرض على الشعب حمده و شكره ، و كما يفعله

الملوك عادة.

و أنبأهم بأن السد لا يقاوم أمر الرب ، فاذا جاء الوعد الموعود فان الله سيجعله دكاء و اذا بالناس يموج بعضهم ببعض و ينفخ في الصور ، و يجمع الله الناس على صعيد واحد جميعا.

ليعرض على اولئك العميان الذين لم يبصروا آيات الله ، و لم يسمعوا نصيحة المصلحين ، يعرض عليهم جهنم لكفرهم بالله.

و هكذا ضرب الله لنا مثلا ، للمؤمن الذي تجاوز السلطة فملكها و لم تملكه و استفاد منها لأهدافه ، و لم تستفد منه لها - (٨٣ – ١٠١). -

و في الدرس الأخير من هذه السورة نجد أهم العبر القرآنية المبثوثة فيها ، و في قصصها العجيبة ، و من ابرزها ضرورة توحيد العبودية لله ، و الا يتخذ العباد اولياء من دون الله ، و يبين القرآن ان الأخسرين اعمالا هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون عملا ، بلى اولئك هم الكافرون بآيات الله ، الذي لا يأبه بهم ربهم يوم القيامة بالرغم من مظاهر الزينة و القوة عندهم في الدنيا لأنهم استهانوا بالآيات و الرسل ، بينما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فان لهم جنات الفردوس نزلا ، يخلدون فيها و لا يبحثون لها عن بديل.

تلك السورة من كلمات الله و كلمات الله كثيرة حتى لو كان البحر مدادا لكتابتها لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات الله.

و خلاصة كلمات الله توحيد الله ، و الإعتقاد بان الرسول بشر اوحي اليه ، و ان مــن يرجــو لقاء الله فعليه ان يعمل عملا صالحا ، خالصا لوجه الله ، و لا يشرك بربه احــدا.

لنبلوهم أيهم أحسن عملا
هدى من الآيات

يحب البشر مصدر النعم . و يحمد أصحابها . بيد أن النعم من الله جميعا . فله الحمد كله . و أعظم نعمة و أفخم منة الهدى الذي انزله في كتاب لا عوج فيه يقوم به نظام حياة البشر ، و يرتفع على صرحه بناء سعادته . و هو ينذر بأسا شديدا من لدن الرب و يبشر المؤمنين الصالحين بأجر حسن خالدين فيه.

هكذا بدأت سورة الكهف ببيان نعمة الهداية التي تكتمل بها نعم الله وهي تنذر الذين اشركوا بالله . و زعمــوا بأن له ولدا . أنها كلمة كبيرة خرجت من افواههم . و كذب مبين (بلى أو ليس الشرك جذر الضلالة و الانحراف) و بالرغم من ذلك فعلى الرسول الا يهلك نفسه اسفا عليهم لأنهم لا يؤمنون بالكتاب (انما يمتحنهم الله بزينة الأرض) و لقد جعل الله ما على الأرض زينة ، و لكنها غير دائمة إذ يجعله الله بعدئذ صعيدا جرزا.

و هكذا لخصت آيات هذا الدرس دروس القرآن في سورة الكهف . و بينتضرورة التسليم لكتاب الله ، حيث تتم نعم الله ، و ذلك عبر توحيد الله . و عدم الإنبهار بزينة الحياة الدنيا.

بينات من الآيات

[1]تبدأ السورة بعد " باسم الله الرحمن الرحيم " تبدأ بحمد الله ، و يتركز الحمد على نعمة الهداية ، فنحن نحمد الله مرة على نعمة العين ، نعمة اليد ، نعمة العلم ، نعمة الحركة ، نعمة الأكل و الشرب ، نعمة المسكن و الملبس ، و لكن هذه النعم تصبح ضئيلة على عظمتها في مقابــل نعمة الهداية ، اذ لولا الهداية لم تنفع نعمة اخرى مهما كانت كبيرة . الهداية هي صبغة نعم الله سبحانه و تعالى و الطريق اليها ، فلو كان هناك طعام و شراب و كنت محتاجا اليهما و لكنك لم تعرف الطريق اليهما ، فهل يكونان بالنسبة لك نعمة ؟ كلا .. فالهداية هي طريق الانسان للاستفادة من النعم و التمتع بها.

و هداية الله تتكامل في كتاب إلهي يوحيه الى عبد من عباده يصطفيه رسولا و يأمره بتبليغ الرسالة لبني جنسه من البشر ، و في الآية اشارة واضحة الى أن الهداية لا تكون أبدا بمعزل عن الكتاب أي الرسالة الالهية ، و لا عن الرسول الذي هو رجل من أهل الأرض.

سنن القرآن و سنن الطبيعة

كتاب الله كتاب قويم يربط الانسان ربطا مباشرا بأهدافه ، و سائر النعم المتواجدة و المتوافرة في الكون ، لذلك يؤكد القرآن في هذه السورة على هذه الصفة في الرسالة.

[الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجا]فكتاب الله يعطي البرامج الصحيحة ، و المناهج السليمة التي توصل الانسان إلىاهدافه المنشودة ، عبر طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ولا نتوءات ، و بديهي انه يكون أقرب الطرق و اسرعها.

و نجد هذا الاتجاه ايضا في الطبيعة التي تجري سننها و قوانينها على اساس التوصل الى الهدف من اقصر السبل و اسرعها ، فمثلا الضوء و الصوت و الحرارة و موجات المذياع ، تتحرك عبر أقرب و أفضل الخطوط ، وعندما تتعارض القوى فأن الطاقة المغناطيسية او الكهربائيةاو الطاقة الحركية للأجرام السماوية في مداراتها الفلكية تختار اقصر الخطوط المنحنية في الانتقال و هكذا فأن الطبيعة لا تحب التراخي و التباطئ في اداء الاعمال ولا الالتواء في المسير الى الهدف و هكذا السبل القرآنية ، و هذا التطابق بين السنن القرآنية و السنن الكونية دليل على وحدانية الخالق و رحمانيته ، و ان له الحمد في الأولى و الآخرة.

الكتاب القيم

[2][قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا]

كتاب الله كتاب متكامل و حكيم ، فهو يجعل الأمور في مواقعها و يعطي كل شيء حقه ، بنسبة حاجته إليه دون زيادة او نقصان.

و ربما تشير كلمة " قيما " الى هذه الفكرة ، و هي ان كل نظرة و كل حكم شرعي و بالتالي كل وصية و موعظة فيه إنما هي بقدر الحاجة ، و بنسبة الواقع الخارجي ، و بموازين دقيقة.

فمثلا حين يقول القرآن أن الزوج يرث نصف مال زوجته بعد موتها ان لم تخلف ولدا وراءها ، فلا يعني ذلك الا ان هذه الحصة تتطابق مع حكمة الحياة و مع واقعيات الاقتصاد الأسري ، مع حاجة الزوج و طبيعة العلاقة التي تربط الزوجبالزوجة ، أي ان هذا الحكم متطابق تماما مع كل الظروف المحيطة به دون زيادة أو نقصان.

و هناك تفسير آخر لهذه الكلمة و هي ان القرآن ليس فقط رشيدا و حكيما و متكاملا في ذاته ، و انما هو ايضا يعطي التكامل و الحكمة للحياة ، و يقيمها على اساس منظم و متين دون اي خلل او ثغرة ، كما قال ربنا سبحانه : " فأقم وجهك للدين القيم " و قيمومة الكتاب . و الدين الالهي ، نابعة من قيمومة الرب سبحانه حيث يقول تعالى : " الله لا إله إلا هو الحي القيوم " فكل شيء يقوم به الرب في عالم التكوين . و كل شيء يصلح بكتابه في عالم التشريع.

و لأن الكتاب قيم فهو يحفظ رسالات الله جميعا . لأنه مهيمن عليها . و يحفظه الله من التحريف . و يحفظ به امة الاسلام.

أهداف الكتاب و حوافز الهداية

و هكذا فان الكتاب حينما يريد ان يستفيد الناس من الهداية فانه يثير فيهم الحوافز النفسية الملائمة التي تدفعهم إلى الأخذ بها و العمل بمقتضاها . و من حوافزه:

الإنذار

و هو الأبلغ أثرا فالانسان بطبيعته يخشى الضرر اكثر مما يتوقع المنفعة فلو قيل لك إذا لم تقم بالعمل الفلاني فلن تحصل على مليون دينار ، فأنك لن تتأثر كثيرا ، و أما اذا قيل لك ستخسر مائة دينار اذا فعلت كذا ، فأنك تهتم و تجتهد كثيرا لأن تتجنب ذلك الضرر.

و هكذا فان من طبيعة البشر الهروب من الضرر ، اكثر من البحث عن المكاسب و المنافع ، لذلك فان الإنذار يلعب دورا اساسيا في حياة الانسان . و الكتاب نذير حقبعذاب شديد ينزل من لدن الرب القوي العزيز.

الحافز الثاني

و هو حافز التبشير ، حيث يعد الله الانسان حينما يهتدي بالكتاب ، و يعمل وفق برامجه بالأجر الحسن و النعم الأضافية ، التي هي اعظم من تلك التي بيد الانسان ، حيث يمكث فيها مخلدا.

و هنا نجد إثارة لأحساس هام في البشر و هو حب الخلود و الخشية من زوال النعم ، و يستفيد الكتاب من هذا الأحساس و تلك الخشية ليدفع الانسان الى تقبل الهداية الالهية التي تضمن له ان يظل ماكثا في نعم الله أبدا.

[لينذر باسا شديدا من لدنه]

هناك فرق بين الباس و الضر ، اذ الضر قد يأتي من الطبيعة ، أو بسبب المرض ، أو ما اشبه ، بيد أن البأس لا يأتي الا من جهة عاقلة ، و الكتاب ينذر الانسان ببأس من عند الله ، اي ان الله هو الذي يقدر و يمكر فيعذب ، و هذا ابلغ في الموعظة . لأن الخطر الذي يأتي من الطبيعة ربما يتمكن الانسان من تجنبه بطريقة ما ، و لكن سهم العذاب الذي يوجهه الله اليك لا يخطئ هدفه أبدا ، لماذا ؟ لان ارادة العليم القدير الذي خلق الكون و خلقك و خلق كل شيء هي النافذة حتما ، فأين المفر من عذاب الله و أين المهرب ؟ و كما جاء في الدعاء : " و لا يمكن الفرار من حكومتك. "

العلاقة الوثيقة

]و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا[

هنا يسعى القرآن في آياته الكريمة المرة بعد الأخرى ، و بتأكيد شديد و بأساليبمختلفة من اجل ان يعمق الشعور عند الانسان بأن هناك علاقة وثيقة بين عمله و بين حياته الحالية و المستقبلية ، و لكن الانسان يريد ان يفهم كل شيء الا هذه الحقيقة ، فهو يحاول ان يحصل على نعم الله دون ان يطيعه في بذل الجهد المناسب و العمل الصالح و التعبير بـ" يعملون الصالحات " يدل على الاستمرارية.

أي انهم لا يزالون يعملون الصالحات و هذا هو المهم . حيث لا ينفع عمل صالح ما في وقت معين . بل ينبغي ان تكون نية العمل سليمة . و يكون سلوك الفرد سليما . حتى تكون كل اعماله صالحة.

[3][ماكثين فيه أبدا]

أين ذلك الأجر الحسن ؟ هل هو في الدنيا أم في الآخرة ؟ أهو في البرزخ ام يوم القيامة الذي يمتد خمسين الف سنة ام في الجنة ؟

القرآن لا يحدد و هذا يعني الأطلاق ، اي ان هذا الأجر أجر دائم يبدأ من الحياة الدنيا و يمتد عبر كل المراحل القادمة و حتى دخول جنات عدن.

وفي ذلك تطمين و بشارة للمؤمنين بأنهم ماداموا يعملون الصالحات ، فلا داعي لأن يخافوا من الموت ، بل انهم باندفاعهم الى الجهاد في سبيل الله و اعلاء كلمته فان الموت لا يكون بالنسبة لهم خسارة أو انقطاعا للنعم ، و أنما هو مجرد انتقال من مرحلة نعمها محدودة ، الى مراحل اخرى نعمها ادوم و اعظم .

ألوان الشرك

[4][و ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا]

و أخطر ذنب يرتكبه الأنسان هو ان يخرج عن التوحيد الخالص ، و يجعل اللهشركاء في وحدانيته ، كأن

يزعم جاهلا ان لله ولدا سبحانه و تعالى عن ذلك ، و هو الكامل المنزه عن كل نقص ، و هو الغني غير المحتاج الى الولد و غيره.

وقد تتخذ نسبة الولد الى الله تعالى صورة رمزية غير صريحة ، و هي ان يشرك الأنسان في حكم الله و سلطته و ملكوته احدا غير الله ، فردا كان أم مؤسسة و تنظيما ، و يعتقد أنه امتداد لسلطة و حاكمية الله.

و من المؤسف ان تنتشر هذه الخطيئة بين عدد كبير من المسلمين ، و لكن بصورة خفية دون ان يشعروا بها ، حيث انهم يتبعون علماء السوء و يقلدون من يدعون الفقه و الاجتهاد و ليسوا كذلك ، فهؤلاء يضلون من يتبعهم و يقتدي بهم ، و بالتالي يحرفونهم عن خط التوحيدالى منزلق الشرك.

و لهذا فأن المسلم عندما يريد ان يقلد في امور دينه فعليه ان يتأكد من ان مقلده انه عالم مجتهد و متق يدعو الى الله و باذنه ، حتى تكون اعماله خالصة لله ، و يكون مسلما موحدا بحق.

[5][ما لهم به من علم و لا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا]هؤلاء الذين يجعلون ابناء لله و اندادا له ، سواء كان ذلك صراحة او ضمنا انهم يرتكبون خطيئة كبيرة ، و هم يعلمون في انفسهم يقينا أنما يقولونه و يدعونه هو الكذب بعينه ، و لكنهم يسوغون ذلك عبر التبريرات الباطلة ، بهدف تحقيق المنافع و المصالح العاجلة حسبتصورهم و تقديرهم.

ما على الرسول إلا البلاغ

[6]العاقل يتعجب ، كيف يترك اولئك البشر الطريق الصحيح و يتبعون طريقا

ملتويا ليهلكوا انفسهم.

و كلما قوي ايمان الانسان ، و ارتفعت درجة حبه للآخرين و احساسه تجاههم بالعطف و الحنان ، كلما اشتد حزنه و غمه على هذا الأنحراف ، لذلك تجد رسل الله (صلوات الله عليهم) حينما يواجهون هذا الإنحراف الكبير فإنهم يكادون أن يهلكوا انفسهم لإصلاحه، فيؤكد القرآن هنا انه لا ينبغي للرسول أو المصلح عموما ، أن يهلك نفسه في سبيل هداية الناس.

إن هذه حكمة من الله اذ خلق الناس ليمتحنهم ، و ما على الرسول الا ان يقوم بدور الإنذار و التبشير.

[فلعلك باخع نفسك على ءاثرهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا]" زينة الأرض فتنة البشر"

[7][إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها]

كل ذلك لهدف و حكمة.

[لنبلوهم أيهم أحسن عملا]

إنما جعلنا ذلك لكي نبلو الانسان و نختبره ، حتى يتبين الذين يعملون الصالحات من الذين يرتكبون السيئات.

[8]و لكن لا تغرك زينة الحياة فانها لا تدوم ، إنها أيام قليلة و سنوات معدودة و تنتهي.

[و إنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا]

تصور مدينة جميلة تزخر بالحياة فيها اشجار و حدائق ، و شوارع و بيوت ، و رياش و امتعة ، و وسائل .. الخ ، و اذا بصاعقة قاصفة ، أو زلزال رهيب ، أو حرب مدمرة تحول تلك المدينة الجميلة الى صعيد املس

و ارض جرداء ، ففي فترة قليلة لا تتعدى (١٦/١) من الثانية الواحدة تحولت مدينة (هيروشيما) ثم مدينة (نجازاكي) بما فيهما من المصانع و العمارات و المنشآت ، الى ما يشبه الرماد.

على الانسان ان يعتبر ، يمكن ان ينجذب الى زينة الحياة ، و لكن ليس ذلك الأنجذاب المطلق ، الذي يفقد معه قيمه و طريقه انما ينجذب الى الحياة في حدود حاجته اليها ، و في نطاق احتفاظه بقدرته و سيطرته على نفسه و على الحياة ، فيصبح هو مالك الحياة لا مملوكا لمتاعها ، و لا ننسى ذلك الحديث الكريم المروي عن الامام علي (ع) الذي يقول فيه:

"ليس الزهد ألا تملك شيئا ، و انما الزهد ألا يملكك شيء. "

أصحاب الكهف : السنة التي تجري

هدى من الآيات

في قصة اصحاب الكهف و الرقيم دروس و عبر في بيان ضرورة مقاومة الانسان لجاذبية الشهوات الدنيوية ، و اثبات قدرته على ذلك عن طريق الإرادة الذاتية أولا ، ثم التوكل على الله ثانيا.

و تبدأ هذه المجموعة من الآيات ببيان الإطار العام لهذه القصة ، ثم تفصل الحديث حولها تفصيلا.

بينات من الآيات

قصة أصحاب الكهف و الرقيم

[9]ان قيام هؤلاء لله و ثورتهم ضد الطغيان و تحريرهم لأنفسهم من ضغط المجتمع الفاسد ، و بالتالي نصرة الله لهم بطريقة غيبية ، لا يشكل شذوذا في سنن الله في الحياة ، و لا تثير عجبا ، لأننا نراها و نلمس آثارها في كل لحظة و في كل شيء ،و هي تدل على وجود حكمة في تدبير الكون و قوة قاهرة تجري تلك الحكمة.

فآثار القدرة و الحكمة الإلهية واضحة ، و اصحاب الكهف و الرقيم كانوا مجموعة بشر يعيشون مجمل هذه المعادلة الكونية الحكيمة ، اذن لا تعجب اذا جاءت يد الغيب و انتشلتهم من وهدتهم و حررتهم من اغلالهم.

[أم حسبت أن أصحاب الكهف و الرقيم كانوا من ءاياتنا عجبا]يقول المؤرخون : انه حين قتل يزيد بن معاوية سبط رســـول الله ابا عبد الله الحسين (عليه السلام) . و طاف برأسه البلاد كان الرأس يتلو من فوق القناة هذه الآية الكريمة . او تدري لماذا هذه الآية بالذات ؟ لعله لبيان تلك المعادلة الكونية و لكي لا يتعجب الناس كيف ان الراس الشريف يتلو القرآن.

و هكذا فان ذلك الراس المبارك يشير الى ان الكون يجري ضمن معادلة حكيمة من ابعادها نصرة المظلوم اذ ان نصرة المظلوم هي ضمن تلك المعادلة التي اجراها ربنا سبحانه و تعالى في كل ابعاد الكون.

و معنى هذه الآية هو : هل تحسب ايها الانسان ان ما جرى لهؤلاء هو شيء عجيب ؟ كلا..

هناك آيات و حقائق تعودنا على رؤيتها ، و هناك حقائق لم نرها ، فأنت اذا دخلت مدينة لأول مرة قد تتعجب من لغة و عادات اهلها ، و بناء بيوتها و جسورها ، و نظام الشوارع و السيرفيها .. الخ ، و لكن اذا بقيت فيها لمدة سنة فكل شيء يغدو عندك آنئذ عاديا.

و المجتمع يبادل بعضه بعضا التعاون و العمل ، و الاحساس و الفكر ، فيبدو لنا ذلك الشيء طبيعيا جدا لأن هذه السنن حياتية ، حيث جعل الله الناس يحتاجبعضهم الى بعض ، و هذه سنة إلهية عظيمة و عجيبة ، و لكننا لطول الألف بها نراها عادية لا تثير فينا الإستغراب.

و الشمس كل يوم تطلع من هنا و تغرب من هناك ، و تجري بدقة و نظام ، هذه سنة عجيبة و لكننا تعودنا عليها حتى اصبحنا لا نهتم كثيرا لهذا الأمر ، اما اذا حدث كسوف كلي للشمس مثلا ، فأن الناس يظهرون اهتماما بالغا لهذا الحدث و يهرع العلماء الى مراصدهم و اجهزتهم العلمية لدراسة هذه الظاهرة

و أن يحكم نظام طاغوتي في بلد ما و يخضع الناس له راضين بالواقع المنحرف ، هذا شيء ألفناه لكثرة حدوثه و انتشاره حتى اصبحنا نعده شيئا طبيعيا ، و لكن ان تتفجر ثورة إلهية و يقوم الثوار المجاهدون بأسقاط ذلك النظام الفاسد ليقيموا نظام الحق و العدل و الحرية ، فذلك يعد شيئا غريبا و ينظر الناس اليه على انه معجزة عجيبة بينما هو في الواقع سنة الهية كسائر السنن التي نألفها.

و ربما تشير هذه الآية الى ان الانسان عندما يرى حوادث و وقائع جديدة عليه ان يسمع بهـــا لأول مرة فلا يحق له ان ينكرها ، و يكذب بها ، لمجرد انه لم يألفها و لم يتعود عليها ، فعدم العلم بالشيء لا يعني العلم بعدمه ، و انما على الانسان ان يتأمل في سنن الله في الخليقة ، و ينظر الى عظمته و حكمته و قدرته ، و يؤمن بكل ما يصدر عن الله عز وجل من قول و فعل.

و القرآن يذكر لنا :ان الملائكة عندما بشروا ابراهيم (ع) بهلاك قوم لوط كانت امرأته قائمة ، فضحكت فبشروها باسحاق و من وراء اسحاق يعقوب فقالت : يا ويلتا ءالد و انا عجوز و هذا بعلي شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب . قالوا : اتعجبين من أمر الله ؟

و التعجب الذي ينهى عنه القرآن هو ذلك الذي يؤدي الى الإستنكار و عدمالتصديق ، اما التعجب بمعنى الأنبهار بعظمة الله و قدرته التي تتمثل في بديع خلقه و اتقان صنعه ، الذي يؤدي الى سمو الايمان و كمال التصديق فشيء حسن ، إذ ان كل خلق الله يثير العجب لدى التأمل و التفكر.

"أم حسبت أن اصحاب الكهف و الرقيم كانوا من آياتنا عجبا " ؟!

الكهف هو الفجوة في الصخور الجبلية ، والرقيم هي الكتابة - حسب اقرب التفاسير - و تختلف التفاسير هل ان اصحاب الكهف هم اصحاب الرقيم ؟ أم ان اولئك طائفة اخرى ؟

و يشير حديث شريف الى انهم كانوا طائفة اخرى ، و لكن بعض المفسرين يذكـــرون ان كلمة الرقيم تدل على الكتابة التي نقشها قوم اصحاب الكهف على باب الصخرة ، و لذلك سموا بأصحاب الرقيم.

حرية الانسان تتحدى

و مما يثير العجب في قصة اصحاب الكهف ، قدرة هؤلاء الفتية من البشر على الأفلات من اغلال الطاغوت ، و قيود الثقافة الفاسدة ، من دون رسالة ولا رسول . فنحن نعرف ان الله يبعث رسولا الى قوم يعظهم فيؤمن به جماعة و يكفر آخرون ، و لكن ان ينبعث ضمير نقي في مجموعة فتية يعيشون تحت ركام الخرافات و في ظل الظروف الفاسدة فيثوروا و يتحرروا !! ان هذه قضية تبدو غريبة و تثير العجب ، و لكن لدى التأمل الدقيق يتبين ان فطرة الانسان مهيأة لتمييز الأنحراف من الأستقامة ، و ان قدرة الله و نصرته تعين الانسان الذي يستجيب لنداء فطرته.

فكما ان الله يبعث رسولا ، و ينزل عليه الملائكة و الكتاب ، و يؤيده بروح منه ، كذلك اذا استجبت ايها الانسان لنداء فطرتك و اتبعت الحقيقة بعد ان عرفتها ، فان الله يزيدك هدى ويأخذ بيدك ، و هذه هي حكمة بيان قصة اصحاب الكهفحسبما يبدو ، فلا تقل انك لست برسول ولم ينزل عليك وحي ، ففيك من الفطرة الإلهية ما لو اتبعتها اعانك الله على ظروفك.

[10] [إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا ءاتنا من لدنك رحمة و هيء لنا من أمرنا رشدا]لقد التجأوا الى الكهف حيث لم يجدوا في الأرض ملجأ ، و لم يكن هناك من يسمع كلامهم ، او يستجيب لهم فيعينهم ، فأضطروا الى تلك الوسيلة التي لم يكن امامهم غيرها.

و الانسان عندما تضطره الظروف للألتجاء الى كهف داخل جبل في منطقة معزولة قفراء ، فإن ذلـك يعني انه منقطع من كل اسباب القوة و الأمن ، و مفتقد لكل نصير و معين ، و هذا هو ما يحدث للذين يريدون ان يتحرروا من الأغلال ، و يثوروا على الأوضاع المنحرفة.

و حينما لم يجد فتية الكهف احدا في الأرض ينصرهم التجأوا الى رب السماء سبحانه ، و دعوا الله أن يعطيهم أمرين:

الأول : الرحمة اي الخير و التقدم ، و كل ما في الحياة من اسباب السعادة و الفلاح.

الثاني :ان يهديهم الى الطريق السوي ، صحيح ان فطرتهم اوضحت لهم ان طريق قومهم خاطئ ، و لكنهم لم يكونوا يعرفون الطريق البديل . و قوله تعالى:

"و هيء لنا من أمرنا رشدا " . يدل على ذلك.

خرق السنن الطبيعية

[11][فضربنا على ءاذانهم في الكهف سنين عددا]

ان الضرب على الاذان اشارة لطيفة الى ان أهم علامة للنوم عند الانسان هي ثقل اذنه ، و انقطاع سمعه ، و اما إغماض العين ، فليس كافيا لأن يدل على النوم ، اذ قد يغمض الانسان عينيه و هو مستيقظ ، و لكنه لا يمكن ان يقطع سمعه و هو كذلك.

هذا من جهة و من جهة ثانية باستطاعة البشر ان ينام يوما او يومين بدون أكل أو شرب ، بينما نجد هؤلاء قد ناموا سنين عديدة ، حتى انتهى العهد الفاسد ، و هكذا كانوا يبدون في مظهر الأموات ، و لذلك يقول القرآن:

[12][ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا [فشبه ايقاظهم ببعث الموتى ، بسبب طول فترة مكوثهم نياما ، و لكن لماذا بعثهم الله يا ترى ؟

ذلك لكي يرى الناس أنه قوي قدير ، و ان حزب الله هو الغالب ، اذ ان هناك حزبان فقط في ساحة الحياة مهما اختلفت العناوين و الاسماء ، حزب المستكبرين الراضين بحكم الظلم و الجور ، و الآخر هو حزب الله الثائرين على الظلم و الجور.

و حــزب الله لا يملكون الا انفسهم في البداية ، حتى انهم يضطرون للإلتجاء الى الكهف ، أو كما في عصرنا الى العمل السري أو الهجرة من البلاد ، و هذا دليل انقطاعهم عن الوسائل المادية.

حينما نقارن بين اصحاب الكهف و بين الحكومة الطاغوتية آنذاك ، حيث كان الملك و اعوانه يملكون القوة و الهيبة و السلطان و كل الوسائل المادية ، نجد ان كفة اصحــاب الحق هي الراجحة بالرغم من ذلك لأن الطواغيت كانوا يسيرون على طريق الخطأ ، ولم يستطيعوا انيحموا ما كانوا يملكون بينما نجد اولئك الذين لم يكونوا يملكون شيئا الا انفسهم و إرادتهم ، حموها بالإيواء الى الكهف اولا ، و من ثمكسبوا الجولة في ساحة الصراع.

اما التفسير الظاهر للأحصاء في الآية فهو معرفة عدد السنين التي مكثوها في الكهف . و على هذا التفسير يكون المراد من الحزبين هما الفريقان الذين اختلفوا في عدد السنين التي قضوها في النوم كما تشير الأحاديث التالية.

هذا هو الموجز لقصة أصحاب الكهف ، أما التفصيل فتتعرض له الآيات القادمة..

[13][نحن نقص عليك نبأهم بالحق]

القرآن يقص الأنباء بالحق فهو أولا : يذكر الأنباء صحيحة ، و ثانيا : يهدف من ورائها اهدافا سليمة ، اي عندما تورد الآيات القرآنية قصة فأنها تستهدف من ورائها تكوين حكمة صحيحة في ذهن الانسان ، و اقامة حكم الحق في العالم ، و ثالثا : ان مجريات القصة تتطابق مع السنن الحق في الحياة وهذه الأبعاد الثلاثة موجودة في كل قصة من قصص القرآن.

[إنهم فتية آمنوا بربهم و زدناهم هدىً]

ان هؤلاء الفتية بشر ولم يكونوا رسلا ، و لكنهم آمنوا بربهم و تحرروا من ضغط الجاهلية فأيدهم الله ، و كذلك كل انسان في العالم يملك ارادة التحرر ، و عندما يضعها موضع التنفيذ فان هدى الله يأتيه و يؤيده.

و في الأحاديث إن هؤلاء لم يكونوا كلهم شبابا و لكن القرآن سماهم فتية ، لأن الفتى أقدر على التغيير و الثورة ، و على ان يبدل مسيرته و منهاجه ، و القرآن يتحدث عن هذه الثورة في الآية التالية ، و يبدو ان كلمة الفتى تشير إلى من يملك الفتوة و هي الرجولة والبطولة و الشجاعة قال ابو عبد الله الصادق (عليه السلام) لرجل " ما الفتىعندكم ؟ فقال له : الشاب ، فقال : لا ، الفتى : المؤمن ، إن اصحاب الكهف كانوا شيوخا فسماهم الله فتية بأيمانهم " (١)[١٤] [و ربطنا على قلوبهم إذ قاموا[

اي ثاروا و انتفضوا ، و لكن لماذا يقول و ربطنا على قلوبهم ؟

ذلك لأن الانسان الذي يريد أن يتحرر من ربقة الطاغوت يرى - في بداية أمره - القضية غامضة ، ثم يتقدم قليلا فتتضح معالمها أمامه ، و لكنه لا يملك القدرة الكافية على الصمود و المقاومة ، فهنا يزيده الله ارادة و عزيمة ، و يربط على قلبه حتى لا يتردد ، و يستمر في ثورته متحررا من الخوف.

ان بداية القيام أن تنطلق أنت ، و لكن بعد ذلك تجري حلقات النهضة بطريقة متتابعة و بتأييد الهي ، اي ان الله سبحانه و تعالى يتولى أمرها فيزيد الثائرين وضوحا في الرؤية ، و يقوي معنوياتهم ، و يوفر للثورة اسباب النجاح سواء بطريقة عادية او غير عادية.

[فقالوا ربنا رب السموات و الأرض]

هذه الكلمات الثورية الشديدة القاصفة كالرعد لا تصدر عادة الا عن رسول ، و لكنها صدرت عن هؤلاء بتأييد الله ، اي بعد ان ربط على قلوبهم.

ثم يعلنون انهم عازمون على المضي في الثورة و عدم النكوص..

}} لن ندعوا من دونه إلها]

(1)نور الثقلين / ج ٣ - ص 245

و كلمة " لن " تدل على الابدية ، أي مستحيل علينا أن نرجع الى واقعنا الفاسد ، ثم يذكرون سبب ذلك :

[لقد قلنا إذا شططا]

أي ان عودتنا الى افكارنا و اقوالنا السابقة هي ضلال و انحراف و شذوذ.

الجذرية

لقد ثاروا ثورة جذرية ، و هذه من سمات الثورة الرسالية ، فمنذ البداية قالوا : لن ندعوا من دونه إلها أي لن نخضع لهذا الطاغوت ولا لطاغوت آخر يأتي مكانه ، و لن نقبل ان يطاح بفئة حاكمة ظالمة لتستولي على الحكم فئة اظلم منها و لكن بأسم آخر و شعارات اخرى ،أو يذهب ملك فينصبوا ابنه مكانه و يظل النظام الفاسد كما هو.

فكلمة " الها " تشير الى عدم التخصيص بالملك الذي كان يحكم في زمانهم ، بل الى كل من يتصف بادعاء الندية لله سبحانه و هكذا كانت رؤيتهم صافية . لأن الله سبحانه أيدهم و ربط على قلوبهم.

و لذلك جاء في الحديث المأثور عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) انه قال " : اما علمت إن اصحـــاب الكهف كانـــوا صيارفة يعني صيارفة الكلام . و لم يعن صيارفة الدراهــم " (١)[١٥] لقد قطعوا اية علاقة لهم بالماضي و سفهوه ، و لم يكتفوا بذلك و انما اخذوا يسفهون الآخرين.

[هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه ءالهة]

(1)المصدر

فاستنكروا موقف قومهم الذين اتخذوا السلاطين و الرؤساء آلهة من دون الله.

[لولا يأتون عليهم بسلطان بين]

اذا اراد الانسان ان يسلك طريقا ما أو رجلا قائدا فليفعل ، و لكن ان يأتي بحجة قاطعة و دليل قوي ، و هكذا خطأ أصحاب الكهف منهج الكفار في اختيار الاله بطريقة غير عقلانية ، و لم يخطئوا النتيجة فقط ، و انما بدأوا بالسبب الجذر للإنحراف ، و هذه من أقوى و أعمق الثورات الثقافية و السياسية في العالم ، فهي لا تنظر الى النتائج الظاهرة و الفســاد القائم فقط ، و إنما تبحث عن السبيل الذي سلكه الناس حتى وصلوا الى ذلك الفساد ، او طريقة التفكير التي ادت بهم الى هذه النتيجة.

سياسة الطاغوت

[فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا]

هـذه الآية و آيات اخرى شبيهة تشير الى ان الطغاة يؤطرون عملهم بأطار القدسية ، و يحاولون تضليل الناس و ايهامهم بأن ذلك هو من قبل الله سبحانه و تعالى ، و يربطون انفسهم بطريقة ما بالله و بالمبادئ السامية.

حتى ان هتلر الذي جلب الدمار للعالم كان يعتبر نفسه المنقذ الذي ارسله الله لإنقاذ البشرية ، و الصليب المعقوف انما هو اشارة الى انه يمثل الله في الأرض ، و في هذه الآية يقول اصحاب الكهف : ان قومهم افتروا على الله الكذب ، فقالوا :ان الله هو الذي أمرنابأن نعبد تلك الالهة و هو بريء مما يدعون.

تأييد الله

و اخيرا وصل أصحاب الكهف الى نتيجة و قرروا ان يعتزلوا قومهم في البداية ثم

يلتجؤوا الى الكهف و يطلبون رحمة الله لينصرهم في حركتهم الثورية.

[16][و إذ اعتزلتموهم و ما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته]من الذي قال لهؤلاء الفتية إنهم اذا أعتزلوا الناس ، و التجأوا الى الكهف ، فان الله سبحانه سينصرهم ؟ هل كان هناك رسول يبلغهم ؟

كلا .. و انما كان ذلك من إلهام الفطرة ، انه حينما يكون عمله لله العزيز فان الله يريده و ينصره.

التأييد الإلهي

]و يهيء لكم من أمركم مرفقا[

اي ان الله سبحانه يهيء لكم الوسائل لتطبيق برامجكم . صحيح ان الوسائل منقطعة و الطرق مسدودة امامكم الآن ، و لكن اعتزلوا الكفار و المشركين ، و التجؤوا الى الكهف و انتظروا رحمة الله فهي آتية لا ريب ، و انه سوف يهيء لكم السبل الملائمة مادية و معنوية.

و هكذا نستوحي من هذه الآية الكريمة اسلوبا للثورة و هو : اعتزال الطغاة و عدم اتباعهم ، و انتظار رحمة الله ، فلا نكون مستعجلين للحصول على النتيجة ، و انما علينا بالصبر و انتظار الفرج . و كانت الثورات الالهية تبدا هكذا عادة : يعتزل شخص او مجموعة اشخاص ، ثم يلحق بهم الآخرون ، و تأتيهم الأموال و السلاح و الرجال من حيث لم يحتسبوا ، و في ذات الوقت يبدأ الحكم الطاغوتي بالضعف مع الزمن ، و تظهر فيه الثغرات فتتهيأ الظروف لتفجر الثورة و من ثم انتصارها.

و ليتلطف و لا يشعرن بكم احدا

هدى من الآيات

و هذه المجموعة من الآيات الكريمة تبين لنا جانبا من قصة اصحاب الكهف ، التي تشهد على هذه الحقيقة أن الانسان قادر على أن يقلع من أرض الشهوات و الضغوط ، و يحلق في سماء القيم بقوة ارادته و بنصرة الله سبحانه و تعالى.

ان لطف الله بالانسان لطف دائم و قديم و شامل ، و لكنه بحاجة الى تحرك من قبل الانسان نفسه ، فلو تحرك الانسان الى ربه خطوة فسوف يتقدم اليه ربه فراسخ و اميالا.

ان فتية الكهف حينما تركوا قومهم ، و التجأوا الى الكهف طلبا لرحمة الله سبحانه و تعالى ، فان الله وسع عليهم الكهف ، و ابعد عنهم الشمس حتى لا تحرقهم اشعتها ، فكانت تشرق عن يمين كهفهم و تغرب عن شماله ، بحيث تمنحهم الأشعة اللازمة للحياة دون أن تؤذيهم.

و من ناحية أخرى فقد جعل الله نومهم بحيث ، كانوا يتقلبون بسبب خفة نومهم ، و هذا بدوره من رحمة الله سبحانه و تعالى ، لأن بقاءهم على حالة واحدة كان سيضر بأجسامهم كما أنه يخرق ثيابهم.

أما كلبهم فقد كان يربض أمام باب كهفهم باسطا ذراعيه ، كما يفعل عادة عندما يجلس للمراقبة ، والذي يمر عليهم يحسب أن هؤلاء مجموعة من الناس ، جاؤوا الى هذا المكان للقيلولة ، ثم الذهاب الى عملهم ، لأن نومهم خفيف ، و الكلب موجود ، و هم يتقلبون ذات اليمينو ذات الشمال بالرغم من استيلاء النوم عليهم.

فقد حماهم الله سبحانه و تعالى من الأعداء بسبب الرعب ، فالحيوانات كانت تخاف من الكلب ، أما الناس فكانوا يرتعبون لأنهم اذا اطلعوا على هذا الكهف وقد نام فيه هؤلاء ، يرون و كأن ابطالا يربضون فيه فيولون عنهم فرارا ، و يمتلؤون منهم رعبا.

لقد أبقاهم الله اجيالا و قرونا على هذه الحالة ، حتى تشابهت حالتهم مع حالة الموتى ، لأن الله لما أيقظهم عبر عن ذلك بالبعث.

جلس هؤلاء من النوم ، و بعد أن انهوا تساؤلهم عن مدة نومهم ، و حيث بلغ اقصى تقدير لهم أنهم ناموا يوما أو بعض يوم شعروا بالجوع ، و كان أحدهم يملك نقودا و كانت عبارة عن سكة فضية دفعها الى وزير الملك ، فتنكر بأن لبس ملابس الراعي و أخذ تلك النقود ، و ذهب الى المدينة ليجد أمامه المفاجأة ، فقد لاحظ أن المدينة تغيرت و أن الأوضاع تبدلت.

كما ان النقود التي كان يحملها كشفت حقيقته و حقيقة جماعته ، لأن حاشية الملك و أعوانه لما افتقدوا هؤلاء كان بعضهم وزراء واداريين كبار ، بحثوا عنهم في كل مكان فلم يجدوهم ، فنشر ذلك الخبر كحادثة مهمة و كتب ذلك في تاريخهم ،و كانت الأجيال تحفظ هذه القصة الغريبة و تتناقلها ، الى أن جاء هذا الوزير متنكرا بلباس الراعي ، و معه تلك النقود المنقوش عليها صورة الملك في ذلك العصر ، فعرف الناس أنهم هم الذين يذكرهم التاريخ المدون لديهم.

بينات من الآيات

[17][و ترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم]

ربما يريد السياق ربط ثلاث حقائق ببعضها في هذه الآية ، و ليكون في اذهاننا صورة ذات ثلاثة أبعاد:

البعد الأول : يرينا آية الشمس ، و كيف أن الله سبحانه أجراها في مسيرها دون أن تتخطى المدار المرسوم لها ، و التزامها بنظام معين ، و هذه لفتة نظر الى السنن الكونية التي يجريها الله بقدرته و حكمته.

البعد الثاني : إذا كيف الانسان نفسه مع هذه السنن يستفيد منها ، فالشمس التي تطلع و تغرب في مسيرة محددة اذا تعرض الأنسان الى وهجها بصورة مباشرة فسوف يتأثر ، و اذا ابتعد عنها فسوف يتأذى ، و اذا كان في موضع معين فانه يستفيد منها ، و هكذا فأن تكيف الأنسان مع الشمس بصورة معتدلة ينفعه.

البعد الثالث :أن تكيف الأنسان مع سنن الكون لا يمكن الا بهداية الله سبحانه ، لأنه هو الذي يحيط علما بهذه السنن ، و يعرف الانسان بها.

و من خلال التدبر في الآية يظهر لنا مدى لطف العلاقة بين كلماتها ، يقول القرآن " و ترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين "أي أن الشمس حينما تطلع فانها تبتعد عنهم.

تزاور : تبتعد و تنحرف . و قال البعض ان مادة الحكمة نابعة من الزيارة و تتناسب مع شروق الشمس كأن الشمس عاقلة و مريدة و هي ليست كذلك ، و لكن الذي قدر للشمس حركتها حكيم و قادر و هو الله سبحانه و تعالى.

[و إذا غربت تقرضهم ذات الشمال]

أي تعبر عنهم و تتركهم ، و كلمة تقرضهم تتناسب و مغيب الشمس.

[و هم في فجوة منه]

أي كان مكانهم متسعا و يعيشون فيه براحة تامة ، و يقال أن باب الكهف كان على الشمال ، فكانت الشمس تطلع عن يمينه و تغرب عن شماله ، و هذه هي مواصفات غرفة النوم الصحية ، أن تكون واسعة ، ولا تشرق عليها الشمس مباشرة ، و لكن قريبا منها ، ذات اليمين و ذات الشمال.

[ذلك من ءايات الله]

و هنا ترتبط قصة الهداية بقصة الشمس ، و حركتها حيث أنها من آيات الله التي تشير الى حكمته و قدرته الواسعة . كما ان بقاء هذه الفئة في الكهف هذه السنين من آيات الله.

[من يهد الله فهو المهتد]

ما دامت هذه من آيات الله و حكمته ، و تدل على أن الله هو الذي جعل الأمور بسنن ثابتة دقيقة ، فعلينا أن نهتدي بهدى الله ، و نلتمس المعرفة منه سبحانه.

[و من يضلل فلن تجد له وليا مرشدا]

أي يرشده الى طريق الحق ، الله هو ولي الانسان الذي يرشده ، ويبين له المناهج الصحيحة في الحياة ، و الذي يريد أن يتبع برامج الله و مناهجه هو المهتدي ، و من يعرض عن ذلك فليس هناك اله آخر يهديه من دونه.

[18][و تحسبهم إيقاظا وهم رقود] يمر عليهم الرجل فيراهم و كأنهم في حالة الإستيقاظ ، و هذا يدل على أن نومهم كان خفيفا ولم يكن مستوليا على كل حواسهم و أعضائهم ، بحيث لم يمكن للناظر أن يكشف لأول وهلة انهم نائمون ، ولعله بسبب عيونهم المفتحة ، و تقلبهم.

[و تقلبهم ذات اليمين و ذات الشمال]

و هذا التقليب يسبب راحة الجسد ، كما يسبب عدم تمزق الثياب و تخرقها.

[و كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد]

الكلب أيضا يربض على باب الكهف ، و كأنه يتربص بكل من تسول له نفسه من انسان او حيوان متوحش أن يدخل الكهف و يؤذي أصحابه.

[لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا]

ومن جهة ثانية فأن مظهرهم كان ينم عن قوتهم و بطولتهم الخارقة ، و يوهم الناظرين بأنهم مستيقضون و ليسوا نائمين ، كان يبعث على الخوف و من ثم الفرار.

[و لملئت منهم رعبا]

و هذا للدلالة على أن منظرهم و مخبرهم كانا يبعثان على الرعب ، اذ ان من يراهم يخاف و عندما يهرب و يبتعد فان قلبه يمتلئ رعبا و من ثم لا يمكن أن يفكربالرجوع ثانية ، و هذه حماية الهية لهم من خطر الأعداء ، ففي الأحوال العادية قد يخاف المرء من شيء و يهرب منه ثم بعدما يهدأ و يتروى فأنه لا يجد مبررا للخوف و من ثم يتمكن من العودة لذلك الشيء ثانية . أما بالنسبة الى هؤلاء فان اسباب الرعب تبقى عند من يراهمحتى بعد ان يتركهم.

[19]لقد ناموا هذه الفترة الطويلة ، و لكنهم بعد ذلك بعثوا من قبل الله سبحانه و تعالى لكي يسأل بعضهم بعضا.

[و كذلك بعثناهم ليتسأءلوا بينهم]

هنا نتوقف قليلا لنطرح هذا السؤال : ما هي العلاقة بين بعثهم و ايقاظهم من الرقاد و بين سؤال بعضهم بعضا ؟

ربما تكون العلاقة بين بعثهم و تساؤلهم ، ان الانسان حينما يكون نائما فأنه يكون غافلا عما حوله ، و حينما يستيقظ فأنه يفهم و يعلم و ينشط فكره ، و أول شيء يأتي الى الانسان بعد اليقظة هو عقله حتى قبل ان تسمع أذنه ، أو ترى عينه ، و تتحرك يده ، فأن عقلهيتحرك و عندما يتحرك العقل فأنه يبحث عن معلومة جديدة.

وهذه الحالة توجد عند الانسان حينما يبعث في يوم القيامة ، حيث يتساءل الناس بينهم يومئذ : كم لبثنا في قبورنا ؟

فبعضهم يقول : يوما ، و بعضهم يقول : ساعة من نهار ، المهم أنهم يطرحون هذا السؤال بينهم و يناقشونه ، و هناك علاقة وثيقة بين قصة أصحاب الكهف و العبرة منها ، و بين قصة الانسان في رحلته الطويلة من الحياة الى الموت ، و من الموت الى الحياة سنذكرها مستقبلا انشاء الله.

[قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم]في البداية قالوا : يوما و كانوا يعتقدون انهم ناموا يوما كاملا ، ثم بعدما حددوا مسير الشمس و فكروا جيدا ، توصلوا الى انهم لم يناموا هذا المقدار فاستدركوا قائلين : أو بعض يوم.

[قالوا ربكم أعلم بما لبثتم]

بعدئذ أخذوا يفكرون اكثر و برزت امامهم عدة تساؤلات .. فربما كانت هناك شجرة امام الكهف فلم يجدوها ، او شاهدوا هنا صخرة لم تكن من قبل ، و بلا شك فان بعض التطورات و التغيرات حدثت في البيئة المحيطة بالكهف ، فتراجعوا عن قولهم ، و علموا بأن هناك حقيقة مجهولة لا تزال غامضة عليهم ، و هي طول مدة نومهم ، لذلك سكتوا عن هذا الأمر و قالوا : ربكم أعلم كم لبثتم ؟ و كيف لبثتم ؟

الطريق الى العلم

و قبل ان ننتقل الى المجموعة الثانية من الآيات ، لا بأس ان نتدبر قليلا في هذه الآية ، ان رحلة الانسان من الشك الى اليقين ، و من الجهل الى العلم ، و من الغرور الى التبصر ، تشبه الى حد بعيد رحلة الانسان من النوم الى اليقظة ، فالنوم و سبات الجسم يشبه سبات العقل و العلم أي الجهل ، فكما ان الله سبحانه هو الذي ينقل الجسم من حالة النوم و السكون الى حالة اليقظة و الحركة ، فهو ايضا الذي ينقل العقل من حالة الجهل و الركود الفكري الى العلم و النشاط الفكري الخلاق ، فعلى الانسان اولا : ان يهتدي الى جهله وهذه بداية مسيرة العلم ، فيقول : انني لا اعلم ، و لكن ذلك لا يعني ان العلم غير موجود ، فالله يعلم ، و لأن الله يعلم و أنا لا أعلم فلابد أن أتحرك نحو الله حتى اقتبس من نور علمه.

و كلمة لبثتم تشمل عدة تساؤلات : كيف لبثتم ؟ كم لبثتم ؟ ما هي مجريات الأمور و تطورات الأحداث التي احاطت بكم في هذه الفترة ؟

[فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة]

في حصول الانسان على العلم عليه الا يصبح متجردا عن الواقعيات ، فأجتهد في تحصيل العلم الذي ينفعك ، و لا تبحث في أمور بيزنطية جدلية ، فالقرآن يقول :أن هؤلاء جلسوا و خططوا و فكروا و قالوا : حسنا كم بقينا على حالنا ؟ و كيف بقينا ؟ تلك قضية جانبية ، أما القضية الأهم فهي الجوع ، فلنتحرك الى ما يفيدنا و نفكر في ما ينفعنا.

بورقكم : هو السكة الفضية.

[فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه]

ان الانسان المؤمن يبحث عن ازكى الطعام ، زكاة مادية و معنوية ، فلا يبحث عن طعام يضره ، كما لا يبحث عن طعام حرام ، بل يراعي النواحي الصحية و الشرعية.

ثم يشير القرآن الى مسألة عدم الإسراف في الأكل ، فلا ينبغي أن يأكل الانسان بقدر ميزانيته بل بقدر حاجته فقط ، لذلك قالوا " : فليأتكم برزق منه. "

أي بمقدار ما تأكلونه و ليس اكثر من ذلك.

[و ليتلطف]

اي ليكن تصرف الذي يذهب ليبحث عن الطعام و يشتريه مهذبا ، و حركاته لطيفة فقد يشتري الانسان طعاما بقدر حاجته ، و لكن بعد العراك و الخشونة مع الناس ، و لكن القرآن ينهى ايحائيا عن ذلك فيقول : " و ليتلطف " و هذا من آدابالمعاملة.

[و لا يشعرن بكم احدا]

و ذلك حتى لا يحس الأعداء بهم ، و هذا يفيد بأن الذي يعمل عملا سريا عليه ان يتكتم على عمله ، و ان يعمل بطريقة ذكية بحيث لا يشعر أحدا بأن عنده عملا سري ، و لا يكفي أن يكتم عنهم نوع عمله

فحسب ، بل حتى يكتم شخصه ، و ذلك حتى لا يدفعه فضوله الى البحث و اكتشاف اسرار ذلك العمل ، و هذا منتهى السرية و الكتمان المطلوب في العمل الثوري الناجح.

[20][إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم و لن تفلحوا إذا أبدا]اما يقتلونكم رجما و هو من اشد انواع القتل و اما يضغطون عليكم فيسببون ارتدادكم عن ايمانكم و في ذلك ابتعادكم النهائي عن الفلاح و السعادة ، و هذا يعني ان على الانسان الا يعرض نفسه وبمحض ارادته لتلك الضغوط التي يخشى على نفسه منها ، و لا يقول احد انا لا يهمني السجن او التعذيب لأني رجل صامد ، فربما تكون الآن صامدا ، و لكن غدا اذا صب عليك العذاب صبا في سجون الطواغيت فقد تفقد ذلك الصمود و تنهار ، و بانهيارك ينهار دينك ، لذلك فأن اصحاب الكهف اتبعوا شروط التقية و السرية من اجل الا تتسبب ضغوط الأعداء عليهم في عودتهم عن دينهم الى دين الملك آنذاك ، و بالتالي يحرمون من الفلاح و السعادة . و الواقع انهم كانوا - لفترة طويلة - يعبدون الله في السر . و اعطاهم الله افضل الجزاء على ذلك جاء في الحديث الشريف المأثور عن أبي عبد الله الصادق)عليه السلام) : "إن اصحاب الكهف اسروا الأيمان و اظهروا الكفر ، و كانوا على جهار الكفر اعظم اجرا منهم على الأسرار بالايمان " (١).

(1)نور الثقلين / ج ٣ - ص 244

و ان الساعة لا ريب فيها

هدى من الآيات

كنا مع أصحاب الكهف و قد بعثوا بأحدهم الى المدينة ليجلب لهم الطعام بما يكفيهم رزقا ، و ذهب الرجل بعد (٣٠٩) سنة و قد دارت الدنيا و تغيرت الأحوال و تبدلت الملوك ، و جاء بسكة قديمة فعرفها الناس و تيقنوا أن هذا واحد من الذين خرجوا من ديارهم ، و أسسوانواة الحركة التوحيدية ، تلك الحركة التي كانت في ذلك اليوم و بعد السنين الطويلة حاكمة على البلاد ، ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ .. و هل عاد هؤلاء الى كهفهم مرة أخرى و ناموا في رقدة طويلة لا يستيقظون منها الا يوم القيامة او يوم الحشر الأصغر ؟ القرآن لا يجيب على ذلك و الله وحده العالم.

بينات من الآيات

[21]يذكرنا القرآن بحقيقة يجب أن نعتبر بها من خلال قصة أصحاب الكهف ، و هي حقيقة البعث و النشور التي يلخصها الحديث القائل : " كما تنامون تموتون و كما تستيقظون تبعثون " ، و اذا فكر الانسان بأنه قادر على مقاومة الموت فليبدأ ذلكبمقاومة النوم ، و اذا أراد الانسان ان يعرف كيف يبعث بعد ان يموت فليفكر كيف يستيقظ بعد ان ينام ، و اذا اراد الانسان آية تدل على ذلك فلينظر الى الحياة كلها ، فالحياة جميعا موت وبعث.

البعث في الحياة ليس شيئا بدعا ، فكل شيء في الحياة له بعث ، و في الانسان نفسه دليل على البعث ، كيف كان نطفة في صلب أبيه ، ثم في رحم أمه ، ثم ولد طفلا رضيعا ، ثم نما فأصبح رجلا ضخما قويا أو ليس ذلك بعث ؟

و هذه الأرض تراها مرة فينزل الله سبحانه عليها ماء من السماء ، فإذا به تهتز و تخضر ، ثم لا تلبث هذه الخضرة أن تموت و تصبح هشيما تذروها الرياح . هذه قصة الحياة كلها . أو يكون صعبا على خالق هذه الحياة أن يحيي الناس بعد موتهم ؟!

هذا مع العلم بأن عقولنا القاصرة الصغيرة تعتقد بأن الإحياء بعد الموت أسهل عند الله من الإحياء بعد العدم ، و هذه المعادلة خاطئة بالنسبة الى قدرة الله عز وجل ، لأن قدرة الله لا متناهية ، و هو لا يبذل مجهودا ولا يتعب حتى يكون عنده شيء أسهل من شيء آخر، و لكن بحسب مفاهيمنا و خبراتنا الحياتية ان إعادة صنع شيء أيسر من ابتداء صنعه و اختراعه ، فكيف نؤمن بأن الحياة لم تكن ثم كانت و لا نؤمن انها بعد اندثارها ستعود ثانية ؟

لذلك علينا ان نستفيد من قصة اصحاب الكهف هذه العبرة.

[و كذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق و أن الساعة لا ريب فيها]نستطيع ان نستخلص من هذه الآية ثلاثة أمور:

أولا :صدق وعد الله لعباده المؤمنين الصالحين بالنصر ، حيث نصر اصحابالكهف حين حماهم من بطش الطغاة ، و نصر رسالة اصحاب الكهف حين أباد أولئك الطغاة و حكم الصالحين في البلاد ، و جعلهم خلفاء و أئمة.

ثانيا : اراد الله سبحانه أن يعرف الانسان أن الأمور بيده ، و أنه قادر على ان يفعل ما يشاء من الأمور التي يتصور الانسان انها مستحيلة ، و هي كذلك فعلا حسب قدرة المخلوق المحدودة ، أما حسب قدرة الله المطلقة فهي سهلة و ميسورة ، وذلك مثل قضية البعث و الإحياء.

ثالثا : ان العلم و الجهل ، و الهدى و الضلال ، انما هو من قبل الله سبحانه و تعالى ، فخلال هذه الفترة الطويلة فتش الناس عن اصحاب الكهف الذين كانوا موجودين في منطقة قريبة جدا منهم ، بدليل أن ذلك الرجل الذي بعثوا به ليشتري الطعام نزل من الكهف و توجه الى المدينة من فوره ، الا أنهم لم يجدوا لهم أثرا ، ولكن الله أعثر عليهم عندما اراد أن يعلموا بالأمر ، فالعلم و اسباب العلم من الله سبحانه .

و الســـؤال ما هي العلاقة بين ان يكون وعد الله حقا ، و ان تكون الساعة لا ريب فيهـا ؟

الجواب :ان الساعة تدخل ضمن وعود الله ، فقد وعد بها الصالحين و توعد بها المجرمين ، و نحن نستطيع أن نبصر ذلك من خلال مجريات الأمور في الحياة ، و من خلال تدبرنا في احداث التاريخ ، و ان الله حينما يعد فأنه يفي بوعده في الدنيا ، و حينما وعد ان ينصر الصالحين فعل ، و حينما وعد ان يستخلف المستضعفين فعل ، و حينما وعد ان يعين المتوكلين عليه فعل ، و الله سبحانه صادق الوعد ، و ما دام كذلك فأنه يوم القيامة ايضا يفي بوعده.

زيارة القبور:

وقف هؤلاء على باب الكهف ، و وجد ان أولئك الذين كانوا الى ساعة قريبةاحياء ، قــد ماتوا حينما شاء الله ان يموتوا ، فالحياة و الموت بيد الله ، فوقفوا مدهوشين : كيف بقي هؤلاء احياء هذه الفترة الطويلة ؟ و كيف ماتوا فجأة ؟

[إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم]ماذا نفعل بهم ؟ كيف نمجدهم ؟ كيف نبقي ذكرهم حيا في النفوس ؟

[قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا]

اتخد الملك و حاشيته و الذين كانوا غالبين على أمر الناس ، قرارا ببناء مسجد على مقابل تلك الطلائع الثائرة.

ونتوقف هنا قليلا لندخل في حوار مع بعض المفسرين ، فالمؤمن يجب ان يظل ذكره حيا في النفوس لأنه قدوة حسنة ، و القرآن الحكيم يبين دائما قصص الأنبياء و يمدحهم من أجل ان يجعل منهم قدوات حسنة للأجيال ، و من آثار المؤمن قبره ، لذلك يستحب شرعا أن يزور المؤمن المقابر.

ان أفضل عمل نقوم به عند مقابر المؤمنين هو ان نتعبد الله سبحانه و تعالى هناك ، و ان نقرأ القرآن و نتذكر الموت ، و يعظ أحدنا الآخر ، و نجدد ذكرى هؤلاء و نبين رسالتهم التي عملوا لها و ماتوا من أجلها و نصلي لله ، أو ليس من الأفضل أن نصلي لله ركعات و نبعث بثوابها الى أرواحهم.

و حينما نريد ان نجعل بيننا و بين الأموات من المؤمنين و الشهداء رابطة ، أو ليست أعمال الخير و البر ، و الصلاة ، و الدعاء ، و تلاوة القرآن و ما اشبه خير رابطة ؟ !بلى من هنا يذكرنا القرآن في هذه الآية : " ان الذين غلبوا على أمرهم) " و يبدو أنهم كانوا من المؤمنين) قالوا : لنتخذن عليهم مسجدا نتعبد فيه

الله ، و نتذكر القيامة ، و نتذاكر سيرتهم ، و القرآن يوحي لنا بأن هذا العمل عمل مشروع ، بدليل انه ذكرهو لم يستنكره او ينهى عنه .. كيف ذلك ؟

اقرأوا القرآن و تدبروا فيه ، لتعلموا ان هذا الكتاب الذي أرسله رب حكيم لا يتكلم الا بميــزان دقيق ، و هو لا يذكر لنا قصة تاريخية و لا عملا قام به الأولون الا لأحد أمرين : أما لكي ينهى عنه أو لكي يأمر به ، فاذا لم ينه عنه فهو يأمر به.

و هذا رد حاسم على البعض الذين يفتون بأن زيارة قبور الأنبياء و الأئمة المعصومين (ع) و الصالحين ، و الصلاة و التعبد في مقاماتهم الشريفة ، بدعة و ضلالة و حرام ، و نحن نتساءل : من الذي قال أنه كذلك ؟

ان القرآن في هذه الآية بالذات يبين لنا ان هذا العمل كان جيدا و مشروعا ، و القرآن جاء ليطبق لا لكي يناقش في آياته حسب الآهواء ، أو حتى حسب الأحاديث غير المعروف صحتها و وثاقة سندها ، ثم ان الحديث مهما كان موثق السند ، فإنه لا ينسخ القرآن ، و الحديثالذي يتضارب مع القرآن لابد ان نضرب به عرض الحائط!

المنهج العلمي لا الرجم بالغيب

[22][سيقـولون ثلاثة رابعهم كلبهم و يقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب[

اي ان الذي يتكلم دون ان يستند الى معلومات و حقائق ثابتة ، فمثله كمن يقذف حجرا في الظلام الدامس ، لا يعرف احد اين يقع ؟

[و يقولون سبعة و ثامنهم كلبهم]

لقد جاءت الآية بكلمة رجما بالغيب قبل ان تقول سبعة و ثامنهم كلبهم ، ممايوحي بأن هذه الفكرة ليست رجما بالغيب.

[قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا]هنا تنتقل الآيات من الحديث عن البعث و عن وعد الله سبحانه ، الى الحديث عن قضية اخرى و تلك هي قضية العلم ، و ماذا يجب على الانسان ان يقول و يعتقد ؟

ان عليه ألا يرجم بالغيب و الا يغتر بمعلوماته لأن علمه مهما بلغ فهو قليل ، و الذي عنده علم ، عليه ألا يضع علمه للمراء و الجدال ، بل يمر على المسائل الجدلية العقيمة مسرعا ما امكن ، أي يؤمن بالحقيقة و يبين حجتها ثم يذهب ، لأن المراء يفسد العلم ، و يجعل فكر الانسان متجها الى وسائل الإستعلاء على الآخرين ، و ليس الى الحقيقة ، وبالتالي يصبح فكرا مستعليا مستكبرا لا يستوعب الحقائق ، و العلم هو ابن التواضع ، و المعرفة بنت الخلق السمح ، كما ان الأستكبار حجاب العلم ، و الأستعلاء يهدم المعرفة.

[و لا تستفت فيهم منهم أحدا]

لو فرضنا أن جاهلا يريد أن يستفتي ، فهل يبحث عن كل جاهل مغرور يجمع ركام الخرافات على ظهره و يستفتيه في أمور دينه و دنياه ؟ كلا..

و ربما تدل هذه الآية على ما قلناه آنفا ، و هو ان القرآن لا ينسخ بالحديث ، و علينا ألا نحجب انظارنا عن القرآن بحجب التاريخ ، حيث نجعله منظارا ننظر من خلاله الى القرآن ان علينا ان ننظر الى القرآن و كأنه أنزل علينا هذه اللحظة ، و الا نجعل آيات القرآنمدفونة في أضلع التاريخ قبل ١٤٠٠ عام ، و كأن هذه الآية نزلت لفلان ، و الآية تلك نزلت لفلان ، و الآية تلك نزلت لفلان ، و ان الحادثة الفلانية هيالتي استنزلت القرآن في بدر أو أحد أو غيرهما ، لقد انزل الله القرآن ، لكل زمان و مكان و انسان ، فعلينا ان نقرأه بهذه الطريقة ، و لعل هذه الآية تشير الى هذه الحقيقة ، و انه مادام القرآن قائم بيننا ، فلم نذهب الى التوراة

و الأنجيل ، و الأفكار الموجودة فيالكتب المنحرفة و الأساطير المبثوثة عند الناس ، و نستفتي من يعرفها و يحملها ؟

الحياة بين تدبير الرب و تقدير العبد

] [23]و لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا[

] [24]إلا ان يشاء الله و اذكر ربك إذا نسيت و قل عسى أن يهدين ري لأقرب من هذا رشدا]لأول وهلة تبدو هاتان الآيتان غير مترابطتين مع بعضهما ، و لكن لنتدبر فيهما قليلا..

لما كانت الحياة تتطور باستمرار ، كانت رسالات الله قد وضعت حسابات دقيقة لمتغيرات الزمان ، و تطورات الأحداث ، فيجب على الانسان ان يضع الرسالة التي انزلت عليه نصب عينيه في كل تصرفاته و اعماله ، و لا يتركها لأن فلانا قال كذا ، أو أن السابقين عملوا هكذا.

و القرآن الحكيم يأمرنا بهذا في الآية الأولى ، أما في الآية الثانية فأنه يوجهنا الى موضوع دقيق ، فيقول : ان على الانسان الا يضع لنفسه برنامجا طويل المدى دون ان يحسب حساب متطورات الزمان في برنامجه ، فالله سبحانه لا يأمر بشيء جامد ، و انما يأمر باتباع القيم التي تطبق في كل وقت بصورة معينة.

ليس لك ان تقول غدا سأعمل العمل الفلاني ، لأنه قد يأتي الغد و تتطورالأحداث فيه ، و يكون الواجب عليك عملا آخر يختلف عما عزمت عليه ، فعليك ان ترتبط بالله ورسالته التي انزلت عليك ، و التي يفهمها عقلك ارتباطا وثيقا مباشرا ، و لا ترتبط بخطة معينة او بتاريخ معين ، او بأفكار سابقة ، او بكتب مكتوبة ، او ببرامج جامدة ، و هذاهو منتهى) التقدمية) في القرآن ان صح التعبير.

أما ربط العمل بالمشيئة فله معنيان:

الأول :المعنى الظاهر و المعروف ، و هو ان مواهبي و امكاناتي كانسان ، و امكانات الطبيعة و فرص العمل ، كلها متصلة بإرادة الله سبحانه ، فان له ان يوفقني غدا لعمل او لا يوفقني ، و هذا الإستثناء بالمشيئة هو المعنى المألوف.

و من هنا يقول الأمام علي (ع) : " عرفت الله بفسخ العزائم و نقض الهمم " اي اني عزمت على شيء فجاء القضاء و فسخ عزيمتي ، و هممت بشيء فجاء القدر و نقض همتي.

الثاني : ان الله اذا أمرني غدا بهذا العمل فسوف أعمله ، و اذا نهاني فسوف اتركه ، فعملي و عدم عملي غدا مرتبط بما يأمر به الله غدا و ليس اليوم ، فقد يكون افضل عمل اليوم هو الصلاة و التعبد في المسجد ، و لكن غدا قد يكون افضل عمل هو الإشتراك في التظاهرات ، و بعد غد افضل عمل هو العمل المسلح ، و بعده افضل عمل ان اجلس على اريكة الحكم و ادير شؤون الناس ، فعلي دائما ان اضع خططي حسب ما يأمر به الله و ليس حسب مشيئتي و رغبتي ، و اجعل هواي باستمرار موافقا لما يريده الله سبحانه.

جاء رجل الى الامام الصادق (ع) فقال له الامام " :كيف اصبحت ؟ فقال : اصبحت و اللـــه و المرض خير لي من الصحة ، و الفقر خير لي من الغنى ، و الذل خير لي من العزة .. الخ . فقال الأمام : اما نحن فلسنا كذلك . قال : فكيف انتم ؟ قال:

نحن اذا احب الله ان يمرضنا ، فالمرض احب الينا من الصحة ، و اذا احب ان يرزقنا الصحة فالصحة احب ، فالفقر احب مع رضا الله و الغنى احب مع رضا الله ، و ان كان الذل في سبيل الله فهو محبوب ، و اذا كان العز في سبيل الله فهو المحبوب. "

هذه هي أهم صفة للمؤمن وهي : أن يكون راضيا برضا الله ، و ان يعمل بما يأمر به اللـه و اذا وصلت الى هذه الدرجة فأحمد الله أنك قد بلغت مستوى رفيعا من الايمان ، و الا فاسع للوصول الى هذا المستوى.

و لا بأس أن اضع برنامج للمستقبل ، و لكن على شرط أن أستثني فيه و أقول : انشاء الله ، بحيث اذا تغيرت الظروف و تغير أمر الله بالنسبة لهذا البرنامج ، فاني سوف أغيره تبعا لذلك التغيير.

في بعض الاوقات يدخل الانسان الى حزب باعتباره وسيلته الى الله سبحانه ، و لكن شيئا فشيئا يتحول الحزب الى اله يعبد من دون الله ، و في اخرى يتبع الانسان احدا على أساس انه رجل مؤمن عالم ، و يجعله سببا بينه و بين الله يبتغي بذلك مرضاة ربه ، و لكن شيئا فشيئا يتحول هذا الرجل الى صنم يعبد من دون الله ، و كذلك في بعض الاوقات يضع الانسان لنفسه برنامجا ليطبقه امتثالا لأمر الله ، و لكن شيئا فشيئا يتحول البرنامج في حياته الى برنامج ضلالة و جبت.

حينما تتبع أحدا وطن نفسك على أن تتبعه من أجل الله ، وكذلك حينما تنتمي الى جماعة فاجعل انتماءك الى الله أقوى من انتماءك اليهم ، و اطلب دائما من الله ان يرشدك الى أتباع العالم الأفضل ، و البرنامج الأكمل ، و الجماعة الأكثر ايمانا و تقوى ، و كن دائما أمام زمانك ، و لا تسمح لنفسك أن تصبح قطعة متحفية مرتبطة بالتاريخ ، أو حتى بما قبل التاريخ.

[25][و لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا]كيف لبثوا هذه المدة ؟ و باية حالة و بتدبير اية قوة ؟

[26][قل الله أعلم بما لبثوا]

لا تبحث حول هذا الموضوع ، فالله اعلم كيف و متى و انى لبثوا!

[له غيب السموات و الأرض أبصر به و أسمع]

ابصر و اسمع و ما أشبه صيغ لغوية تفيد المبالغة و التعجب ، اي اعظم الله بما يراه بصرك أو تسمعه اذنك اذ كل شيء تراه أو تسمعه فهو آية لله سبحانه.

[ما لهم من دونه من ولي و لا يشرك في حكمه أحدا]

ليس لله شركاء من آلهة الثقافة و الحكم أو كهنة المعابد ، انه الواحد الاحد و لا يشرك في حكمه أحدا ، لذلك على الانسان ان يتصل مباشرة بالله سبحانه ، و لا يجعل بينه و بين الله واسطة الا اذا أمر الله بها و في حدودك ذلك لا اكثر.

زينة الحياة و ضمانات الإستقامة
من الإطار العام

إن من مظاهر اعجاز القرآن الحكيم ، ان آياته الكريمة تتبع عدة خطوط متوازية و متناسبة ، تتظافر على توجيه فكر الانسان الى قضية جوهرية معينة . فالسورة الواحدة من القرآن تتحدث عن عدة أمور تبدو متباعدة ، و لكنها آخر الأمر تصل الى هدف واحد ، أو عدة أهدافمحددة و مترابطة.

و في سورة الكهف ، و كما اكدنا على ذلك في بدايتها ، نجد ان الموضوع الرئيسي فيها هو علاقة الانسان بالحياة الدنيا ، و موقفه من زينة الأرض و متاع الغرور و هي اشياء زائلة ، اذ أن يد القدرة المطلقة و هي يد الله سوف تمسح زينة الحياة ، و تدع الأرض صعيدا جرزا في لحظة واحدة.

و لذلك فان على الانسان الا يربط علاقته بهذه الزينة ربطا متينا ، بل تكون العلاقة المتينة مع الله رب هذه الحياة و رب هذه الأرض ، و تكون علاقته بزينة الحياة علاقة فوقية يتملكها دون ان تتملكه.

فـي قصة أصحاب الكهف كانت العبرة الرئيسية هي : اقلاع هؤلاء من ارض الزينة ، و تحليقهم في سماء القيم ، و قدرتهم على تجاوز ضغط السلطة الطاغية ، و القرآن يحدثنا عن صورة اخرى متقابلة و معاكسة

لصورة اصحاب الكهف ، و هي صورة ذلك الرجل الذي اخلد الى الأرض و اتبع هواه ، و تملكته زينة السلطة ، و لم تنفعه نصيحة صاحبه.

هدى من الآيات

لقد كان اصحاب الكهف مثلا لفرار البشر من جاذبية المادة و زينة الحياة الدنيا . و السؤال كيف نصبح أمثالهم ، الجواب بما يلي:

أولا :العمل بالضمانات الوقائية التي تخلص الانسان من ضغوط زينة الحياة ، و كيف يمكن للانسان ان يسور نفسه بقلاع تحفظه و تمنعه من تلك الضغوط.

و أولها : تلاوة القرآن و الارتباط المباشر بآياته الكريمة ، تلك الآيات التي لا تتبدل بالرغم من تبدل الحياة و تطورها ، و هذا هو المهم ، اذ حينما تتعلق بزينة الحياة فانك سوف تتعلق بشيء يزول و لا يبقى ، انه حبل ينقطع و جدار ينقض إذا لابد أن تتعلق بحبلمتين و تعتمد على جدار راسخ ، و هو كتاب الله.

ثانيا : ان يكون انتماؤك الى التجمع الايماني ، و حينما تنتمي الى مثل هذا التجمع و تختار الأفراد على أساس القيم الرسالية ، فسوف تحصن نفسك بسور آخر من اسوار الحماية ضد ضغط الزينة.

ثالثا :التحدي و الأستعداد للصراع ، و هذا يعني استعداد الأنسان للصراع مع العدو و مواجهته ، و هو سور آخر يحتمي به الانسان من مغريات زينة الحياة و متاعها الزائل.

بعد أن يبين السياق هذه الأسوار الثلاثة ، يؤكد على بعض القيم المساعدة على توجيه الانسان في هذا الاتجاه ، و يبين : ان كل عمل يعمله الانسان يحفظ له سواء كان صغيرا أو كبيرا ، و سواء كان الانسان منتميا الى الايمان انتماء راسخا أو لم يكن كذلك.

ان العمل لا يضيع عند الله في أي شكل كان ، و بأي صورة ظهر ، و الله يعوض الانسان عن زينة الحياة الدنيا بالزينة الباقية في الحياة الآخرة ، تلك الحياة التي هي الحيوان عند الله المقتدر العزيز.

بينات من الآيات

بين الثوابت و المتغيرات

[27][واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك]

القرآن مصباح و نور ، و على الانسان ان يتلوه و ان يتبصر و يتعقل ، و بالتالي فـلا يمكـن الاكتفاء بالنور عن الرؤية ، لأن الانسان الذي يغمض عينيه سوف لن يرى شيئا ، حتى ولو كانت الشمس في كبد السماء.

و ربما يكون المقصود بالتلاوة هو التدرج ، و ان يبحث الانسان عن الشيء دفعة دفعة ، و فكرة فكرة ، و هذه قاعدة منطقية معروفة اليوم و هي : اذا أردت أن تعرف شيئا فقسمه الى اجزاء صغيرة ، حتى تستطيع ان تسيطر عليه و تفهمه.

[لا مبدل لكلماته]

و هذا يبين لنا أن هناك خطا ثابتا في الحياة و خطا آخر متطورا ، و الخط الثابت هو كلمات الله ، و هو الذي يجب ان يتعلق به الانسان ، اما الخط المتغير فهو زينة الحياةالدنيا ، الذي يجب ان يسيطر عليه الانسان.

[و لن تجد من دونه ملتحدا]

اذا أردت أن تعتمد على شيء فلن تجد من دون الله من تعتمد عليه و تلتجئ اليه ، فكل شيء ينهار ، و لكن توكلك على الله سبحانه و تعالى سوف يبقى ، و هذا هو السور الذي يحمي كيانك.

الإنتماء ، شروطه و مقوماته

و بعد أن تهيء نفسك في البداية ، و تنتهي من تكوين شخصيتك ، فأن عليك ان تبحث عن رفاق المسيرة.

[28][واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداوة و العشي يريدون وجهه]حينما تريد ان تنتمي الى جماعة فأن هناك عقبات في طريق انتماءك و يجب ان تتجاوز هذه العقبات و ان تصبر نفسك عليها ، فلكل انتماء ضريبة و عليك ان تدفعها و السؤال : من الذين تنتمي اليهم ؟

إنهــم العابدون لله ليلا و نهارا ، و لكن الإنتماء الى خطهم صعب و بحاجة الى صبر:

"واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه "ابحث عن هؤلاء و انتم اليهم ، و تجاوز العقبات ، وضح من أجل انتماءك اليهم ، و لا تبحث حينها عن فوائد و مصالح خاصة ، بل وطن نفسك على العطاء ، و ان حسنالإنتماء ليس في أن تحمل افراد التجمع مؤونتك بل في ان تحمل معهم اعباءهم ، لذلك أكد القرآن هنا على كلمة الصبر.

[و لا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا]

قد يتأثر الانسان بإهتزاز في رؤيته الى الآخرين ، و الى التجمع الذي يجب ان يتعلق به و يتفاعل معه ، و ذلك الإهتزاز يأتي نتيجة ضغوط زينة الحياة الدنيا ، قد يرى الانسان مؤمنا عجوزا اعمى ان دفعه دفعة يسيرة سقط و مات ، يرى الى جانبه ذلك الكافر و لكن البطل القرشي ذا المال و النسب ، فيعد هذا أحسن من ذلك ، و يكون شأنه كشأن ذلك الرجل المسلم من اصحاب رسول الله مع ابن (ام كلثوم) ، حيث اعرض عنه برغم ايمانه لأنه أعمـــى و فقيـر ، و اقبل على من يمتلكون زينة الحياة و يفتقرون الى زينة القلوب (التقوى) . فجاءت الآيات من سورة عبس تنذره و توعده.

اجعل نظرك معلقا على هؤلاء المؤمنين و اهتمامك موجها الهيم ، و لا تسمح بتسرب الإزدواجية في الولاء الى نفسك ، فتريد ان تنتمي الى جماعة رسالية ، و في نفس الوقت تنتمي الى اصحاب الحياة و الثروة ، حتى اذا ما احرز هؤلاء تقدما كنت معهم ، و اذا حصل اولئك على مكاسب انثنيت اليهم ، ليكن ولاؤك خالصا و لا تكن انتهازيا!!

من صفات القائد

[ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا]

هذا التجمع بحاجة الى قيادة ، فمن هو القائد ؟ و ما هي صفاته ؟

القرآن يقول : ان اهم صفة للقائد هي الروح الايمانية المتصلة بذكر الله ، فلاتطع ذلك القائد الذي لا يتبع مناهج الله ، و قلبه فارغ من التقوى ، بالرغم من ان اعماله قد تكون في طريق التقوى ، كأن يصلي و يصوم أو يبني مسجدا وما شابه ، الا ان قلبه فارغ من ذكر الله . كلا اذ كل يعمل على شاكلته ، (أي على نيته) و نية الانسان هي التي تصبغ حياته ، و هدف الانسان هو الذي يحدد مسيرته ، فكثيرون يبنون المساجد و المدارس و ينفذون المشاريع الخيرية ..الخ ، و لكن بعد أن يصلوا الى دفة الحكم يتخذون مال الله دولا و عباده خولا!!

فهل يجوز أن نتبع مثل هؤلاء ؟

القرآن يقول : كلا .. و يعطينا مقياسا نميز به من يصح اتباعهم ، و ذلك المقياس هو القلب ، فان وجدت قلب انسان مضاء بذكر الله فلك ان تتبعه ، و الا فلا يغرك مظهره.

[و اتبع هواه و كان أمره فرطا]

اذا اردت ان تعرف هذا الانسان يتبع هواه ، او يتبع الرسالة ، فأنظر الى تصرفاته ، فالذي يتبع الرسالة تكون تصرفاته و سلوكياته ثابتة مستقيمة ، و تستوحي هداها من برامج الله القويمة . اما تصرفات ذلك

الذي يتبع هواه فهي تتغير حسب الهوى ، و يكون أمره فرطااي غير منظم ، و هذا هو السور الثاني . و الخط الثاني للدفاع ضد غرور الشهوات.

و أما السور الثالث فهو:

[29][و قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر]حينما تقرأ القرآن و تستلهم منه ، و تنتمي الى التجمع الرسالي ، آنئذ تحد المستكبرين و ادخل معهم في المواجهة و الصراع ، و لكن كيف يمكن تطبيق هذه الآيةو الدنيا تمتلئ بالقوى الجاهلية ؟

الله يقول:

[إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها]

سرادق النار في جهنم أشبه بالمعتقلات التي تحيط بها اسوارا عديدة ، بحيث يستحيل على المعتقلين ان يتخطوها و يفلتوا منها ، و دركات جهنم محيطة بأهلها و مغلقة عليهم ، فأين المفر ؟؟

[وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه]

ان اهم شيء يحتاجه الانسان الملتهب بالنار هو الماء ، و لكنه عندما يطلب الماء فأنه يؤتي به شديد السخونة كالرصاص المذاب يشوي الوجوه.

و الانسان حينما يشرب شيئا ساخنا يحترق فمه و جوفه ، و لكن المهل لشدة حرارته فإنه يشوي جلد وجه الانسان قبل ان يشرع في شربه ، فماذا يمكن ان يحصل للبطن و الأمعاء عندما يستقر بها ذلك السائل الحارق ؟

[بئس الشراب و ساءت مرتفقا]

ليست جيـــدة تلـــك الضيافـة التي يضيف الله بها عباده الظالمين ، في نار جهنم التي " ساءت مرتفقا " ، و لكن الله ذكرهم فأرسل اليهم الرسل مبشرين و منذرين ، و انزل القرآن فلم يستمعوا له ولم ينصاعوا للحق ، و اختاروا لأنفسهم هذا المصير الأسود.

[30][إن الذين ءامنوا و عملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا]و في المقابل لا يضيع الله اجر المحسنين ، و انظروا الى التعبير القرآني حيث يقول : " انا لا نضيع اجر من احسن عملا " و لم يقل انا لا نضيع اجرهم و لعل معناه ان الأجر لا يضيع أنى كان و من أي انسان كان ، فالعمل الصالح اذا كان منك ايها المؤمن فإنالله لا يضيعه ، فأما ان يعطيك جزاءه في الدنيا و اما في الآخرة ، و كذلك اذا كان من الكافر . فسوف لا يضيعه الله ايضا ، فأما يعطيه جزاءه في الدنيا أو يخفف عذابه في الآخرة.

و لقد قلنا سابقا : ان العمل الصالح تسبقه النية الصالحة ، حيث ان النية الصالحة هي التي تعطي للعمل صبغة الصلاح ، و بدونها يفقد العمل هذه الصبغة مهما كان ظاهره سليما و صالحا.

[31][أولئك لهم جنات عدن]

اي جنات باقية دائمة بعكس الدنيا التي تزول.

[تجري من تحتهم الأنهار]

بعكس ذلك الشراب الذي يشوي الوجوه.

[يحلون فيها من أساور من ذهب]

تماما بعكس تلك الضيافة السيئة.

[و يلبسون ثيابا خضرا من سندس و إستبرق]

السندس و الإستبرق أنواع من الأقمشة الحريرية الفاخرة.

[متكئين فيها على الأرائك]

اي هم في راحة و هدوء لا يجدون ما يجده الانسان في الحياة من تعب و نصب ، و لا يحملون هموم العمل والإسترزاق.

[نعم الثواب و حسنت مرتفقا]

جاء في حديث عن الامام علي (ع) يذكر فيه بدعائم الأيمان يقول : " من تذكر الجنة سلى عن الشهوات " . فإذا رأيت قصرا لظالم بناه بهدم بيوت الآخرين ، فلا تسمح للشيطان ان يدفعك الى انت تظلم الناس و تبني قصرا مثله ، و لكن قل انشاء الله جعل لي قصرا في الجنة أفضل منه.

و اذا حدثتك النفس الأمارة باللجوء الى الكسل ، و الراحة ، و ترك الأعمال و الواجبات المطلوبة منك ، فتحامل على نفسك و قل : انشاء الله ارتاح على آرائك وثيرة في الجنة.

و اذا لمست رغبة عندك في أن تتمحور حول أصحاب الجاه و الثروة ، فأسبق الزمن بمخيلتك ، و انظر الى نفسك و أنت في الجنة بجوار الأنبياء و الأئمة و المؤمنين الصالحين ، الذين هم امراء الآخرة و ملوكها و وجهاؤها ، و بين الانسان و الجنة خطوة واحدة لا أكثر وهي الموت ، و بين غمضة عين و انتباهتها تجد نفسك انتقلت من الدنيا الى الآخرة . اذن ليفكر الانسان بالحياة الآخروية القادمة ، و يتسلى عن الشهوات ، و بمجرد ان يفكر الانسان بالموت و القبر و الحساب ، فإن نفسه تنصرف تلقائيا عن الشهــوات ، قال رسول الله (ص):
"اذكروا هادم اللذات " أي الموت ، فلنكن معا من الذاكرين.

الانسان بين تأليه المادة وعبادة الله

هدى من الآيات

سبق وان تحدثنا عن الإطار العام لسورة الكهف ، و الذي يبين لنا نوعين من العلاقة بين الانسان و الطبيعة هما:

أولا : علاقة السيطرة و التسخير للطبيعة.

ثانيا : علاقة الإنبهار بما فيها من زينة.

و في هذه المجموعة من الآيات يضرب القرآن مثلا من تلك العلاقة التي تربط الكفار بالدنيا ، فيعتمدون عليها و يحسبون انها خالدة لهم ، و لكنها لا تلبث أن تنتهي ، و اذ ذاك يكتشفون ان العلاقة الصحيحة ينبغي ان تكون بينهم و بين ربهم ، و ان الولاية الحق هي لله لا للمال و الثروة ، و لا للجاه و السلطة.

بينات من الآيات

بين الشكر و الكفر

[32]رجل اعطاه الله جنتين ، و توفرت له كل أسباب الزينة فبطر بها ، و بدل أن يشكر ربه اغتر بما أعطاه من ثروة و نعمة ، و بدل أن يعتز بمن أعطاه هذه النعمة ، اعتز بالنعمة ذاتها ، في حين ان من اعطى النعمة خالد دائم و النعمة منقطعة زائلة ، و هو أولى بالشكر و العبادة منها.

و حينما جادله صاحبه في هذا الأمر جدالا حسنا ، و حاول ان يذكره و ان ينذره و يحذره من عاقبة بطره و غروره ، أخذته العزة بالإثم ، فكان مصيره ان خسر جنتيه و لم تبق له الا أرضا جرداء خاوية على عروشها ، قد غار ماؤها و احترق زرعها و اصبحت صعيدا جرزا.

و هكذا فقد استولت على الرجل كآبة فجرت قلبه ، و ندم ندما شديدا على اغتراره بالنعمة ، و اعتزازه بالولد و العشيرة الذين لم ينفعوه شيئا في محنته.

اما ذلك الرجل الفقير بماله و عشيرته ، و الغني بأيمانه بربه و توكله عليه ، فقد أخذ يردد هناك : هنالك الولاية لله الحق.

و في حديثه عن الجنتين ، و عن علاقة ذلك المشرك بهما ، يبين لنا القرآن بعض ضروب و عوامل الغنى التي وفرها لنفسه و لكنها لم تغنه عن الله شيئا ، فأصبح يقلب كفيه و ليس فيهما الا الحسرة.

[واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين]

اولا : يجسد احد الرجلين الأيمان المتسامي عن زينة الحياة الدنيا ، بينما يستبدبالآخر حب الدنيا ، و يشغله متاعها الزائل.

ثانيا :امتلاك الرجل لأكثر من جنة ، يشير الى بعض الأساليب الأقتصادية التي يلجأ اليها الرأسماليون لضمان تدفق الأرباح عليهم ، فإذا خسرت جنة هنا فإن الجنة الأخرى و التي تكون في مكان آخر ستعوض النقص و تعدل الميزانية.

[من أعناب و حففناهما بنخل و جعلنا بينهما زرعا]

و هذه طريقة يلجأ اليها المزارعون ، فيحيطون بساتينهم بأشجار مقاومة للرياح و الأعاصير كالنخيل ، ويزرعون الأعناب في الوسط ، و الأرض المتبقية بين هذه و تلك يزرعونها بالخضروات المختلفة.

[33][كلتا الجنتين ءاتت أكلها]

شاء الله سبحانه ان يملي لذاك الرجل فأفاض عليه الخير فيضا ، و أذن للجنتين ان تدرا المحاصيل الوفيرة ، و هكذا اذا اراد الله بعبد سوء لسوء نيته فأنه يوسع عليه النعم في بعض الأحيان ، ليستدرجه و يبتلي ما في داخل نفسه من سوء و فساد.

[و لم تظلم منه شيئا و فجرنا خلالهما نهرا]

لقد اعطى الله لذلك الانسان تلك الجنان ، فأعطت صاحبها كل ما يتأمله منها من ثمار طيبة ، ولم تظلمه و لكنه ظلم نفسه ، فواجه احسان الخالق اليه بالإساءة الى نفسه ، عبر غروره و استكباره ، و اعراضه عن شكر ربه المنعم المتفضل.

دركات الهبوط

[34][و كان له ثمر]

الملاك و الفلاحون و من لهم ارتباط بالأرض و الزراعة ، يعلمون ان لحظة الحصادلحظة سعيدة في حياتهم ، تبعث في انفسهم الغرور ، لأنهم بعد صبر و انتظار طويل يرون الثمار و هي وفيرة و زاهية ، فيختالون و كأنها ثمرة جهدهم ، و ينسون ان الله هو الذي زرعها و أينعها في هذه اللحظة.

[فقال لصاحبه و هو يحاوره أنا أكثر منك مالا و أعز نفرا]أخذ يتعالى على الآخرين ، اعتمادا على اشياء وقتية زائلة ، و ليس في الآيات دلالة على أن هذا الرجل كان له انصار ، و لعل غروره دفعه الى الاعتقاد بانه ما دام يملك شيئا من المال فكأنه يملك الناس أيضا ، لذلك قال : - " و أعز نفرا. "

[35][و دخل جنته و هو ظالم لنفسه]

ان ظلمه لنفسه هو في اغتراره بزينة الدنيا الذي جره للتعالي على الآخرين ، و اعتقاده انه ما دام يملك

المال فهو يملك الرجال.

[قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا]

هذه هي العلاقة الخاطئة بين الانسان و الطبيعة ، و هي علاقة الأعتماد عليها و الركون اليها و كأن الطبيعة خالدة له.

[36][و ما أظن الساعة قائمة]

في البداية اغتر بنفسه و قال : انا اكثر منك مالا و اعز نفرا ، ثم ظلم نفسه بأعتقاده أن الجنة خالدة له ، ثم انكر المعاد ، و وصل الى نهاية دركات الهبوط حينما اعتقد بأن الله ، و الدين ، و الرسالة ، و كل القيم انما هي في جيبه.

ان الانسان يظل صالحا للهداية ما بقيت في نفسه جذوة الايمان ، و ما دام يعتقد ان عمله قد يكون خاطئا ولا يرضى الله عنه ، أما حينما يعتقد بأن الله و الدين تابعانله ، و يأخذ يبرر اعماله ببعض الأفكار الخاطئة ، فآنئذ لا تترجى له الهداية ، فأنه يتحول من انسان الى ما هو احط من الحيوان . و ذلك حين يقول:

[ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا]

اعتقد صاحب الجنتين انه ما دام الله قد اعطاه تلك الجنتين و فيهما نخل و اعناب و زرع ، و افاض عليه الخير في الدنيا ، اذن ففي الآخرة سوف يعطيه اكثر ، و ذلك استنادا على معادلة خاطئة و هي : ان العطاء في الدنيا دليل رشاد و هداية و في هذه بالضبط هلاك الانسان و خسارته الأكيدة ، اذ ان بسط الله للرزق و تقديره له ، انما هو لأمتحان العباد و ليس للتكريم او الإهانة.

كيف نجبر ضعف الذات ؟

[37][قال له صاحبه و هو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا]

هل وصــل بك الحال أن تكفر بألله ؟ و انت تعلم علم اليقين كيف انه خلقك اطوارا فقدرك ، و انك لا تستطيع ان تعتمد على نفسك و قدراتك ، فكيف تعتمد على الجنة الخارجية التي هي نتيجة قدراتك و مكسب طاقاتك ؟

لقد كنت ترابا ، ثم اصبحت نطفة ، ثم استويت رجلا ، اي انك كائن تطرأ عليه التغيرات و لست على حال ثابتة ، و انت معرض لكل الإحتمالات و الأخطار ، فمثلك ينبغي ان يعتمد علــى ركن ثابت شديد لا يطرأ عليه التغير ، و لا تجوز عليه الإحتمالات و هو الله ، لا أنتعتمد على اشياء متحولة و متغيرة كذاتك ، لا تغني عنك شيئا اذا هجمت عليك نوائب الزمان.

ان القرآن يعالج طبيعة الانسان بعمق ، لأن منزل القرآن هو الله الذي خلق هذاالانسان ، و الخـــوف متوغل في اعماق الانسان الذي يرى ان كل شيء في الكون و الحياة ، و حتى ذاته في تغير مستمر و حركة دائبة ، ولا شيء يثبت على حاله ، فهو في قلق مما سيحدث له في المستقبل ، لذلك يحاول ان يعتمد على شيء يطمئن اليه ، و لكن بدل ان يدفعه هذاالخوف الى الإعتماد على الله و التوكل عليه ، و المزيد من الإلتصاق بمناهجه ، فانه كثيرا ما يلجأ الى الاستناد الى متاع الحياة الزائل ، و التكاثر في الأموال ، و لذلك ينبه القرآن الانسان انه عندما يخاف من تغيرات الحياة و تقلبات الزمان فان هذا شعور سليم ، ولكن عليه الا يوجه هذا الشعور نحو المال لانه يزول ، بل يوجهه نحو الإعتماد على شيء يبقى .

[38][لكنا هو الله ربي]

أي انني لا ازال على ديني.

ان كثيرا من الفقراء و المحرومين حينما يجدون امامهم اغنياء يركعون لهم ، و يخضعون لسلطان ثرواتهم ، و بذلك يدفعونهم الى مزيد من الأستغلال و الإستكبار ، و القرآن يرفض ذلك عبر هذه القصة و كأنه يقول : ايها الفقراء عليكم ان تعتزوا بأيمانكم بالله ، لأنه هو القادر على أن يغنيكم كما أغنى هؤلاء.

[و لا أشرك بربي أحدا]

و يبدو ان السياق هنا يسمي الخضوع للغني شركا و اتخاذا لإله غير الله.

[39][و لولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله]

في البداية اتخذ الفقير موقف الدفاع ، و حصن نفسه من الخضوع للغني ، و لكنه الآن أخذ زمام المبادرة محاولا اصلاح الغني ، و هذا هو الدور المطلوب من الفقراء ، فقال له : لابد ان تدرك ان ما حدث انما كان بمشيئة الله و إذنه ، و حسب قضائهو قدره ، لا حسب ارادتك و علمك . فلماذا لا تقول:

[لا قوة إلا بالله]

ثم انك الآن لا تستطيع ان تستفيد من هذه الثمار الا بعون الله ، و هكذا فأن الخير الـذي حصلت عليـه سابقا كان من الله ، و الخير الذي تأمله في المستقبل هو ايضا من الله ، و هذا هو الإطار الذي يجب ان نتعامل به مع الطبيعة و الثروة و الغنى.

[إن ترن أنا أقل منك مالا و ولدا]

ان غرورك و استعلاءك قد يدفعك الى خسارة كل شيء ، و آنذاك سأكون انا الذي تنظر الي بأحتقار افضل حالا منك ، لأن القناعة كنز لا يفنى.

ثم اني آمل فضل الله بشكري ، و انت تعرض نفسك لسخط الله بكفرك.

[40][فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك و يرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا]هذا هو الفرق ، فالفقير كان يتمسك بأهداب الأمل و يرجو رحمة الله ، بينما الغني كان يعتز بالغرور ، و هذه عبرة كبيرة لك ايها الانسان :ففي اي لحظة من لحظات حياتك سواء كنت غنيا أم فقيرا - أنظر نظرة بعيدة - فالغنى قد يتحول فقرا فلا تبطر ، و كذلك الفقر قد يكون طريقا للغنى فلا تيأس ، هذه هي تعاليم الرسالة.

العقاب الإلهي

يقول المفسرون : ان كلمة الحسبان تدل على الرماية المحسوبة التي يقوم بها الرماة في وقت واحد و الكلمة مأخوذة من لفظة الحساب ، ثم اختلفوا : هل الحسبان عذاب من السماء ، أم سيل في الأرض ، أم زلزال ، أم ماذا ؟

و اتصور ان الحسبان هو العذاب المحسوب و المخطط له ، و في هذه الحالة بالذات كان سيلا ، و قد يعني ذلك ان الكلمة تدل على سيل من السماء حول الجنتين.

صعيدا زلقا : اي ارضا جرداء غير قابلة للزراعة مرة أخرى.

[41][أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا]

أي يتسرب ماء النهر الذي يروي المزروعات الى باطن الأرض ، بحيث لا يمكن الوصول اليه و الاستفادة منه.

ماذا حدث بعد ذلك تفصيليا لا نعلمه ، و ما نعرفه ان هذا الرجل جاء الى باب بستانه فـإذا بثمره الذي

اغتر به ، و الذي كان حصيلة جهود مكثفة طوال سنين قد احيط بـه.

[42][و أحيط بثمره]

أي جـاء عذاب و اصـاب الثمار و اتلفها ، ثم دمر كل النباتات و الأشياء الموجــودة.

[فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها]

من عمر و من مال..

[و هي خاوية على عروشها]

أي تهاوى بناؤها و وقع على بعضه.

[و يقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا]

أي لم أشرك بربي شيئا ، فأركن للغنى ، و اغتر بالثروة ، و اعتقد بأن المال يضمن البقاء ، و الخلود . و القرآن يقول : " احدا " و لا يقول : " شيئا " ربما للإشارة الى ان الانسان الذي يعبد الغنى و الثروة اليوم سيعبد من يملكها غدا ، و هو بالتالي يسير في خط الشرك.

[43][و لم تكن له فئة ينصرونه من دون الله]

لعله كان لهذا الرجل عصبة اعتقد بأنهم قادرون على دفع عذاب الله عنه ، فهو لم يكن واحـدا ، انما كان ضمن مجموعة من الأثرياء نسميهم بطبقة الرأسماليين و المستكبرين ، و عبادته لم تكن للمال فقط ، و انما لتلك الطبقة ايضا.

و لكننا رأينا ان تلك الطبقة تخلت عنه و تركته حينما جاءه عذاب الله ، لأنهم يريدون المرء ما دام ثريا مثلهم ، أما اذا اصيب بنكبة و اصبح فقيرا فلا شأن لهم به.

[و ما كان منتصرا]

و حتى لو ارادوا ان ينصروه فإنهم لن يستطيعوا ذلك .

[44][هنالك الولاية لله الحق]

اذا اردت ان تعبد احدا ، و تعتمد على ركن ، فاعلم بأن الله هو وليك وقائدك و الهك فأعبده و اعتمد عليه.

[هو خير ثوابا و خير عقبا]

فهو الذي يعطيك الثواب الآن ، و يؤملك به في المستقبل.

و وجدوا ما عملوا حاضرا

هدى من الآيات

ان سورة الكهف تبين العلاقة بين الانسان و بين الدنيا و زينتها الزائلة.

و قد ضربت لنا في آيات سابقة مثلا في قصة الرجلين اللذين كان لاحدهما جنتان من نخيل و أعناب و زروع ، فاغتر بهما و اعتمد عليهما ، و كانت عاقبته ان خسر الدنيا و الآخرة.

و يلخص القرآن في هذه الآيات العبرة من هذه القصة ، فيبين ان مثل الحياة الدنيا و ما فيها من زينــة ،

كمثل الربيع الذي لا يلبث ان ينقضي ، و انما لا تنقضي الباقيات الصالحات.

و يصور القرآن لنا مشهدا من مشاهد يوم القيامة ، حيث لا يستطيع الانسان ان يمسك بيده شيئا الا ما قدم من عمل ، فان كل ما عمل صالحا ، فهو خير ثوابا و خيرأملا ، و الا فجزاؤه جهنم و لا يظلم ربك احدا . و هكذا يحدد لنا نظرة)مسؤولة) الى زينة الحياة و ان المراد من تطوراتها هو فتنة البشر و ابتلاؤه ليعلم مدى مسؤوليته.

و المثل الذي يضربه القرآن عن الحياة الدنيا و زينتها ، مستوحى من دورة الربيع ، حيث ينزل الماء من السماء فاذا بالنباتات المختلفة تخرج من الارض ، و تجعل الانسان يزعم بانها باقية و دائمة ، و اذا بايام الربيع تنقضي و يأتي الصيف فتحرق الشمس اللاهبة كلتلك النباتات ، و تحولها الى هشيم متفتت تذروه الرياح.

فما الذي يبقى بعد كل هذه الدورة ؟

الشيء الوحيد الباقي هو قدرة الله التي تغير و لا تتغير ، تلك القدرة التي كانت و لا تزال و لن تزول ، و كما تتغير الطبيعة . بفعل تقدير الرب الحكيم . فان الدنيا كلها تنقلب في كف القدرة الإلهية ، و تعود كما بدأت ، و تقوم الساعة و يسير الله الجبال على عظمتهـــا ، و تبرز الأرض بلا زينة و لا نتوءات . و يحشر الله الناس جميعا دون استثناء ، و يقف الناس مصطفين امام رب العزة ، و يقرر النداء الإلهي واقعهم الضعيف انهم عادوا كما خلقهم الله لا يملكون اي شيء . و ان هذه هي الساعة التي كفروا بها . و اذا بكتاب أعمالهم موضوع أمامهم يشفق منه المجرمون و يزعمون لأنفسهم الويل لأن الكتاب لم يغادر صغيرة من أفعالهم ولا كبيرة الا أحصاها.

هكذا تتجلى مسؤولية البشر و التي هي الغاية من زينة الحياة الدنيا.

بينات من الآيات
مثل الدنيا
[45][واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء]

الماء انزله الله ، فبدل ان نعتمد نحن على الماء ، و نبني حضارتنا و قيمنا الفكرية عليه كما فعل الفراعنة ، ينبغي أن نعتمد على رب الماء و المهيمن عليه و على كل شيء و نبني حضارة الهية سامية.

[فأختلط به نبات الأرض]

اي اختلط نبات الأرض بعضه مع بعض بواسطة الماء ، و الماء هو الذي جعل هذه النباتات التي كانت بذورا تحت التراب تنمو و تختلط بقدرة الله ، و الانسان يرى و كأن النباتات قائمة بذاتها ، و لا يعلم بأن قسما كبيرأ منها يشكله الماء ، الذي جاء من السماء ، و سوفيغور في الأرض أو يعود الى السماء ثانية عن طريق التبخر . و هنا لون آخر من الوان الغرور و هو : اعتقاد الانسان بان هذه الاعشاب نباتات ، بينما هي في الواقع مياه قد تشكلت بهذا الشكل ، و اذا ذهبت تلك المياه فان تلك الاعشاب تتحول الى هشيم تذروه الرياح ، و لا تقف على سوقها ، و لا تثبت في مكانها.

[فأصبح هشيما تذروه الرياح]

بعد ان كانت النباتات تبدو ثابتة مستقرة ، و مختلطة ، بعضها يدعم بعضا ، تحولت الى هشيم متفتت تنقله الرياح من مكان الى مكان.

[و كان الله على كل شيء مقتدرا]

و قدرة الله هي التي تحرك هذه الدورة التي تشبه سائر دورات الحياة ، و عندما تنظر بمقياس تاريخي الى بعض الدورات التاريخية ، فانك ترى حضارة جاءت و نشأت و جرت عليها الاجيال ، ثم اضمحلت و بادت

و انتهت ، و الشيء الوحيد الذي بقي لنا منها هو سنة الله و دلائل قدرته ، و كلمة " كان " تدل على الماضي أو علىالاستمرار ، فاذا دلت على الماضي فذلك يعني ان الشيء الذي سبق كل هذه الحياة انما هو قدرة الله ، اذن فهي التي ستبقى لانها كانت و لم تكن الحياة ، و سوف تكون بعد ان تنتهي الحياة.

الباقيات الصالحات

[46][المال و البنون زينة الحياة الدنيا]

لأنها اشياء تشبه تلك النباتات التي تختلط و تلتف ببعضها ، و هي زينة يجب ان يستفيد الانسان منها على هذا الاساس لا اكثر ، اما اذا اراد ان يعتمد عليها اعتمادا كليا فسوف يسقط.

و الوردة الجميلة الجذابة ذات العبق الطيب انما هي زينة ، و لا يمكن ان تستند عليها لانها تقع و لو فعلت ذلك فستقع معها.

و المال و البنون هكذا ، فبقدر ما تتعب و تحصل على المال و تبني بيتا تستفيد منــه ، أو تحصـل على بنين يسر قلبك لمرآهم ، و ترتاح نفسيا بهم ، بهذا المقدار سائغ لك ، أما أن تغتر بالمال و البنين فهذا خطأ كبير ، لأن هذا المال ليس باق و حتى اذا بقي فأنت لا تبقى له ، و البنون لا يبقون لك أو لا تبقى معهم ، و ينتهي دورهم بانتهاء دور الزينة . فما الذي يبقى لك ؟

عملك هو الذي يبقى . و ما تدخره لنفسك من الصالحات هو الذي يدوم ، و هو الذي يشكل زينة الحياة الآخرة.

]و الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا و خير أملا]فبدل أن تدخر جهدك في الاموال و تكدسها على بعضها ثم تذهب في لحظةواحدة ، أو تتعب نفسك و ترهقها من أجل الأولاد ثم فجأة يقلبون عليك ظهر المحن و يتركونك وحدك ، بدل كل ذلك اعتمد على الله بالاعمال الصالحة.

ما هي الاعمال الصالحة ؟

أن تجلس في البيت و تذكر ربك و تسبحه ؟؟ و تصلي الفرائض الخمس بنوافلها ؟ أم تزكي و تخمس ؟ أم تجاهد ؟ أم تبني مصنعا و تعبد شارعا من أجل الله و في خير المجتمع ؟

كل ذلك عندما يكون خالصا لوجه الله ، فهو من الباقيات الصالحات ، و هي تنقسم الى نوعين:

النوع الاول : ما يرى الانسان جزاءه عليه في الآخرة فقط ، و ان كان يعود بالفوائد المعنوية في الدنيا كالصلاة ، والتسبيح ، و الذكر و غيرها.

النوع الثاني : ما يرى الانسان جزاءه في الدنيا ايضا كما لو بنى حضارته ، ذلك لأن الحضارات هي المكاسب البشرية الباقية ، فما تأكله و تشربه ليس حضارة ، أما الذي تبنيه فهو جزء من الحضارة ، و الذي تعرفه قد لا يكون من الحضارة ، و لكن الذي تقوله أو تكتبهمن العلوم فهو من المكاسب الحضارية ، و بتعبير آخر من المدخرات الحضارية للمستقبل.

و الحضارة انما تبدأ ، و تنمو ، و تبقى عن طريق أولئك الذين يفكرون في المستقبل فيدخرون الاعمال الصالحة للمستقبل ، يعبدون الطرق ، و يعمرون المدن ، و يبنون المصانع و .. و .. التي تبقى.

و الامة التي تستهلك اكثر مما تنتج ، و تهدم أكثر مما تبني ، و تفسد اكثر مماتصلح ، فانها لا حضارة لها و مصيرها الى الاندثار.

أما المجتمع الذي يعمل فيعطي لما يبقى اكثر مما يعطي لما يفنى ، و ينتج أكثر مما يستهلك ، و بالتالي يصلح اكثر مما يفسد ، فانه مجتمع يبني الحضارة و يحميها.

و نظرة القرآن للمستقبل تنقسم الى شقين:

نظرة الى المستقبل في الحياة الدنيا ، و نظرة الى المستقبل في الآخرة ، و الحديث الشريف يقول : " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، و اعمل لأخراك كأنك تموت غدا " . مشيرا الى هذا المفهوم ، و هو : ضرورة العمل للمستقبل بشقيه الدنيوي و الأخروي.

و يشدد الاسلام على هذا الموضوع اكثر حينما يقول رسول الله (ص) : " اذا قامت الساعة و بيد أحدكم فسيل فليغرسها "، اي اذا كان بيدك شتلة ، و رأيت اشراط الساعة قد ظهرت و قامت القيامة ، فلا تتوقف عن عملك ، بل اغرس تلك الشتلة ، و ذلك تأكيده على ضرورة العمل للمستقبل.

صور من القيامة

لكي تتعادل نظرة الانسان فلا يغتر بالحياة الدنيا ، لابد ان يذكر بالآخرة . و بمدى حاجته هنالك للباقيات الصالحات . و هكذا يذكرنا الرب هنا بذلك اليوم الرهيب . بلى ذلك اليوم الذي تعود الدنيا كما بدأت و تنتهي هذه الدورة الحياتية على الأرض التي تشبه دورةالربيع . ألم يقل ربنا " مثل الحياة الدنيا " بلى ذلك كان المثل و هذه هي الحقيقة ، و ان قدرة الله التي قلبت الطبيعة عبر فصول العام هي التي تقلبها عبر دورة الوجود.

و لو نظرنا الى الوجود من خلال هذه البصيرة القرآنية إذا لهانت زينة الدنيا فيأعيننا ، و لتحملنا مسؤوليتنا ، و أخذنا من هذا المعبر السريع لذلك المنزل الباقي ، اليس كذلك ؟ دعنا نعيش لحظات في عمق المستقبل الحق . في يوم النشور الرهيب.

و ينتقل بنا السياق ليصور لنا مشهدا من مشاهد القيامة ، حيث تنتهي جاذبية الأرض - كما يبدو لي - و تصبح كالعهن المنفوش و تنبث بثا و تسير تسييرا . يقول تعالى:

[47][و يوم نسير الجبال]

هذه الجبال على عظمتها و ضخامتها تتحرك ، و اذا تحركت الجبال و لم تثبت في مكانها فهل استطيع أنا أن اثبت في مكاني ؟

كلا .. كذلك زينة الحياة الدنيا ، فلا يمكنك أن تعتمد على شيء و تركن إليه ، لان هذا الشيء غير ثابت للأبد.

[و ترى الأرض بارزة]

لا شيء يستقر على الارض ، لا بناء و لا شجر و لا تلال ، فتصبح بارزة.

[و حشرناهم فلم نغادر منهم أحدا]

فلا ينسى الله أحدا لان قبره في مكان بعيد ، أو لانه مات منذ زمن طويل ، أو لانه لم يسجل اسمه في القائمة ، لا شيء من ذلك أبدا ، فكل الناس بلا استثناء يقفون على أرض المحشر التي تكون بارزة ، مكشوفين لا شيء يسترهم.

[48][و عرضوا على ربك صفا]

ثم تأتي مرحلة الاصطفاف بين يدي الله عز و جل ، في صفوف لا يعلم مداها ، الا الله حيث يتواجد آنذاك كل الناس الذين خلقهم الله منذ ملايين السنين و الى يوم القيامة.

[لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة]

أين الأموال ؟ و أين البنون و العشيرية ؟ و أين الألقاب و المناصب ؟ لا شيء بقي من ذلك اليوم.

[بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا]

كنتم تتصورون ان يوم القيامة لن يأتي و قد أتى اليوم ، فأين انتم منه ؟

قال رسول الله (ص) عن الناس يوم المحشر : " يحشرون حفاة عراة غرلا (و الغرل هم الغلف) فقالت عائشة حين سمعت ذلك : " واسوأتاه ! أينظر بعضهم الى سوأة بعض من الرجال و النساء ؟! فقال (ص) : لكل امرء منهم يومئذ شأن يغنيه و يشغل بعضهم عن بعض. "

فابصارهم تكون شاخصة الى الاهوال و الاحداث الرهيبة التي تأخذ مجراها في ذلك الوقت ، ويكون تفكيرهم منصبا على مصيرهم.

[49][و ضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه]و يتعجبون : كيف رصدت كل التفصيلات الدقيقة ، المادية و المعنوية فيها فيرتجفون خوفا ، لان كل جرائمهم مكتوبة ، و هم مسؤولون عنها.

[و يقولون يا ويلتنا]

أي الويل و الثبور علينا.

[مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها]كل سيئة أو خصلة أو حالة نفسية مسجلة في الكتاب ، و حتى النوايا القلبية و الافكار الذهنية تظهر واضحة امامهم.

[و وجدوا ما عملوا حاضرا]

امامهم ، و ليس اسم العمل وحده الذي يسجل ، بل و يصبح العمل مجسما يرونه و يحسونه ، فالطيب منه يتحول الى صور طيبة يوم القيامة ، بينما يتحول السيء الى صور مرعبة كالعقارب ، و الحيات ، و النيران ، و الأغلال ، و الظلمات و .. و .. لا بظلم من الله - حاشاه- فهو لم يخلق الناس ليعذبهم بل ليرحمهم ، انما يحصد الانسان ما يزرعه في الدنيا ، إن خيرا فخير وإن شر فشر.

[و لا يظلم ربك أحدا]

ولاية الله أم ولاية الشيطان ؟

هدى من الآيات

في سياق بيان القرآن الحكيم لزينة الحياة الدنيا و موقف الانسان منها ، ذلك الموقف المتسامي الذي يجعله يمتلك هذه الزينة بدل ان تمتلكه ، يعالج القرآن أخبث صفة تجعل الانسان يتكاثر في الأموال و الأولاد و هي التعالي و التكبر ، و يذكرنا الرب بعاقبة إبليس او من تمرد على ربه و إستعلى ، ويأمرنا بمقاومته ، كما يبين ، - في هذا الإطار - موقف المؤمن من طائفة المستكبرين.

يبين طبيعة هؤلاء ليوجد حاجزا نفسيا بين المؤمن و بينهم ، فيضرب في الأعماق التاريخية حينا ، و يصور المستقبل البعيد حينا آخر.

اما من التاريخ فيضرب الله لنا مثلا من واقع إبليس الذي استكبر و رفض أن يسجد لآدم بعد أن سجدت له الملائكة جميعا ، و كان إبليس من الجن . الذين هم أقل رتبة و أدنى درجة من الملائكة.

و يوحي القرآن من هذا المثل بهذه الفكرة ، و يتساءل السياق مستنكرا : كيف تعبدون إبليس المستكبر المتمرد على سلطان الله أو تعبدوا ذريته و هو لكم عدو مبين ؟

من المستقبل يبين الله لنا كيف أن المجرمين حينما يرون النار ، و يتصورون أنفسهم و هم ملامسون لها ، فان فرائصهم ترتعد خوفا و شفقة على أنفسهم ، و لكن أنى لهم الهروب من النار ؟!

و بين هذا المستقبل و ذلك التاريخ ، على الانسان ان يحدد موقفه من الثروة و السلطة و أصحابهما المستكبرين و هم ذرية ابليس و سبب الفساد في الأرض.

بينات من الآيات
لمن الولاية ؟!
[50][و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه]

لقد كان ابليس من الجن ، و كانت الملائكة ارفع منهم درجة ، و قد أمر ابليس كما الملائكة بالسجود لآدم ، و لكنه خرج عن الطاعة ، و الفسوق هو : الخروج عن الحدود ، و ربما يكون الخروج أحيانا من مكان ضيق الى آخر رحيب ، أو من مكان غير مناسب الى آخر مناسب و لكن عندما يكون الخروج من الحدود المرسومة للشيء ، مثل أن يخرج الانسان من الحمى ، أو اذا خرجت الفاكهة من قشرها فان ذلك يسمى فسقا ، لأن هذا الخروج خروج غير مناسب ، و هو يؤدي الى نتائج سلبية.

يقول القرآن الحكيم ان خروج ابليس عن الطاعة كان فسقا أي كان سببا لفساده و هلاكه.

[أفتتخذونه و ذريته أولياء من دوني و هم لكم عدو]

أي هل من الصحيح أن تتخذوا ابليس وليا من دون الله ، بينما ولي الانسان هو صديقه الذي يحبه ، بينما ابليس قد تمرد على الله و استنكف عن طاعته ، فكيف لا يستكبر على الناس و هو عدو لهم ؟!

[بئس للظالمين بدلا]

انه بديل سيء لمن يتخذه وليا من دون الله ، و لكن من الذي يتخذ ابليس وليا ؟

انهم الظالمون ، فعمل الانسان يؤثر على عقله و عقيدته ، فظلمه للآخرين و من ثم ظلمه لنفسه ينعكس على عقيدته ، و لا يبتعد الانسان عن الشيطان الا اذا كان مؤمنا ، لذلك فان القرآن غير توجيه الكلام فلم يقل : بئس لكم بدلا ، و انما قال : " بئس للظالمين بدلا. "

[51][ما أشهدتهم خلق السموات و الأرض ولا خلق أنفسهم]ان هؤلاء لا يعلمون ما في السماوات و الأرض ، و بالتالي لا يصلحون للقيادة ، و الولي القائد هو ، الذي يعرف ماذا في السماوات حتى يمكنه أن يقود الناس بالطرق الصحيحة ، و ربما تعني الآية الكريمة من تعبير السماوات و الأرض التشريعات المعنوية و الطرق المادية للحياة ، و هؤلاء لا علم لهم بها لأنهم لم يشهدوا الخلق ليعرفوا ما يناسبهم من تشريعات ، و ليس هناك مصدر آخر للمعرفة غير الله.

بينما الله سبحانه و تعالى لم يكن فقط شاهدا على الخلق ، و انما كان خالقا بالتالي فهو أعلم بما في السماوات و الأرض و أولى بأن يتبع هداه ، ان هؤلاء لا يعلمون و لا يعرفون حتى أنفسهم ، و الذي لا يستطيع أن يقود نفسه الى الخير و الهدى ، فهل يمكنه ان يقودالآخرين ؟!

و من جهة أخرى : لا يتصور الناس بأن الانسان الضال يمكن ان تنفعهم قدرته و قوته شيئا . كلا .. لأن الضلالة تسبب فساد القوة و القدرة مهما كانت كبيرة و هائلة ، و يذكرنا القرآن بهذه الحقيقة فيقول:

[و ما كنت متخذ المضلين عضدا]

الذي يضلك لا يمكنك ان تتخذه عضدا لك ، و نلاحظ هنا ان القرآن قد وصف المضلين و هم جمع بكلمة "

عضدا " و هي مفرد ، و لم يقل : اعضادا ، لأنه يريد ان ينفي الموضوع تماما.

و ذلك ابلغ لأن الانسان قد لا يتخذ مجموعة اعضاد ، و انما يأخذ عضدا واحدا ، و نفي المجموع ليس ينفي الفرد الواحد . بينما نفيها حيث تنفي حتى الواحد فانه يعني المجموع ايضا ليس موجود.

حرام أن يتخذ الانسان في حياته الدنيا رجلا ضالا عضدا يستعين به ، وبهذه الدرجة من العنف ينفى القرآن مسألة الاستعانة بالظالمين و التعاون معهم في أي حقل من الحقول.

و جعلنا بينهم موبقا

[52][و يوم يقول نادوا شركاءي الذين زعمتم]

في يوم القيامة يأتي الله بالناس الذين اتخذوا الشيطان و ذريته قادة و يقول : سأدعكم الآن لفترة تنادون أولئك القادة الذين كنتم تستعينون بهم في الدنيا ، فيقفون و يصيحون حتى تبح اصواتهم و لكن دون جدوى.

[فدعوهم فلم يستجيبوا لهم و جعلنا بينهم موبقا]

بين الشركاء و المشركين هوة سحيقة و مهلكة ، يسميها القرآن بالموبق و هي : الفجوة العميقة الفاصلة بين شيئين ، و لكن لماذا هذه الفجوة ؟

بالرغم من أن هؤلاء و أولئك في كثير من الأحيان يسلكون سبيلا واحدا ، و مصيرهم جميعا الى النار ؟ لعل هذه الهوة العميقة ترمز الى الهوة التي يجب أن تكون بين الانسان و الشركاء.

[53][و رءا المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها]تأملوا هذا المشهد : الكفار لم يظنوا و تصوروا أنهم سيقعون في النار ، و انما تصوروا لمسهم للنار و احتكاكهم بها فقط.

[و لم يجدوا عنها مصرفا]

و حري بنا ان نتصور نحن هذه الحالة ، أيضا ، فنحن لم نر تلك النار اللاهبة الشديدة ، ولكننا نستطيع أن نتصور أنفسنا واقفين على نار قعرها عميق ، و حرها شديد ، و عذابها غليظ ، و نتخيل تلك النيران المحرقة و هي تلامس أجسادنا دون أن نجد مهربا منها ، لنتصورهذه الحالة ، فأن التصور يقرب الحقيقة الى ذهن الانسان و يقوم بدور الوسيط بينه و بين الحقائق البعيدة ، و بالتالي فهو يربي الانسان و ينمي تقواه.

ان الطالب الذي يتصور قاعة الامتحانات في آخر السنة الدراسية ، يتحصن ضد السقوط عندما يدخلها ليؤدي الامتحان عمليا ، و هكذا الفرد الذي تتاح له فرصة الجريمة ، و لكنه حين يتصور قاعة المحكمة انه يبتعد عن الجريمة ، كذلك نحن اذا تصورنا تلك النيران في جهنمسنمتنع عن المعاصي و الفساد.

ذلك هو التاريخ البعيد ، و هذا هو المستقبل القادم ، و بينهما ينثني السياقالقرآني ليذكرنا و يقول : ايها الناس تلك كانت قصص ماضيكم ، و تلك حوادث مستقبلكم ، فانتبهوا لحاضركم.

كيف نتخلص من طبيعة الجدال ؟

[54][و لقد صرفنا في هذا القرءان للناس من كل مثل]

كل تجسيد للحقيقة يسمى مثلا ، و القرآن يجسد الحقائق المجردة في امثلة تاريخية مضت أو حوادث مستقبلية تقع ، لكن لماذا ، لكي يقرب هذه الحقائق المجردة الى اذهان الناس و قلوبهم ، و لكــن الانسان مهما أوتي من أمثال ، و صرفت له من قصص و حوادث ، تراه يجادلفيها.

[و كان الانسان أكثر شيء جدلا]

الانسان يبحث عن أي وسيلة يتهرب بها عن حفظ أمانة العقل ، و ثقل مسؤولياته انه يبحث عن مخرج من الهداية للصعوبة القصوى التي يعانيها في رحلته الشاقة من ارض الطبيعة الى قمة الكمال ، و ما دامت طبيعته الجدل ، فان عليه ان يعمل جاهدا لكي يقاوم هذه الطبيعة ،و يعرف بأنه لو ترك نفسه و شأنها فانها نزاعة للهوى و أمارة بالسوء ، تدعوه الى الجدل و الإبتعاد عن الحقيقة و الهبوط الى حضيض الشهوات.

ان عليك ايهـا الانسان ان تقاوم ، العلم بحاجة الى جهاد و الهدى بحاجة الى سعي ، و الكمال بحاجة الى مقاومة مستمرة لنوازع الهوى حتى تكتمل.

و لعلنا لو تعمقنا قليلا في كلمة الجدل نصل الى معرفة طبيعة الانسان التي هي مخلوقة من مجموعة متناقضة من الأهواء ، و النزعات ، و التطلعات و ما اشبه ، فالانساندائما في حالة صراع و تجاذب داخلي ، ففي نفسك توجد مجموعة جواذب مختلفة كل يجذبك الـى جهة ، عنصر يجذبك الى طاعة الآباء ، و آخر يدعوك الى الغلو في حب الأبناء ، و ثالث يدعوك الى الذوبان في تيارات و هكذا ، و كل هذه العناصر لها تأثير على عقلك و تفكيرك و لايمكنك الكمال الا إذا قطعت كل حبال الطبيعة.

لذلك جاء في الأحاديث أنه يوجد في قلب كل انسان ٣٣ ملكا و ٣٣ شيطانا ، و هؤلاء الملائكة احدهم يمثل الصبر ، و الثاني يمثل اليقين ، و الثالث يمثل التقوى ..الخ و أولئك الشياطين أحدهم يمثل الغيبة ، و الثاني يمثل التهمة ، و الثالث يمثل الفجور .. الخ . والملائكة و الشياطين جميعا و ما يمثلونه في حالة جدال مستمر في داخل الانسان.

بعض المفسرين قالوا : ان كلمة " اكثر شيء " إنما هي على سبيل المبالغة ، و الواقع انه لا مبالغة هناك ، فلا يوجد شيء في الطبيعة أكثر جدلا من مخ الانسان ، و لنفترض ان شلالات الماء في (نياجارا) تحدث جدلا لأنها تنزل و تصطرع مع المياه التي تصطدم بها ، و لكن هذا الجدل اكثر أم جدل الفكرة ؟ و التيارات المتعارضة في بعض البحار ، و الرياح المختلفـة ، و الزوابع العاصفة اكثر جدلا أم القلب ، الذي تنعكس عليه كل تناقضات الوجـود ؟!

و اذا بحثت فلن تجد تناقضا قائما في الدنيا اكثر من ذلك الموجود في فكرك ، لأن عقلك يحتوي على كل تناقضات الدنيا ، ماديات و معنويات ، حق و باطل ، خير و شر ، ففكر الانسان انعكاس لكل تناقضات الكون ، لذلك فهو اكثر شيء تناقضا و جدلا.

[55]و من أنـواع التناقض و الجدل عند الانسان هو ذلك الموجود بين الواقع و الحقيقة ، فللواقع ضغطه و جاذبيته ، و للحقيقة صحتها و عاقبتها.

ان الله يبعث بالهدى للناس ، و يأمرهم ان يصححوا حياتهم وفق هذا الهدى و يصلحوا ماضيهم ، و لكن هؤلاء ينتظرون حتى يأتيهم العذاب ، فأما أن يأخذهم بغتة ، و اما يأتيهم فيروه أمامهم مباشرة ، فهم ينتظرون الواقع ، و لا ينظرون الى الحقيقة ، ويقول القرآن:

[و ما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى و يستغفروا ربهم]ان يؤمنوا بالهدى ، و ان يصلحوا حياتهم الماضية وفق ذلك الهدى.

[إلا أن تأتيهم سنة الأولين]

أي العذاب المحيط بهم.

[أو يأتيهم العذاب قبلا]

أي يرون العذاب امامهم مباشرة.

[56]اذن لماذا ينزل ربنا العذاب على الناس حتى يهتدوا ؟

لأن المطلوب هو ان يهتدي الناس بعقولهم وارادتهم ، و دور رسالات الله هو دور التبشير و الإنذار ، و ليس دور الجبر و الحسم.

[و ما نرسل المرسلين إلا مبشرين و منذرين و يجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق]يريد الكفار ان يهدموا كيان الحق بسلاح الباطل ، و لما كانوا لا يقدرون على ذلك ، فانهم يتخذون سلاحا آخر هو سلاح الإستهزاء ، و هو اخطر سلاح يستخدمه الانسان في مقاومة الحقيقة.

[و اتخذوا ءاياتي و ما أنذروا هزوا]

تكمــن خطورة هذا السلاح في ناحيتين : فمن جهة حينما يستهزئ الانسان بالحقيقة ، فانه لا يمكنه ان يهتدي بها أبدا.

و من جهة ثانية حينما يستهزئ بها ، فلا يمكن لأحد أن يضرب له مثلا ، أو يأتي له بدليل على تلك الحقيقة لكي يقنعه بها.

من حقائق الهدى و المعرفة

هدى من الآيات

في هذا الدرس يذكرنا القرآن الكريم بثلاث حقائق تتصل بقضية الهدى و المعرفة:

الحقيقة الاولى : ان اكتساب العلم و المعرفة و بالتالي الاهتداء مسؤولية الانسان التي تتعلق بمصالحه العاجلة و الآجلة ، فمن يرفض الاهتداء ، ولا يتحمل مسؤوليته في الوصول الى المعرفة فانه يظلم نفسه ، و يكو مثله كمن يفقأ عينه ، أو يسد أذنه ، أو يبلد أحاسيسه ، فيقطع على نفسه ذلك الجسر الذي يربط ذاته بالطبيعة فماذا عساه أن يفعل بعد ذلك ؟ و ما هو مبرر وجوده في الحياة ؟

الحقيقة الثانية : ان الانسان اذا رأى ان بامكانه البقاء فترة من الوقت في حالة الضلالة دون أن يصاب بأذى ، فليعلم ان هذه مهلة منحها الله له رحمة به لعله يرجع عن ضلالته و يهتدي.

و إلا ففي اللحظة التي تعمى فيها عين الانسان ، و تصم أذنه ، و يتوقف عقلهفانه يجب أن يموت و ينتهي ، لأنه سوف يصطدم بالطبيعة و حقائقها الراسخة الصلبة فيتحطم شر تحطيم ، و بالتالي فان الضلالة جريمة عقوبتها معجلة في الواقع ، و لكن الله يؤجل هذه العقوبة ، و هذا من فضله الواسع و حلمه الكبير ، و لعله سيتدرجه الى مصيره الاسود إستدراجا.

الحقيقة الثالثة : ان هذا التأجيل ليس الى فترة غير محدودة ، و انما لموعد يوم معلوم عند الله سبحانه و تعالى ، و اذا جاء فانه لن يتأخر ، و هذا بدوره قضية هامة لو تحسس البشر بها لاستطاع ان يقاوم جهالته ، و تعاليمه على الحقائق.

و لكي يوضح القرآن الكريم هذه الحقائق اكثر ، فانه يضرب لنا مثلا من واقع موسى (ع) و اجتهاده في البحث عن العلم و المعرفة.

و في هذه المجموعة من الآيات ، يذكرنا القرآن بان الانسان في حالات التعب ، و الارهاق ، و انشغال ذهنه بقضايا ثانوية قد ينسى أمورا مهمة.

لقد قام موسى مع مرافقه بسفرة طويلة مضنية مليئة بالصعوبات ، فأصابهم تعب شديد من وعثاء السفر ، مما جعلهم ينسون غذاءهم الذي أحضروه معهم ، فالنسيان اذن من الشيطــان ، و تجاوز هذا النسيان لا يكون الا عن طريق التذكر المستمر لله سبحانه و تعالى ، و هناك سبب آخر من أسباب الجهل وهو : اعراض الانسان عن آيات الله و انصرافه عنها.

بينات من الآيات
آثار الظلم
[57][و من أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها]

فآيات الله واضحة و منتشرة في كل مكان ، الا ان الانسان بحاجة الى من يذكرهبها ، و لكن عندما يذكر و تتلى عليه الآيات فيتركها ، و لا يهتدي بها ، فانه يكون اظلم الظالمين.

[و نسي ما قدمت يداه]

لقد نسي حقيقة رئيسية و هي : أنه انسان غير عالم و لا فاضل ، بل هو جاهل و متورط في الجرائم ، انسان ظلم نفسه بارتكاب الخطايا و الذنوب ، فوقفت حاجزا بينه و بين الهداية ، لذلك ينبغي عليه أن يتسلح بالارادة و العزم ، و ان يتجاوز هذا الحاجز بدل أن يغفل وينسي ما قدمت يداه.

من هنا نعلم بأن الوصول الى الهداية بحاجة الى تجاوز الصعوبات ، و حسب التعبير القرآني إننا بحاجة الى (اقتحام العقبة) و من لا يقتحم العقبة ، و يتسلح بالعزيمة الكافية لتجاوز الحواجز ، فلن يهتدي ابدا .

[إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه]

هناك حجب موجودة على قلوب هؤلاء ، فما هي تلك الحجب ؟

انها الذنوب و المعاصي التي يرتكبونها ، و يصرون عليها ، فتتراكم على قلوبهم بصورة حجب سميكة ، تحول دون نفوذ الحقائق اليها . فيجعل الله على قلوبهم أكنة.

[و في اذانهم وقرا]

أي انا جعلنا أذانهم تشكو من صعوبة السمع ، و الوقر هو : الشيء الثقيل ، و الانسان عندما لا تسمع أذنه يحس و كأن ثقلا قد وضع فيها.

[و أن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا]

ما دامت الأكنة موجودة على قلوبهم ، و الوقر في آذانهم ، و ما داموا قد نسواماضيهم الحافل بالجرائم و الذنوب ، فلم يحاولوا أن يستعرضوا و يتأملوا خطورتها ، و لم يتسلحوا بالارادة الكافية لمقاومتها ، فمن المستحيل عليهم أن يجدوا طريقهم الى الهداية.

و اذا كانت الضلالة ظلما ، فلماذا لا يعجل الله عليها العقاب ؟

يقول القرآن : تلك رحمة من الله ، و فرصة ثمينة لمحاولة الرجوع الى الهداية ، فلا يغتر الانسان بهذه الفرصة فانها قصيرة و محدودة .

[58][و ربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا] ليس باستطاعتهم أن يجدوا مهربا يؤولون اليه ، كما يحدث عادة على مستوى البشر حينما تريد السلطات أن تلقي القبض على شخص فان هذا الشخص يأخذ بالتفتيش عن مكان يختفي فيه ، أو عن شخص له نفوذ لكي يتوسط له عند السلطة ، اما عند الله فلا يوجد شيء من ذلك أبدا ،فسلطته واسعة قوية قادرة ، و لا مهرب منها ابدا.

و الموئل هو : المكان أو الزمان الذي يحجب العقاب عن الانسان.

[59] [و تلك القرى أهلكناهم لما ظلموا و جعلنا لمهلكهم موعدا]و هلاكهم كان له موعد محدد ، و لما جاء ذلك الموعد انتهت الفرصة الممنوحة لهم ، و لم يكن باستطاعتهم أن يكتسبوا لحظة اضافية.

لماذا النسيان ؟

[60]ان نسيان الانسان لماضيه وما قدمت يداه ، أحد الاسباب الرئيسية لجهله و عدم هدايته ، و القرآن يضرب مثلا على ذلك من قصة موسى (ع) حيث انه كلف - فيما يبدو - بالبحث عن شخص عالم يرشده و عزم موسى عليه السلام على السفر الى حيث يوجد العالم عند التقاء البحرين - و لعلهما خليج العقبة و خليج السويس المتفرعان من البحر الأحمـــر - و عندما بلغه و آوى هو وفتاه الى صخرة تسرب حوتهما في البحر و لعل الآيــة:

[وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حقبا]أي إنني مصمم أن اصل الى مجمع البحرين أو أمضي سنين عديدة بالرغم من كل الصعوبات المحتملة ، و الفتى هو يوشع بن نون أقرب بني اسرائيل الى موسى عليه السلام و وصيه ، و لعل التعبير بـ (الفتى) عنه كان لمعاني السمو الروحي و الكمال الرسالة الذي كان يتمتعبه ، و بالذات في اتباعه لقيادته الإلهية ، و تفانيه في خدمة الرسول عليه السلام.

[61][فلما بلغا مجمع بينهما]

أي المكان الذي يجتمع فيه البحران.

[نسيا حوتهما فأتخذ سبيله في البحر سربا]

لقد تحرك الحوت بحالة السرب ، و السارب هو الذي يسير الى الأسفل و لعل بالحوت كان رمق من الحياة فلما دخل الماء إستعاد حياته و تسرب فيه أو كان هناك ماء الحياة.

[62][فلما جاوزا]

أي انتقلا الى الشاطئ الآخر.

[قال لفتاه ءاتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا]أي كان سفرهما متعبا للغاية و شعرا بالجوع ، و الغداء هو طعام الغدو و هو أول النهار.

من عوامل النسيان

[63][قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة]

أي أتذكر حينما جلسنا عند الصخرة التي كانت في طريقنا لنستريح قليلا.

[فإني نسيت الحوت]

وضعته هناك و لم أجلبه معي ، و لكي يبرر هذا الواقع الذي فعله النسيان قال:

[و ما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره و اتخذ سبيله في البحر عجبا]لقد نسي الفتى قصة الحوت ان يبينها لموسى عليه السلام ، و كيف أتخذ سبيله في البحر سربا.

[64]و يبدو أن علامة موسى لمعرفة مكان العالم . كانت هي بالذات حياة الحوت . و انطلاقه في البحر سربا ، و هكذا قال موسى عليه السلام:

[قال ذلك ما كنا نبغ]

اي ذلك المكان هو بغيتنا و هدف رحلتنا.

[فارتدا على آثارهما قصصا]

اي عادا على ذات الطريق و هما يبحثان عن الآثار.

و قبل ان نتابع قصة موسى مع العالم في الدرس القادم دعنا نتدبر في موضوع النسيان الذي يتكرر في هذه الآيات.

في آية سبقت بين القرآن قضية مهمة فقال : " و لا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله و اذكر ربك اذا نسيت و قل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا " و في هذه الآيات نجد قوله تعالى و ما انسانيه الا الشيطان و هاتان الآيتان صريحتانفي ان الشيطان ينسي ، و الله يذكر ، فما معنى هذه الفكرة ؟

ان فكر الانسان يشبه مصباحا كامل الضياء ، ليس بحاجة للوقود و لكن هناك حواجز هي التي تسد منافذ هذا الضياء ، فما هي تلك الحواجز ؟

أنها مجموعــة عوامل مادية تقوم على أساس اهتمام الانسان بزينة الحياة الدنيا و متاعها ، و قد يكون فتى موسى (ع) و هما يمشيان على البحر قد انشغل بزينة البحر ، أو ببعض الأشياء العجيبة التي رآها في الطريق ، المهم أن انجذاب الانسان الى الطبيعة و خضوعه لها هو من أسباب النسيان ، و الحياة مليئة بالجواذب و الشهوات التي يدعمها الشيطان ، ولكن ذكر الله يطرد هذه الشهوات ، و يعين على ضغط الجواذب و يزكي النفس من العقد التي يكرسها الشيطان ، و ذكر الله بالتالي هو عدو النسيان ، لأنه يحطم تلك الحواجز التي تغلف قلبالانسان.

و حينما تتذكر الله و قدرته و هيمنته على الكون ، يعود اليك توازنك و تعود الى نفسك تلك الارادة المفقودة ، و تعود الى عقلك معرفتك بأنك أقوى من الطبيعة ،و أسمى من زينة الحياة الدنيا فلا يجب ان تستسلم لها.

وهكذا فان القرآن الحكيم يحدثنا في سورة الكهف عن زينة الحياة الدنيا من جهة ، و ضرورة التسامي عليها من جهة ثانية ، و من أبعاد التسامي و فوائده في ذات الوقت هو : التذكر و عدم النسيان ، لأن الانسان المستسلم لحياة الدنيا و زينتها يفقد فكره ، بل يفقدحتى الحياة نفسها ، فحب الشيء يعمي و يصم.

إنك لن تستطيع معي صبرا

هدى من الآيات

مـن مظاهر اعجاز القرآن الحكيم ، ان آياته تتحدث عن أشياء عديدة في وقت واحد ، فالآية الواحدة مثال لقدرة الله في الكون ، و لعلم الله بالأمور ، و هي تبين مختلف الابعاد للحقيقة الواحدة ، أو مختلف الحقائق للحياة.

و سورة الكهف اذ تحدثنا عن علاقة الانسان بالحياة ، فانها تحدثنا أيضا عن علم الانسان ، وقد يبدو هذان الأمران في هذه السورة غير منسجمين أو حتى مختلفين ، بينما الحقيقة هي ان علاقة الانسان بزينة الحياة الدنيا و موقفه السليم منها ، ينشأ عن علم الانسان بحقيقة الدنيا ، فلو عرف الانسان ظاهرا من الحياة فقط استبد به الغرور ، و زعم بأن هذا الظاهر الذي يراه هو الحقيقة ، بينما لو تعمق قليلا و وصل الى جوهر الحياة الدنيا لعرف مدى تبدلها و تغيرها ، و ان مخبرها غير ظاهرها ، و لذلك جاء في الحديث : "الدنياتغر و تضر و تمر. "

و جاء أيضا : " كل ما في الدنيا ان تسمعه خير من أن تراه. "

و هكذا الحديث عن الدنيا يستتبع العلم و الهدى ، لان هدى الانسان و معرفته للحقائق معرفة عميقة و شاملة يدعوه الى أن يتخذ موقفا سليما من زينة الحياة الدنيا ، و ليس موقف الغرور و التسليم المطلق.

و في قصة موسى (ع) مع ذلك العبد الصالح الذي جاء في الأحاديث أنه الخضر (ع) يكتشف لنا جانب من هذه الحقيقة.

فموسى (ع) كان نبيا ، و كان عارفا بالأحكام الشرعية الظاهرة ، الا أنه يحث عمن هو أعلم منه ليتعلم منه الخلفيات ، أو حكم الأحكام العامة و الخاصة.

و خلال تلقيه الدروس كان ينتفض أمام بعض الحوادث التي يراها و لا يتحملها ، فعندما ركبا في السفينة أخذ الخضر معولا و ثقب به جدارها ، فاذا بالماء يتدفق الى داخلها ، و عندما صادفا شابا في طريقهما حمل عليه الخضر فقتله ، و في نهاية المطاف وصلا الى بلدةوجد فيها الخضر بناء متداعيا ، فبذل مجهودا كبيرا في ترميمه ، و لم يطلب مقابل ذلك من القوم أجرا برغم ما بدر منهم من سوء استقبال و اعراض عن الضيافة ، و كان وقع هذه الحوادث على موسى من الشدة بحيث كان الزمام يفلت منه كل مرة ، و ينسى شرط الصبر الذي التزم به.

أن انتفاضة موسى امام الاعمال التي قام بها ذلك العبد الصالح ، لدليل على ان الانسان لا يحتمل مجرد احتمال ان وراء علمه هذا مساحات مجهولة أخرى لم يبلغها و لم يتوصل اليها ، ان مجرد هذا الاحتمال يجعل الانسان رزينا ، حليما ، هادئا ، لا يتأثر بالمظاهرفقط ، و انما ينظر الى العمق أيضا.

بينات من الآيات

بين العلم و الرحمة

[65][فوجدا عبدا من عبادنا اتيناه رحمة من عندنا و علمناه من لدنا علما]

هذا العبد بالاضافة الى العلم الذي حصل عليه كان قد حصل على الرحمة ، فهل هناك علاقة بين العلم و الرحمة ؟ أم ان ربنا سبحانه و تعالى قد أعطى العبد خصلتين من عنده الرحمة و العلم ؟

بتدبر بسيط في مفهوم كلمتي العلم و الرحمة نتوصل الى : ان العلم عادة ما يكون وليد الرحمة ، و جوهر الرحمة هو لين القلب الذي هو صفة مقابلة لصفة أخرى و هي قسوة القلب ، و قسوة القلب تسبب عدم نفوذ حقائق الحياة اليه فينشأ الجهل ، و لين القلب على العكس منذلك يسبب العلم ، لذلك نستطيع أن نقول ان للرحمة الفضل الاول ، و هو الشيء الذي أعطاه الله للخضر (ع) و كان سببا لعلمه وقد استند البعض الى هذه الكلمة و قالوا : ان خضرا كان نبيا و النبوة رحمة إلهية ، بينما رأى آخرون : ان سعة صدر خضر و قدرته على احتمال اعتراضات تلميذه موسى هي تلك الرحمة التي اعطاها الله اياه.

و في الآية اشارة واضحة الى أن العلم من الله سبحانه و تعالى ، و انه نور يقذفه في قلب من يشاء ، و ليس العلم بكثرة الدراسة و التعليم كما يزعمون.

الصبر وزير العقل

[66][قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا]

لقد عرف موسى (ع) ان الحصول على العلم لا يمكن ان يتم بدون مجهود ، لذلك عرض اتباعه للعالم و هو يمارس اعماله اليومية ، و من خلال العمل و القرارات و المواقف في الأحداث المختلفة للحياة يتعلم الحكمة ، و العلم الذي يجب أن يبحث عنه الانسان ليس علما مطلقا، بل ذلك العلم الذي يعطيه الرشد

و البصيرة في سلوكه و عمله ، و هذا هو العلم العملي ، فكما أننا نحتاج الى العمل العلمي ، كذلك نحن نحتاج الى العلم العملي ، و ذلك بان نتعلم ما ينفعنا.

أما خضر (عليه السلام) فقد أعطانا منهجا آخر للتعلم و قال : ان أول و أهم صفة لاكتساب العلم هو الصبر ، و لذلك كان الصبر وزيرا للعقل كما جاء في الأحاديث المأثورة.

[67][قال إنك لن تستطيع معي صبرا]

و هذه هي مشكلة الانسان ، فهو بحاجة الى الصبر لكي يتعلم العلم ، و الصبر بدوره بحاجة الى العلم لكي يطمئن الانسان ، فان " الجاهل جزع. "

وهنا نود ان نذكر بأن اجتياز حاجز الجهل من قبل الانسان عملية صعبة ، و لا يمكن للانسان أن يجتاز هذا الحاجز و هو خائر العزم ، ذلك لأن الحصول على العلم بحاجة الى اجتياز الحاجز النفسي بالاضافة الى المساعي العملية فنرى ان موسى (ع) برغم أنه يقوم بسفرة طويلة طلبا للعلم ، و يلاقي انواع المشقة ، و ينسى غداءه ، و يصحب معه فتاه و ما أشبه و هو نبي يقود أمة ، و برغم كل هذه الأعمال الجسدية ، فانه يحتاج أيضا الى جهود نفسية كبيرة تعتبر من وظيفة القلب أو بتعبير آخر تعتبر رحلة القلب ، و يشير اليها القرآن الحكيمفي هذه الآيات:

[68][و كيف تصبر على ما لم تحط به خبرا]

من المعلوم ان خضر العالم لم ينسى القدرة الحقيقة لموسى على الصبر ، فموسى)ع) من الناحية الحقيقية و الفعلية كانت عنده القدرة على الصبر ، و لكن العالم بخبرته يدرك ان النـاس الجاهلين بأمر لا يصبرون على صعوبات العلم به ، فالعلم يسبب لهم صدمة ، و لأنهيسبب لهم ذلك فهم قد يكفرون به.

[69][قال ستجدني إن شاء الله صابرا و لا أعصي لك أمرا]و قد أعطى موسى تعهدا بالصبر و الاتباع ، فمثل العالم كمثل الشجرة المثمرة التي تهتز فتعطيك من ثمارها ، و العالم يجب أن يبرمج منهاج تعليمك و لست أنت.

لقـد ربط موسى (ع) صبره بالمشيئة الإلهية و قال : " ستجدني إن شاء الله صابرا " لأنه عرف ان من الصعب على الانسان في هذه المواقف ، أن يصبر على الصدمات التي يتلقاها بسبب معرفة الواقع المجهول.

[70][قال فإن اتبعتني فلا تسئلني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا]ان العالم (عليه السلام) عندما اشترط على موسى هذا الشرط ، فانه كان يشير إلى أن على العلماء أن يضبطوا أمرهم مع المتعلم منذ البداية ، على أساس أن العالم هو الذي يحدد المنهج:

أولا : يخرق سفينة

[71][فأنطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها]

هنا انفعل موسى (ع) بأخلاقه الرسالية التي كان يمارسها مع مجتمعه الاسرائيلي ، ذلك المجتمع المائع الذي كان يستخدم معهم الشدة ، بعكس الرسول محمد (ص (الذي كان يعيـش فـي مجتمع خشن غليظ ، فتسلح بالرأفة و اللين ، لذلك أنفعل موسى و صاح غاضبا:

[قال أخرقتها لتغرق أهلها]

و هو هنا لم يسأل حتى لماذا خرقتها ، بل أنكر الموضوع رأسا ، و لم يسكت على ذلك و انما أعطى للعمل صبغة و هي أنه لم يخرقها الا ليغرق أهلها . و كان هذا هو الهدف الوحيد المتوقع من وراء هذا العمل و قال:

[لقد جئت شيئا إمرا]

أي قمت بعمــل عظيــم ، و هذا خطأ آخر يدل على الجهل بالموضوع ، و هنا قال خضـر (ع: (

[72][قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا]

[73]فذكره بكل هدوء أعصاب بالاتفاق الذي كان بينهما ، فانطفأت ثورة موسى فورا و ذهب غضبه ، و اعتذر عما بدر منه ، فقال لا تؤاخذني بما يعسر علي تحمله ، فمن الصعب على الانسان أن يصبر على شيء لا يعرف عمقه و عاقبته ، لذلك طلب موسى من ذلك العالم أن لا يؤاخذه بما نسي.

[قال لا تؤاخذني بما نسيت]

هناك امران ضروريان للتعليم هما:

أول :على العالم أن يكون واقعيا فيعرف ان الآخرين بشر ، و يتعرضون للنسيان لكون المعارف التي تعطى لهم أكبر من مستواهم ، و عادة ما ينسى الذهن الشيء الغريب عنه.

ثانيا : ان هؤلاء لا يتحملون كسب العلوم بطريقة الصدفة ، انما يحتاج العالم أن يجعل برنامجا متدرجا للتعليم . و لذلك قال موسى:

[و لا ترهقني من أمري عسرا]

الإرهاق هو اطباق الشيء على الشيء . و كأن العسر يطبق على الشخص من جميع جوانبه.

ثانيا : يقتل غلاما

[74][فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا]

في المرة السابقة قال عمل عظيم و لم يقل جريمة ، و لكنه في هذه المرة قال " : لقد جئت شيئا نكرا " و مرة اخرى قال الخضر (ع) و بأعصاب هادئة:

[75][قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا]

فتذكر موسى مرة أخرى الشرط ، و أحس بأنه خالفه للمرة الثانية ، و لأنه كان صادق العزيمة في ارادة التعلم فقد طلب فرصة أخيرة.

[76][قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا]و هذا أيضا درس للعالم ، فالتلميذ يجب أن يعطي من جهده للاستفادة مما تعلمه ، و الاستفادة ليس في سبيل نفسه ، و انما في سبيل تعليمه و تنميته و تربيته ، و التلميذ الحقيقي هو الذي يأخذ الى جنب المعرفة الصفات النفسية الفاضلة ، فيتعلم ، و يتدرب ، و ينمي صفاته الحسنة ، و يزكي نفسه ، أما ان يتعلم دون ان يتدرب ، أو يزكي نفسه ، أو يربيها على التضحية و الفداء ، فهذا تلميذ غير نافع.

ثالثا : و يبني جدارا

[77][فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن

يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض فأقامه قال لو شئت لتخذت عليه أجرا]و هنا رأى العالم (ع) ان هذه هي نهاية المطاف ، و ان موسى (ع) لن يستطيع ان يصبر اكثر من ذلك فقال:

[78] [قال هذا فراق بيني و بينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا]ان ظواهر الأمور لا تكشف دائما عن حقائقها ، لذلك على الانسان أن يتسلح بالصبر ، و الرؤية البعيدة الشاملة ، لكي يعرف الحياة معرفة عميقة ، و آنئذ يتخذ منها موقفا سليما.

ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا

هدى من الآيات

كنا مع خضر و هو يعلم موسى علما عمليا ، و يدربه على فهم الحياة ، و تحمل مصاعبها ، و تدبر عواقب

أحداثها ، و رأينا كيف أن موسى كان ليتفجر غضبا كلما رأى عملا يتنافى مع مظاهر الشريعة ، الى ان قال خضر لموسى : " هذا فراق بيني و بينك " و لكني سأفسر لك - قبل الفراق - تلك القضايا التي كانت غامضة عليك ، و أخذ يفسرها الواحدة تلو الاخرى.

يتبين لنا من ذلك ان بعض الأحكام التي يأمر الله بها أنبياؤه الكرام مختلفة عن الاحكام العامة التي يامر بها الناس العاديين ، فلقد كانت السفينة ذات ملكية خاصة ، و احترام الملكية واجب ، الا ان علم خضر المستمد من الله بوجود ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا، ان ذلك العلم دفعه و بأمر من الله الى خرق السفينة ، لكي تبقى بيد أصحابها المساكين اذ كان الملك لا يأخذ السفن المعيبة.

و كذلك يجب احترام النفس ، و لكن احترام النفس محدود بعدم وقوع ضررهاعلى الاخرين ، أما اذا كانت النفس ضارة ، فان الله سبحانه و تعالى يأذن لولي الأمر من قبله باعدامها ، و انقاذ المجتمع من شرها ، كما قدر لخضر بأن يقتل الغلام لكي لا يصبح ضارا بالآخرين ، و كذلك مسألة الجدار ، و هذا هو ظاهر ما نستفيده من الآيات الكريمة ، وهناك عمق آخر سوف نتدبر فيه و نذكره .

بينات من الآيات

لماذا خرق السفينة ؟

[79][أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها]

ان السفينة كانت لمساكين ، و من عادة الملوك و رؤساء الدول قديما و حديثا أن يأمروا بمصادرة وسائل النقل كلما واجهت دولهم حربا ، لان الحرب بحاجة الى وسائل النقل كالسفن و الجمال قديما ، و السيارات و الباخرات و الطائرات حديثا ، فهي اما تصادرها مصادرة تامة ، و أما أن تسخرها للأعمال الحربية فترة الحرب ، و هذه السفينة أيضا كانت من ضمن السفن المعرضة للمصادرة لولا أن خرقها لتصبح معيبة ، و بذلك لا تشملها أحكام المصادرة التي كانت مقصورة على مصادرة السفن الصالحة فقط.

[و كان ورآءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا]

الآية لم تقل ان ذلك الملك كان يأخذ السفن الصالحة فقط ، لكن الكلمة السابقة تدل على هذه المعنى ، و هذا من بلاغة القرآن.

لماذا قتل الغلام ؟

[80] [و أما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا و كفرا]

ان السبب في قتل الغلام من دون سابق انذار هو : ان هذا الغلام كان سيسبب لأبويه المؤمنين الصالحين الطغيان و الكفر ، لانهما ، من فرط حبهما لهذا الغلام كانا سيتبعان أهواءه ، في حين أنه كان قد تربى على الدلال و الفساد الخلقي ، لذلك كان خضر يخشى على أبويه المؤمنين أن يطغيا بسببه ، و لذلك قتله ، لانه وجود ضار.

[81] [فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة و أقرب رحما]لقد كان خضر يسعى من أجل ان يبدل الله هذا الغلام بمولود أفضل زكاة ، أي نموه يكون نموا زاكيا بدل ذلك النمو الطاغي ، فهناك نمو زاك و نمو طاغ ، النمو الزاكي هو : نمو ظاهر خال من السلبيات ، أما النمو الفاسد فهو : نمو خبيث مليء بالسلبيات.

و كذلك فرق بين صلة الرحم و بين الكفر بسبب الرحم فالعلاقة التي تربط بين الأب و إبنه اذا كانت علاقة بعيدة عن الايمان بالله سبحانه و تعالى و شكره ، فان هذه العلاقة هي علاقة الكفر و تناقص الشكر لله سبحانه ، بينما اذا كانت العلاقة هي علاقة الشفقة التيهي امتداد لعلاقة الانسان بالله ، كأن أقول : اني أحب إبني و اساعده لأنه نعمة من الله سبحانه ، فهنا تكون العلاقة امتدادية ، و آنئذ تصبح هذه العلاقة علاقة الرحم ، و التي يعبر عنها القرآن فيقول : " و اقرب رحما " و الكلمتان الأخيرتان جاء بهما القرآن لتتقابل مع الكلمتين الأوليتين ، فالزكاة و الرحم في مقابل الطغيان و الكفر.

بين المصلحة العامة و الخاصة

الاحكام الشرعية عموما ليست محصورة بمصلحة الافراد ، و انما هي متجهة الى المصلحة العامة و المصلحة العامة هي : مصلحة الافراد مجتمعين ، بينما المصلحة الخاصةهي : مصلحة الافراد منفصلين ، و من الطبيعي ان تتفوق مصلحة الافراد مجتمعين على مصلحة الافراد منفصلين ، و بصورة خاصة عند التعارض ، فمثلا مصلحة مليون انسان أهم من مصلحة خمسة أفراد.

و عندما نقول المصلحة العامة فنحن نقصد بها مصلحة البشر ، و ليس من المعقول ان يترك الاسلام مصلحة البشر ككل من أجل مصلحة افراد قلائل.

ان الثقافة الرأسمالية التي تؤكد على المصلحة الفردية هذا التأكيد المبالغ فيه ، انما هي ثقافة استغلالية يبرر بها المنحرفون الجشعون استثمارهم للآخرين ، و سيطرتهم اللامشروعة عليهم ، و أنهم ينادون بالملكية و بالمصلحة الفردية ، و أي مصلحة للفرد في مقابلمصلحة المجموع ؟ و أي حرمة و حرية لفرد في مقابل حرمة و حرية الناس ككل ؟ و ماذا تعني هذه الكلمة ؟ و هل هي مصلحة أم مضرة ؟

إننا نشك في ان تكون هذه الكلمة صادقة (المصالح الفردية) بل الأصح ان تسمى بالمضار الفردية ، فالخير و الشر لا يقاسان بالفرد ، بل يقاسان بالمجموع ، الخير هو ما ينفع الناس ، و الشر ما يضر الناس ، فاذا نفعني شيء وضر الآخرين فهو شر ، و مفهوم الكلمة منذالبداية مفهوم شامل جماعي ، و لا ريب ان كل شر في العالم ينفع شخصا ما ، فهل يتبدل مفهوم الشر لانه ينفع شخصا واحدا أو مجموعة صغيرة من ابناء المجتمع الانساني ؟!

و ربما تكون الآيات الكريمة دالة على هذه الحقيقة و هي : ان المصلحة حقا و المنفعة صدقا انما هما بالقياس الى المجموع ، و أن الاحكام الشرعية لا تعطي صفات مطلقة لبعض المفاهيم ، فالملكية الفردية ليست سدا أمام الاسلام ، و كذلك حرمة الافراد علما باني لا أنفي اهتمام الاسلام بالملكية ، و لكنه محدود بمصالح الآخرين ، و عندما يبدأ الضرر بالآخرين فان حرمة الملكية تنتهي.

في العلاقة مع النعم

ان نظرة الاسلام للحياة الدنيا و زينتها هي : ان كثيرا من أشياء الحياة الدنيا تبدو أمام الانسان مفيدة ، و لكنها عند الله غير مفيدة لما يعلم من مستقبلها ، فان يشرب الانسان الخمر ، و يجلس على مائدة القمار ، و يأكل من أموال اليتامى ، قد تبدوا مفيدة و لذيذة له حاليا ، و لكنها تحمل في طياتها عواقب سيئة جدا ، و العكس كذلك صحيح ، فأيهما أفضل الانسان السالم أم الانسان المريض ؟

قد يكون الانسان المريض أفضل في بعض الاحيان ، لان الانسان السالم في دولة الارهاب يضعونه في السجن ، أم المريض فيتركونه آمنا في بيته ، و في بعض الاوقات تكون نظـرتنا الى الحياة ، غير حكيمة فلا نرى المستقبل فنحب ما يضرنا ، و نكره ما ينفعنا . كلا .. يجب ان نرضى برضا الله و نسلم لقضائه فاذا أعطانا ربنا شيئا ليس بذلك الكمال المطلوب ، فمن الخطأ ان نصر على الحصول عليه ، فباصرارنا قد يأتينا الله به و لكن يكون في ذلك ضرر لنا.

فمن جملة سنن الله في هلاك الاقوام فتح أبواب الرحمة عليهم ، فاذا فتح أبواب الرحمة كلها على أمة فان ذلك تدبير لهلاكها ، و كذلك بالنسبة للانسان ، فاذا رأيت النعم تنهال عليك من كل مكان فالزم الحذر ، و كن يقظا ، لان هذه النعم قد تكون استدراجا و ان اللهيريد ان يجرب إرادتك و قدرتك على المقاومة ، و يريد أن يعطيك رزقك مرة واحدة حتى لا يكون لك نصيب في الآخرة ، على الانسان ان يكون معتدلا و حكيما في تصرفاته مع زينة الحياة الدينا ، و لا يبالغ فيها و لا يطالب ربه ان يعطيه كلها مرة واحدة.

مـن جهة اخرى فان علاقة الانسان بنعم الحياة يجب ان تكون علاقة الشكر و ليست الكفر ، و علاقة الزكاة و ليس الطغيان.

ان علاقة الشكر هي : علاقة المحافظة على العوامل و الاسباب التي أدت الى النعمة فاذا قمت بثورة و نجحت فيها ، و وصلت الى السلطة ، ففكر في الذي دفعك الى السلطة من العناصر البشرية و العوامل المعنوية ، و اذا عرفتهما فحافظ عليهما ، فاذا حافظت عليهما فأنت شاكر لنعم الله تعالى ، أما اذا لم

تحافظ عليهما فأنت كافر ، و الذي لا يحافظ على الاسباب و العوامل التي أدت الى حصوله على النعمة تتركه النعمة و ربما بلا رجعة ، أما علاقة الكفر فهي الاهمال لتلك العوامل . كذلك علاقة الزكاة ، فقد جاءت في القرآن بمعنى : الانفاق و في اللغة تأتي بمعنى : التطهير و النمو ، و ذلك لأن كل انفاق و كل عطاء انما هو بمعنى النمو فالانسان لا تنمو عضلاته الا عندما يستخدمها في العمل ، و لا ينمو عقله الا عندما يستخدمه في التفكير ، و لا تنمو قدرات لسانه الا عندما يستخدمه في النطق و الكلام، و هكذا فان كل شيء في الحياة يزكو و ينمو عن طريق العطاء و الانفاق ، و العكس صحيح ، فاذا ادخر الانسان جهوده فسوف تكون هذه الجهود سببا للطغيان ، و الطغيان يكون سببا للهلاك و الإنتهاء.

هكذا يعطينا القرآن الحكيم - فيما يبدو - درسا في العلاقة مع زينة الحياة الدنيا ، و قد سبق و ان قلنا ان سورة الكهف دروس و عبر تصحح علاقتنا مع الحياة الدنيا و ما فيها من زينة ، و أموال ، و أولاد .. ألخ.

لماذا بنى الجدار ؟

] [82]و أما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة و كان تحته كنز لهما و كان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما و يستخرجا كنزهما رحمة من ربك [فلو انهدم الجدار و جاء أهل المدينة و أرادوا أن يبنوا مكانه شيئا ، لأكتشفوا ذلكالكنز الذي كان عبارة من دراهم و دنانير ، أو كما جاء في الأحاديث : ان هذا الكنز كان كتبا خاصة باليتيمين ، حيث كتب أبوهما فيهما مختلف الأشياء ، و احتفظ بها تحت الجدار فأراد الله ان يبلغا سن الرشد و يستخرجا كنزهما و يستفيدا منه ، فقد روى القمي عن الصادقعليه السلام " كان ذلك الكنز لوحا من ذهب فيه مكتوب بسم الله لا إله إلا الله محمد رسول الله ، عجبت لمن يعلم ان الموت حق كيف يفرح ، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، عجبت لمن يذكر النار فكيف يضحك ، عجبت لم يرى الدنيا و تصرف اهلها حالا بعد حال فكيف يطمئن اليها " (١. (

ان هذه الآية و الآية السابقة تدلان على فكرة هامة و هي : ان الله سبحانه و تعالى يكرم الانسان لأجل أبويه و انه اذا عمل الانسان عملا صالحا فان الله يكرمه ليس في ذاته فقط و انما في أبنائه ايضا ، و ان كثيرا من حكم الحوادث في الحياة التي تقع دون أن نعرفطبيعتها مرتبطة ليس بالشخص ذاته ، و انما مرتبطة بشخص آخر ، فلربما اكرم الله مريم الصديقة ، و أنشأها ، و رباها منذ نعومة أظفارها تلك التربية الزكية بسبب والدتها التي نذرت ما في بطنها محررا ، و أكرم عيسى بسبب أمه مريم الصديقة ، و ربما أكرم الله سبحانه كثيرا من الرجال المصلحين الذين ترى فيهم منذ طفولتهم آيات الشجاعة و الذكاء من أجل آبائهم أو أمهاتهم جاء في الحديث عن العياشي عن الصادق عليه السلام : " ان الله ليحفظ ولد المؤمن الى الف سنة ، و ان الغلامين كان بينهما و بين ابويهما سبعمائة سنة ، وقال : ان الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده و ولد ولده و يحفظه في دويرته و دويرات حوله فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله " (٢. (

(1)تفسير الصافي / ج ٢ - ص 257

(2)المصدر

و هذا التكريم يشجع على العمل ، فحتى لو فكرت أنك لن تحصل على النتيجة في حياتك ، و لكن الخير حتما آتيك ان كنت لم تزل حيا ، و الا فسوف يأتي من بعدك أبنائك.

كما ان العكس صحيح ايضا حيث : ان الله سبحانه و تعالى قد يكتب هلاك انسان يعلم انه لو بقي حيا لأضر بالآخرين ، و قد قدر هلاك ذلك الغلام لكي لا يسبب طغيانا و كفرا لوالديه ، فاذا رأيت شيئا لا تفهمه فلا تنكره ، فلربما كانت هناك حكمة خفية من هذه الحكم.

[و ما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا]و في نهاية هذه القصة القصيرة نذكركم مرة أخرى بأن السعي وراء العلم و الخبرة يجب أن يكون هدف الانسان المؤمن أبدا ، و الخبرة هي علم الممارسة الحية لحوادث الحياة ، وهذه الخبرة هي من حكم الله في الحياة ، أو بتعبير آخر هي التي تجعل الانسان أكثر ايمانا وفهما لحكم الله في الحياة ، و بالتالي أقرب الى الأحكام الشرعية.

الموقف السليم من السلطة

هدى من الآيات

في سياق الحديث القرآني عن موقف الانسان من زينة الحياة الدنيا ، تتناول هذه الآيات الموقف السليم من شهوة التسلط ، و التي هي أكثر إثارة و أشد جاذبية من أية زينة أخرى فـي الحياة الدنيا ، و ضرب الله لنا مثلا من ذي القرنين الذي كان في العهود السالفة ،و الذي لا نعلم بالضبط فيما إذا كان هو الإسكندر المقدوني الذي فتح كثيرا من بلاد العالم إنطلاقا من اليونان أو هو ملك من حمير ، أو هو الملك الفارسي كورش الأول - كما تؤكده الدراسات الحديثة - أو هو رجل آخر لم يذكر التاريخ لنا المزيد من قصصه ، سـواء كـان هـذا أو ذاك فلقـد كـان رجلا صالحا ، لم تخدعه بهارج السلطة ، و لم تخرجه الزعامة و السيطرة عن حدود الشرع ، و في هذه القصة يذكرنا القرآن بعدة حقائق منها : -أولا : ان ما حصل لذي القرنين من سلطة ، إنما كان بسبب منه و سبب من الله ، أما السبب الذي كان منه فهو : إتباع هدى الله ، و الاستفادة من الإمكانات المتوفرة في الطبيعة ، و أما السبب الذي كان من الله : فقد علمه الله طريق الحياة و سننها ،و أساليب السيطرة عليها و تسخيرها ، فعمل في سبيل ذلك بهمة فكان العمل منه و كان من الله التوفيق و البركة.

ثانيا : أن ما قام به ذو القرنين من أعمال كان ضمن إطار قدرة الله ، و علمه ، و إحاطته ، فلا أحد يبلغ من السلطة مكانا في ملكوت الله الواسعة إلا بإذن من الله.

ثالثا : كان ذو القرنين رجلا صالحا ، لم ينظر الى الدنيا نظرة منحرفة ، فحينما أوتي السلطة ، أوحى إليه الله (الهمه الهاما) : أن بقدرتك أن تسير في الناس بما شئت ، أما أن تعذب ، و أما أن تعمل بالحسنى .

فقال ذو القرنين : إنني سوف أسير في الناس بالعدل ، فمن ظلم فاني أعذبه ، و من لم يظلم فسوف أرحمه.

و انطلق الرجل في عملية تعميقية للسلطة من قاعدة : انها نعمة و فضل من الله ، و أنه يجب أن يستفيد منها إستفادة مشروعة ، فجعلها لاقامة العدل ، و دحض الباطل.

هذه المقالة توحي إلينا بحقيقة أخرى و هي عبرة هذه القصة ، و هي : إن الانسان قادر على التغلب على شهواته ، و على موقعه الاجتماعي ، فلأنك من طبقة الأثرياء او من حاشية السلاطين و شريف من الأشراف ، هل يجب عليك ان تخضع حتما لسلبيات طبقتك او مركزك أو مالك؟ كلا .. إن بإستطاعتك أن تنفلت من قيود المادة و ان احاطت بك ، و ان تحلق في سماء القيم ، باستطاعتك أن تكون سلطانا أو غنيا و تقاوم سلبيات طبقتك ، و ان تكون شريفا و لا يستبد بك حب الشرف و الجاه فيخرجك عن طاعة الرب.

و القرآن الكريم يعطي الانسان الثقة بأنه قادر على أن يتفوق على جاذبية الأرض و المادة ، أن هذا الايحاء المكرر و المستمر في القرآن الكريم هو حجر الأساسفي تربية الانسان ، فلولا شعور الانسان بالثقة بذاته ، و بقدرته على التغلب على ضغوط الحياة ، لما استطاع أن يصبح إنسانا صالحا مستقيما.

رابعا :أن على المؤمنين أن يعملوا من أجل رفاهية الانسان في الأرض ، و أن الاسلام لم يأت لمصلحة طائفة معينة من البشر و ليس هدف الحكومة الاسلامية بناء دولة قوية ذات صناعة متقدمة ، بل عليها أن تسعى من أجل كل المستضعفين في الأرض ، سواء كانوا مسلمين أولم يكونوا ، لأن الانسان كأنسان محترم في الاسلام و على المؤمن ان يعمل من أجل رفاهية الانسانية عامة.

و كذلك الحزب الاسلامي و التجمع الايماني ليس هدفه السلطة ، انما عليه السعي من أجل الناس ، لرفع الضيم عن كل الناس سواءا وصل الى السلطة أو لم يصل ، نعم .. قد تصبح السلطة أداة لتنفيذ هذه المهمة ، و لكن السلطة بحد ذاتها ليست هدفا.

ان الاسلام لا يدعوك الى العنصرية بأن ترى نفسك أحسن من الآخرين ، و تعتبر نفسك مركز الدنيا فتسعى من أجل إيصال نفسك الى مركز القدرة ، ان تلك العنصرية يعارضها الاسلام بقوة ، و هي الانحراف الذي وقع فيه اليهود في التاريخ ، فبعد أن كانوا مجموعة عاملة منأجل الناس اصبحوا مجموعة

عاملة من أجل أنفسهم على حساب الناس ، فاعتبروا أنفسهم أبناء الله وشعبه المختار.

لقد كان ذو القرنين عبدا صالحا ، تحرك في العالم شرقا و غربا ، و من الطبيعي ان أبناء العالم ذلك اليوم لم يكونوا مؤمنين ، و لكنه حينما وصل الى منطقة معينة ، و طلب منه أهلها أن يبني لهم سدا ، لم ينهرهم بل قال : نعم ، أن الله مكنني و أعطاني السلطة من أجل رفاهية الانسان ، من أجلكم أيها المحرومون سواء كنتم مؤمنين أو غير مؤمنين ، فبنى لهم السد و لم يطالبهم بأجر ، و هذا مثل أعلى للدولةالإسلامية.

فلنفتـرض أنه قد أصبحت دولة إسلامية بمثابة أمريكا و روسيا في القوة و السلطة ، فهل تبحث كأمريكـا و روسيا عن أسواق جديدة لتصدير سلعها ؟ و مواد خام جديدة لتستفيد منها ؟ أو شعوب جديدة لتستعمرها ؟ كلا .. إنما يجب أن تسعى تلك الدولة المسلمة الغنية من أجل رفاهية الانسانية في العالم ، و تبحث عن أي مظلوم في العالم فتهرع إليه لتنقذه من الظلم ، و تبحث عن أي محروم لتنتشله من الجوع و الحرمان.

هذا هو هدف الأمة الاسلامية ، و هذه في الواقع هي الحدود التي تفصل بين الايمان و الجاهليـة ، فليست الحدود هي الشعارات و الكلمات ، و حتى الطقوس و العبادات ، إنما المؤمن هو الذي يخرج من ذاته من أجل الآخرين ، و إنما " المسلم من سلم الناس من يده ولسانـه " و الدولة الاسلامية هي التي تخرج من ذاتها من أجل رفاه الآخرين.

بينات من الآيات
عودة للتاريخ
[83][و يسئلونك عن ذي القرنين]

ان الذي ينفعنا من التاريخ هو أن نتذكر به و نعتبر ، إذ ان الحقائق معلومة ، و فطرة الانسان شاهدة عليها ، و لكن الانسان ينسى و تحجبه عن الحقائق شهواته و ضغوط حياته ، لذلك قال ربنا:

[قل سأتلوا عليكم منه ذكرا]

لذلك فان الانسان بحاجة الى من يذكره و التاريخ خير من يذكر الانسان ، و القرآن إنما يقص علينا قصص التاريخ لكي يذكرنا و يوجهنا من خلالها.

من هو ذو القرنين ؟
هناك ثلاثة آراء فيه:

- 1قال البيروني و قوم من المفسرين إنه ملك من الحمير في اليمن ، و ملوك اليمن تبدأ اسمائهم بكلمة (ذي) و السد هو سد المأرب المعروف ، بيد أن شواهد التاريخ لا تؤيد هذا الرأي ، لأنه لم يعرف ملك من اليمن امتلك الشرق و الغرب ، و لان سد المأرب لا تنطبقعليه مواصفات القرآن للسد.

- 2و دافع الرازي و جماعة عن الرأي القائل بأنه الإسكندر المقدوني ، لانه ملك الشرق و الغرب ، و لان قصته كانت معروفة عند الناس فسألوا النبي عنها ، إلا أنه ناقش في هذا الرأي أيضا بأن الإسكندر كان تابعا لأرسطو ، و تعاليم ارسطو لم تكن إلهية فلا تنطبق عليه آيات القرآن ، علما بأنه لم يعرف عنه بناء سد بتلك الصفات التي يذكرها القرآن.

- 3أما الباحث الهندي المسلم (أبو الكلام آزاد) الذي شغل لفترة ما منصب وزارة الثقافة الهندية فقد رأى أنه كان كورش الكبير الذي فتح الشرق و الغرب و قدم بحثا مفصل فـي ذلك و أستدل على رأيه بأن الرجل صالحا حسب ما نقل عن المؤرخين اليونانيين ، مثل هرودوت ، علما بأنهم أعداؤه ، و ان اليهود يقدرونه لانه أنقذهم من أعداء الدين ، و يعتقد أنهـــم إنما سألوا عنه النبي لوثيق العلاقة بينهم و بينه و لوجود إشارة إليه في كتبهم ، و أضاف الباحث أنه وجد في حفريات منطقة الإستخر تمثال لكورش له جناحا عقاب و على رأسه تاج فيه قرن كبش مما يتناسب و معنى ذي القرنين عند بعض المفسرين.

و أيد رأيه ايضا بأن السد الحديدي الموجود حاليا في جبال " قوقاز " في منطقة تسمى حاليا) داريال) بين وادي " ولادي كيوكز " و وادي " تفليس " تنطبق عليهتوصيف القرآن للسد علما بأن كورش هو الذي بناه ، دفاعا عن أهل المنطقة في مواجهة قبائل " يأجوج و مأجوج " المتوحشة التي كانت لهم هجمات على البلاد المتحضرة طوال التاريخ ، حيث كانت الأخيرة منها بقيادة جنكيز خان المغولي (1)هذا . و لكن الأحاديث الواردة في قصة ذي القرنين تتناسب و هذا القول و الله أعلم.

[84][إنا مكنا له في الأرض وءاتيناه من كل شيء سببا [مكن الله ذا القرنين في الأرض ، و ذلك عن طريق تعريفه بالأسباب و العلل ، فذا القرنين علمه الله أسباب الحياة ، و استطاع عن طريق علمه أن يتمكن في الأرض و يسخر الطبيعة.

[85][فأتبع سببا]

لقد تحرك ذو القرنين في طريق السبب ، و اختار أحد الأسباب و اتبعه بعد أن أتاه الله من كل شيء سببا ، ان علم الانسان كثير ، و لذلك فهو يختار من بين معلوماته عما يمكن أن يطبق عمليا في إطار حياته المحدودة ، و إذا أراد أن يتبع كل ما يعلم فان حياته لن تكفي لذلك حتما.

سياسة العدل

] [86]حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة و وجد عندها قوما[

و صل ذو القرنين الى آخر الأرض المسكونة غربا ، و حينما وقف هناك رأى الشمس تسقط في بحر أو مستنقع مائي أو ما يشبه ذلك و الانسان إذا كان في البر فانه يرى الشمس و كأنها تسقط في الأرض الملساء ، و إذا كان عند البحر يرى(١) تفسير " نمونه " للشيرازي / ج ١٢ - ص (٥٤٥ - ٥٤٩)و كأنها تسقط في جانب من البحر ، و إذا كان في مكان وراءه مياه آسنة حينئذ يرى الشمس فيها .الحمأة : الطين الأسود العفن ، و يبدو أن المنطقة التي بلغها ذو القرنين غربا ، كانت مليئة بالمياه الآسنة ، حتى اعتقد ان الشمس تسقط فيها ، و يقال : إنه وصل الشاطئ الغربي لمنطقة آسيا الوسطى حيث يرى الشمس و كأنها تسقط في الخلجان العديدة المنتشرة في منطقة ازمير بتركيا ، و لعل المنطقة كانت في ذلك العصر مليئة بالمياه الآسنة لكثرة هطول الأمطار في هذه البقعة من العالم في ذلك اليوم كما تشهد على ذلك البحوث العلمية الحديثة.

]قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب و إما أن تتخذ فيهم حسنا]كان أمام ذي القرنين و هو صاحب السلطة أن يتخذ أحد الطريقين ، اما طريق الجور و الإرهاب ، و اما طريق العدل والإصلاح.

] [87]قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا]يقول بعض المفسرين أن الظلم هذا هو الشرك . و أن الله إنما خير ذا القرنين بين التعذيب و التيسير ، لأن أولئك الناس كانوا كفارا ، و كان يمكنه أن يعذبهم حتى ينزعوا عن الكفر ، كما أنه كان يمكنه أن يبدأهم بالدعوة فمن آمن منهم عدل معه ، و من أشرك عامله بالعنف ، قال العلامة الطبرسي في مجمع البيان : (في هذا دلالة على أن القوم كانوا كفارا ، و المعنى أما ان تعذب بالقتل من أقام منهم على الشرك ، و أما ان تأسرهم و تمسكهم بعد الأمر لتعلمهم الهدى ، و تستنقذهم من العمى (١) و يبدو أن هذا التفسير أصح و يدل ذلك على : أن السلطة الاسلامية هي السلطة التـــي تتعامل مع الناس حسب معتقداتهم ، و لكنني أرى أن الظلم هنا إنما هو بمفهومه المعروف كإغتصاب حقوق الآخرين ، بدليل قوله سبحانه و تعالى:

(1)مجمع البيان / ج ٦ - ص 940

[88][و أما من ءامن و عمل صالحا]

مما يدل على أن السلطة الاسلامية تعامل الناس على أساس أعمالهم و ليس على معتقداتهم ، صحيح ان المعتقدات تنتهي في الاعمال ، و الايمان ينتهي الى العمل الصالح و الشرك ينتهي الى الظلم ، و لكن المهم أن الجزاء ليس بالمعتقدات و إنما على الاعمال.

[فله جزاء الحسنى و سنقول له من أمرنا يسرا]

لقد أدى ايمان ذي القرنين بالله و اليوم الآخر الى اتخاذ السياسة الصحيحة في الحكم و الإدارة ، و هي إتباع العدل و الحق ، و خدمة الناس و تيسير أمور الرعية ، و تحريرهم من الروتين و البيوقراطية التي يتبعها الحكام المنحرفون.
] [89]ثم أتبع سببا]

ذو القرنين إستفاد أيضا من الأسباب ، و استخدم عمله و علمه في طريق آخر نافع.

[90][حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا [أين وصل ذو القرنين شرقا ؟ لا أعلم ، إلا ان المنطقة كانت بدائية حيث أن القوم فيها لم يكن يملكون بيوتا تكنهم من حرارتها ، كما جاء في حديث مأثور عن الباقر (عليه السلام):

"لم يعلموا صنعة البيوت " (١).

و قال البعض ان المنطقة كانت سهلا بحيث تظلها الجبال و لعلهم كانوا يفتقرون(١) الصافي / ج ٣ - ص ٢٦٢

الى الثياب ايضا.

[91][كذلك و قد أحطنا بما لديه خبرا]

هــذا التحـول من المغرب الى اول المشرق كان دليلا على قدرة ذو القرنين و سلطته ، و لكنها لم تكن بعيدة عن سلطة الله ، فقد كان الله محيطا به.

[92][ثم اتبع سببا]

[93][حتى إذا بلغ بين السدين]

بين السدين اي بين الجبلين حسب الظاهر ، و قد سبق الحديث عن انه قد يكون في منطقة القوقاز و هكذا تكون حملته شمالية.

[وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا]

كانت لغة هؤلاء بعيدة جدا عن تلك اللغة التي كان يتحدث بها ذو القرنين ، بحيث لم يكد يفقهها ، و إن الله الذي علم الانسان البيان اوجد وسيلة للتفاهم بين الطرفين.

يأجوج و مأجوج

[94][قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج و مأجوج مفسدون في الأرض]

يقال ان يأجوج و مأجوج هي قبائل مغولية بدوية ، كانت تغير على تلك البلاد ، فتعيث فيها فسادا ، و لعل ذو القرنين قد سار الى تلك البلاد لمقاومة خطرهم)على تفسير انه كورش الكبير)..

[فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا و بينهم سدا]من عادة الملوك الذين يدخلون البلاد انهم يقدمون خدمة للناس ، و لكنهم في مقابل ذلك يستعمرون البلد ، و يستغلون موارده ، و يريدون من اهله ان يوقعوا على وثيقة العبودية الكاملة لهم ، و هؤلاء ايضا ظنوا ان ذا القرنين من هؤلاء السلاطين و الملــوك ، و يبدوانهم استعدوا لاعطاء المزيد من خيراتهم من أجل درء خطر يأجــوج و مأجــوج عن

انفسهم.

و لكن ذا القرنين لم يطالبهم بالخراج ، أو يأخذ منهم مالا ، و انما.

[95][قال ما مكني فيه ربي خير]

ان الله مكنني و سخر الحياة لي من أجل خدمتكم و خدمة المحرومين و المستضعفين ، ثم اني ابحث عن الطرق المشروعة لاستغلال الحياة ، بلى .. ان السلطة اذا ارادت ان تسخر الناس لاهدافها ، و تستثمر مواردهم ، فانها لا تدوم ، اما اذا عملت من أجل استغلال موارد الطبيعة مثلا ، تستفيد من الاراضي البور و تبدا بتصنيع البلاد و استخراج معادنها ففي ذلك خيرها و خير الشعب.

[فأعينوني بقوة أجعل بينكم و بينهم ردما]

لقد طالبهم ذو القرنين فقط بطاعته في طريق بناء السد (الردم) اي التعاون معه في سبيل انجاز المهمات الصعبة و هذه هي العلاقة المثلى بين السلطة و الشعب .

ذو القرنين أسوة الحكم الفاضل

هدى من الآيات

ماذا فعل ذو القرنين شكرا لنعمة السلطة و القوة التي وهبها ربه له ؟ و ماذا كان موقفه من هذه الزينة الحياتية ؟ و ماذا ينبغي أن يكون عليه موقف المؤمنين الصالحين من زينة الحياة الدنيا ؟

كل ذلك مما تذكره هذه الآيات الكريمة ، في سلسلة أحاديث القرآن في سورة الكهف ، عن علاقة الانسان بالطبيعة ، لقد بنى ذو القرنين سدا منيعا لا يخترق لقوم لا تربطه بهم علاقة الا علاقة الخدمة الانسانية ، و رفض أن يأخذ منهم أجرا أو يطالبهم بشكر ، انما هو الذي شكر ربه الذي وهب له هذه القدرة.

و لقد شكر ذو القرنين ربه مرتين ، مرة حينما استخدم القدرة في سبيل منفعة الناس و مرة حينما استخدم عمله وسيلة لهدايتهم ، و كشف للناس ان هذه القوة مما وهبه الله له من فضله و عرف بأن حاجة الناس الى الرسالة و الهداية أعظم من حاجتهم الى قوته و سلطته ، فاستخدم تلك اللحظة التي شعر فيها أولئك الذين كانوا

يتعرضون لهجوم مرعب كل عام مرتين بالأمن و الراحة عندما رأوا ان الله قد أنقذهم على يديه ، استغل ذو القرنين تلك اللحظة في سبيل توجيه الناس و هدايتهم ، و هذا منتهى ما يستطيع أن يقوم به صاحب سلطان أو صاحب قوة ، فهو حين يعطي ماله - مثلا - فيشبع جوعة مسكين أو يغني فقيرا ، أو يؤوي يتيما ، لا يكتفي بذلك ، و انما يبدأ بهداية ذلك الفرد ، فيقول : هذا المال ليس لي ، و انما هو لك ، و انه فضل من ربي ، ان الله قد يعطيك خيرا من هذا المال ، و هكذا يتحدث اليه فيفيده بحديثه اكثر مما يفيده بماله.

جاء للامام الحسين (عليه السلام) فقير يطلب منه حاجة ، فأخذ أربعة آلاف درهم و جعلها في طرف عباءته ، ثم فتح جانب الباب و دفعها له ، مستحييا منه لكي لا يجعل الفقير يحس بالخنوع ، و لكي يربيه و يزكيه ، و يبين له ان اعطاء المال بحد ذاته ليس خدمة ، وانما الخدمة الحقيقية هي الإسلوب المهذب المتواضع ، و بالتالي فان الامام يعطيه من التربية اكثر مما يعطيه من المال.

و الامام علي (عليه السلام) يأتيه رجل و يطلب منه حاجة ، فيشير اليه الامام بأن : أكتب حاجتك ، ولا تقلها مشافهة.

لكي يوفر عليه ماء وجهه ، و بذلك يعطيه من التربية اكثر مما يلبي حاجته المادية.

هذا هو الموقف السليم الذي يجب ان يتحلى به المؤمنون ، فيشكرون ما اعطاهم الله عليهم من فضله

و يبنون علاقتهم بالآخرين على هذا الأساس.

و هناك درس آخر نستفيده من الآيات و هو : موقف الناس من صاحب السلطة ، و أنه مهما كان عليه ذو القرنين من سلطة كبيرة و عظيمة ، فان هذه السلطة من الله و بالله و الى الله ، و يوم القيامة يحشر الناس الى ربهم لا الى سلاطينهم أو أغنيائهم ،و كل الناس في يوم القيامة سوف يختلطون ببعضهم و يموج بعضهم في بعض ، من دون ان يعرف هذا سيد و هذا مسود ، و هذا كبير و هذا صغير - بل يكونون كالنحل الذي يدخل بعضه في بعض عند الخلية من دون ان تكون هناك ميزة لواحدة دون أخرى - لا لكبير على صغير ، ولا لرجل على أنثى ، و لا لشيخ على شاب ، لأن الناس سيقفون على صعيد واحد عندما يحشرون الى ربهم ، اذن فلتسقط هذه الاعتبارات الذاتية ، و ليرتفع الانسان الى مستوى القيم.

بينات من الآيات

بناء السد

[96][ءاتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين]

أي وفروا لي قطع الحديد ، و الزبر هي القطع المجتمعة من شيء ، سواءا كان ماديا كالحديد أو معنويا كالفكر ، فالكتاب السماوي يسمى زبورا لان فيه افكار مجتمعة الى بعضها ، و كذلك الحديد الذي يجتمع الى بعضه يسمى ايضا زبرا.

و بعد ان طلب أهالي البلاد من ذي القرنين ان يساعدهم في محنتهم ، جمعهم ذو القرنين و نظم قواهم ، و طلب منهم أن يجمعوا قطع الحديد التي كانت متوفرة في بلادهم ، ثم أمرهم بأن ينفخوا في النار حول هذه القطع الحديدية ، فاشعلوا النار و أخذوا ينفخون فيها كماينفخ أصحاب صناعة الحديد قديما في النار بطريقتهم الخاصة.

[قال انفخوا حتى إذا جعله نارا]

التهب الحديـــد من شدة النار و هكذا التحمت القطع الحديدة ببعضها ، و لم يكتف بذلك بـل.

[قال ءاتوني أفرغ عليه قطرا]

ثم طالبهم بأن يأتوا اليه بالنحاس المذاب ، ثم يصبونه على القطع الحديدية المحماة ، ثم يتركونها مدة حتى تبرد ، فاذا بسد عظيم بين الجبلين مبني من قطع الحديد المتلاصقة ببعضها ، وعليها النحاس .. يزيده قوة لان الحديد تتضاعف قوته مع النحاس كما يقول اصحابالفن ، يسد الخلل بين قطع الحديد . و يمنع عنه الصدأ.

و اذا كان هذا السد هو الموجود حاليا في منطقة القوقاز فان سلسلة الجبال التي تشكل حاجزا طبيعيا بين مناطق المغول و منطقة القوقاز تكون قد اكتملت بهذا السد و اصبحت كحائط عظيم حيث ان مكانه هي الثغرة الوحيدة في المنطقة و لقد كان من أروع الانجازات المعمارية في ذلك اليوم و لعله حتى اليوم يعتبر أقوى سد في العالم.

[97][فما استطاعوا أن يظهروه و ما استطاعوا له نقبا]كان مرتفعا بحيث لم يستطيع يأجوج و مأجوج أن يتسلقوه ، و كان متينا بحيث لم يستطيعوا ان ينقبوا من تحته نقبا ، و لعل ذا القرنين كان قد حفر حفيرة كبيرة و جعل الجدار الحديدي راسخا فيها بحيث لا يمكنهم النقب أيضا على المنطقة الصخرية الصلبة .

ان كل ما قام به ذو القرنين ، اعطاء الخبرة ، و تنظيم قوة الناس في بناء هذا السد ، فهو لم يأت بالحديد ، و لا بالقطر ، و لا بالقوة البشرية من بلده ، كل الامكانات كانت موجـودة و متوفرة ، و مع ذلك لم يتمكن أهالي تلك البلاد من الاهتداء الى مثل هذا العمل ، أما للاحتلافات الموجودة بينهم ، أو لعدم تنظيم قواهم ، أو لنقص في خبرتهم الحضارية ، فلم يعرفوا أنه من الممكن ان يجمعوا قطع الحديد الى بعضها ، و يفرغوا عليها قطرا حتى تصبح سدا منيعا ، و هذا ما يؤكد علىان السلطة القويمة هي السلطة التي تجمع قوى الناس و تعبؤها في سبيل مصلحتهم.

نحن نرى بلادنا تفتقر الى الصناعات الثقيلة برغم توفر كل الإمكانات لديها لإنشائها . لماذا ؟

لأن ذلك يستدعي تعبئة طاقات الامة كلها ، فالسلطة يجب ان تبني الجامعات لكي تتوفر الكوادر القيادية من العلماء ، و الفنيين ، و الاخصائيين ، الذين يمكنهم الاستفادة من الإمكانات البشرية ، و المادية بهذه الأمور ، و هذه هي الفوائد الاساسية للسلطة الحكيمةو عليها ان تستخرج المعادن ، و تبني المشاريع الضخمة لتوفير الطاقة من بترول و كهرباء و عليهـا ان تمد الجسور و الطرق . و تبني الموانـئ ثم توفـر الخطة و المال و القوانيـن المنسقة من أجل بناء صناعات ثقيلة ، و هناك يبدا دور التعب في السعي و الكد و الأبـــداع.

وعد الله

[98][قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكـاء و كان وعد ربي حقـا]

أظهر ذو القرنين في تلك اللحظة التي أعجب الناس فيها بعبقريته و اكبروه ايما اكبار أظهر عجزه امام الله لكي لا يفتن الناس به انما يعبدوا ربهم ، انه قال : ان هذا السد سد منيع و هو عمل حضاري عظيم ، و لكن سيتهاوى حينما يأتي وعد الله ، يوم القيامة أو يومظهور الحجة ، أو يوم انتهاء مفعول السد تتقدم البشر حضاريات كعصرنا اليوم ، أو يوم يضعف ايمان الناس الذين كانوا أمام السد ، لا نعلم انما المهم انه في اليوم الموعود سيتهاوى السد ، و الأمور كلها بيد الله.

انه وعد الله يأتي حتما و ليس في ذلك أي ريب ، و على الناس أن لا يناموا علىحرير الأمل ، و انما يكون عندهم احساس بالخطر المستقبلي ، فيعملوا كل ما في وسعهم لتفاديه.

[99][و تركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض]

الناس يصبحـون و كأنهم النحـل ، أو كأنهم الطير في السماء يختلط بعضهم ببعض ، و تنعدم الميزات كلها بينهم.

[و نفخ في الصور فجمعناهم جمعا]

عندما ينفخ في الصور يوم القيامة ، فان كل الناس يأتون فورا و دون أي تلكؤ فلا أحد يرفض ، و لا أحد يتكبر ، و لا أحد يتكاسل ، و هذا دليل عجزهم ، و دليل شعورهم بالتسليم المطلق لأمر الله ، و الذي كان ينبغي ان يكون عندهم في الحياة الدنيا و لم يكن.

[100][و عرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا]

يرى الكافرون يومئذ طبقات جهنم و دركاتها الملتهبة ، و حياتها الرهيبة كالتلال و عقاربها الضخمة كالبغال ، فيمتلؤون رعبا و يأسا ، و يعتصرهم الندم على ما عملوه في الدنيا ولات حين مندم.

[101][الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري]

هذا الغطاء هم الذين وضعوه على أعينهم ، باتباعهم لأهوائهم و شهواتهم ، و بخضوعهم للتضليل الاعلامي الكافر الذي يحاول جهده في أن يحجب أنوار الحقيقة عن أعين الناس ، الا ان ذلك الغطاء سيتمزق يوم القيامة فيرى أصحابه ما ينتظرهم من مصير أليم و عذاب مقيم.

[و كانوا لا يستطيعون سمعا]

لقد أغمضوا عيونهم ، و جعلوا بينهم و بين رؤية الذكر غطاءا من كبريائهم و غفلتهم و عنادهم كما جعلوا في آذانهم وقرا ، و ذلك الوقر هو الآخر نابع من كبريائهم و غطرستهم و تعاليهم الكاذب.

جزاء المشركين
هدى من الآيات
عادة ما تكون بدايات السور القرآنية و نهاياتها تلخيصا لموضوعها الرئيسي ، و القاء للضوء على مجمل الأفكار التي بحثت في آياتها.

و في نهاية سورة الكهف التي حدثتنا عن سلسلتين متوازيتين و مرتبطتين مع بعضها من الأفكار ، و هما الحديث عن موقف الانسان من الطبيعة و زينة الحياة الدنيا ، و الحديث عن العلم و الذكر و كيفية الحصول عليهما ، نجد تلخيصا لهذين المبحثين.

الدرس الأخير يحدثنا عن أولئك الذين يتخذون عباد الله من دونه أولياء و لعل مناسبة الحديث ذكر قصة ذي القرنين صاحب السلطة الشاملة الذي لم يكن سوى عبد صالح . و لم يكن لأحد ان يعبده من دون الله و هكذا تخوف آيات هذا الدرس من يعبدون البشر ، و تحذرهم بأنجهنم هي مصيرهم المحتوم ، ثم تشير الى جذر هذه المشكلة و هي التبرير و الخداع الذاتي ، حيث يعتبر ذلك في الواقع من أخطر الأمراضالفكرية التي تواجه البشر.

ان المصاب بهذا الداء يعتقد أن ما يعمله صالح ، بينما هو في جوهره فاسد ، و هكذا تصبح كل تطلعاته الخيرة وراء ذلك العمل ، و تصبح وقودا للسير الحثيث في الطريق الخطأ ، فلا يصل الى شيء من أهداف ، بل يجد كل الخسارة في انتظاره.

و هذا الداء لا يصاب به الانسان الا في المراحل المتقدمة من ضلالته ، ففي البداية تظل النفس اللوامة تحذره من الانحراف و نتائجه الوخيمة ، و يطل ضميره يوبخه ، كما ان عقله يظل يضيء له شيئا من الطريق الصواب ، بالاضافة الى أنه كثيرا ما يجد من ينصحه و يعظهو يبين له الحقائق ، لهذا يبقى له امل بأن يقوم ما أعوج من أمره.

و لكنه اذا استمر وعاند ، فانئذ يسلب الله منه ضميره و عقله ، و يجعل على بصره غشاوة و في سمعه وقرا ، و يختم على قلبه ، و ينفض الناصحون من حوله ، ليحل محلهم من يزين له السوء و يشجعه عليه ، فينتهي به الأمر الى أن يكون شيطانا مريدا.

ثم يبين القرآن حقيقة هامة هي : ان ما يحسبه الانسان ذا شأن خطير في حياته الدنيا ، من مال ، و بنين ، و جاه ، و سلطة و ما اشبه هو عند الله تافه الا اذا سار في طريقه المستقيم.

و فور ما يحدثنا القرآن عن ضلالة الانسان في الحياة الدنيا ، يذكر لنا هذه الشهوات التي تحجب قلب الانسان و توقعه في وهدة الضلالة ، و تكون السبب في وصوله الى ذلك الدرك الأسفل ، حيث يعمل شرا و يحسب أنه عمل صالحا.

ثم يعرج القرآن الى الجانب الآخر حيث المؤمنون الصالحون عملا يسكنون الفردوس و هي أعالي الجنان ، و حينما يدخل الانسان ذلك المكان يجد أنه قد خلقله ، فلا يجد في نفسه طمعا و لا طموحا ولا تطلعا آخر ، لأن جنة الفردوس هي في مستوى طموحاته و تطلعاته ، ذلك الانسان الذي لا يرضيه شيء في الدنيا ، و الذي اذا حصل على القارات السبع فانه يريد أن يصعد الى النجوم و يحصل عليها ، و عندما يرى الجنة يقول : كفانيو لا أريد عنها انتقالا.

و بالمقارنة بين هاتين الصورتين ، صورة الانسان الذي تتحقق طموحاته كلها في الآخرة و صورة الانسان الذي يعيش في الدرك الأسفل . هناك ، و هو يحسب أنه كان يحسن صنعا في الدنيا نتوصل الى معرفة الفرق بين طريق الحق (و هذه نهايته) و طريق الضلال (و تلك عاقبته).

هذه الحقائق هي من كلمات الله التي لا تنفد ، و هي المعارف و الهدى و التوجيهات التي هي انعكاس عن سنن الله في خلقه للطبيعة و الانسان ، و لذلك على الانسان أن لا يغتر بعلمه المحدود و يعتقد أنه قد فهم كل شيء ، فهذا الغرور هو الذي يسبب اعتقاده بأنه على الصراط المستقيم ، بينما الحقيقة عكس ذلك تماما.

و تنتهي هذه السورة بتلخيص فكرة الاستفادة من فيض هذه الكلمات التي لا تنفد و لو كان البحر مدادا لكتابتها ، و هي عبادة الانسان لله ، و اخلاص طاعته له ، و العمل برجاء لقائه.

بينات من الآيات

[102][أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء]

ان اكثر الكفر لا يكون بانكار وجود الله ذاته ، و انما يتخذ صورا اخرى و من أهمها : انكار ولاية الله و حاكميته التشريعية على البشر ، فنجد كثيرا من الكفار في الازمنة السابقة و هكذا في زماننا الحاضر يقرون بأن الله هو خالق السماوات و الارض و كل ما فيهما، و لكنهم يضعون تشريعات من عندهم لادارة حياتهم

اجتماعيا ، و سياسيا ، و اقتصاديا ، و غير ذلك بزعم أن الله لم ينزل تشريعا سماويا عليهم ، بل تركهم في هذه الحياة سدى.

[إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا]

ان زعم هؤلاء لا يقوم على حجة سليمة ولا على دليل مقنع ، بل ان كل الحجج و الأدلة المنطقية تناقضه و تؤيد ما هو ضده ، و لذلك فانهم بهذا يعرضون أنفسهم لسخط الرب الذي أعد لهم مكانا يليق بهم و هو جهنم.

الأخسرون اعمالا

[103][قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا]

[104][الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا]قديما حينما كانوا يريدون التأكد من جنون شخص كانوا يحضرون له برميلا بلا قعر ، و يطلبون منه أن يملأه ماء ، فان كان عاقلا امتنع عن ذلك ، و ان كان مجنونا فانه يشرع في العمل بجد.

و الأخسرون أعمالا هم كهذا المجنون ، يبذلون مساعيهم و جهودهم في الحياة ثم لا يقبضون شيئا ، كم يصطاد الهواء بالشبك ، انهم لا يعلمون ما هو الشيء الباقي و ما هو الشيء الزائل فمثلا يتعب الواحد منهم على أولاده ، و يضع جهوده و دينه و قيمه عليهم حتى يكبروا ، و ما ان يبلغوا أشدهم و يعتمدوا على أنفسهم حتى يتركوا أباهم وحيدا في حسرته ، و أقصى ما ينفعونه تشييعه الى مثواه الأخير ، و قراءة الفاتحة على روحه أما في القبر و المحشر و عند الميزان فلا يغني أحد عن أحد شيئا.

و كذلك عندما يسعي الانسان من أجل الاموال ليكرس الملايين فوق بعضها ،لقد مات (فورد) صاحب شركة السيارات المعروفة في خزائن أمواله ، حيث كانت عنده خزانة حديدية ضخمة مؤلفة من عدة غرف متداخلة لكل منها باب ، و كان يحتفظ بذهبه و مجوهراته و أشيائه الثمينة في الغرفة المركزية ، و في يوم دخل الى مكانه المحبب هذا ليتمتع ناظريه ويرفه قليلا عن نفسه و كان كلما يدخل بابا يوصده من ورائه ، حتى اذا دخل في غرفة السعادة أوصدها على نفسه ، و قد نسي المفتاح في الخارج ، و عندما شبع من النظر الى متاع الدنيا الرخيص أراد الخروج فلم يقدر ، فظل يصرخ و يصرخ ، و لكن صوته لم يكن ليخترق تلك الجدران الحديدية المتراكبة فوق بعضها ، فمكث عدة أيام على هذا الحال الى أن مات.

ان هذا الانسان الضال لم تنفعه أمواله ، و لم تنقذه من الجوع و العطش في الدنيا حيث المال له قيمة ، فما بالك في الآخرة حيث لا قيمة للمال اطلاقا ؟!

[105][أولئك الذين كفروا بايات ربهم و لقائه]

ان السبب في وصول الانسان الى هذا الدرك الاسفل هو : اعراضه عن آيات الله ، و عدم استعداده للقائه ، و هذا هو الكفر بالمبدأ و المعاد.

و أساسا يؤمن الانسان وجدانيا بالله ، و يبحث بفطرته عن المعاد ، و لكن من الصعب عمليا أن يصل الانسان الى مستوى الايمان بالله و اليوم الآخر ، لذلك فهو يحتاج الى مزيد من الارادة و العزم ليصعد على هذه القمة فيحول ايمانه من اطار الفطرة و الوجدان الى اطار العمل و التطبيق.

ان نفوس الكفار أصغر ، و عزائمهم أضعف ، و هممهم أتفه من أن تصل الى حقيقة الايمان ، لذلك تجدهم ينكرون آيات الله و يكذبون بلقائه.

[فحبطت أعمالهم]

ان أعمال الانسان لا تحفظ الا في اطار الايمان بالله و اليوم الآخر ، كما يحفظ الماء في البرميل السليم ، أما وضع أعماله في اي ظرف آخر فسوف تكون كالماء الموضوع في برميل لا قعر له.

[فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا]

برغم أنهم كانوا في الدنيا أثرياء و أصحاب سلطة و جاه ، و كان لهم وزن عند كثير من الناس ، الا أنهم يوم القيامة يأتون و ليس لهم أي وزن و لا كرامة من عند الله ، و سوف يكونون أذل الناس و أحقرهم هناك.

[106][ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا و اتخذوا ءاياتي و رسلي هزوا]ان الانسان عندما يلجأ الى الهزء و السخرية في مقابل الحقيقة و من يحملها ، فانه يكون في أقصى درجات العناد ، و الانغلاق على النفس ، و قساوة القلب ، ان له الحق في أن يتشكك في بادئ الأمر ، و يطالب بالدليل ، و يجادل بالعقل الى أن يقتنع و يطمئن ، أما أنيواجه الرسول و الرسالة بالإستهزاء ، فهذا دليل على أنه لا يريد اتباع الحق أساسا ، فيا ترى أي مكان يليق بمثل هذا غير جهنم ؟!

جزاء المؤمنين

[107][إن الذين ءامنوا و عملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا]

[108][خالدين فيها لا يبغون عنها حولا]

يجب على الانسان ان يكتشف أعماق ذاته و يتساءل : لماذا خلقت ؟ و ما الذي أطمح اليه ؟

انه في محاسبة رياضية بسيطة يستطيع أن يفهم أن هذه الدنيا و ما فيها ليست كافية لاستيعاب طموحه ، فمن طموح الانسان الخلود و الاستمرار في الحياة ، انه لا يريد أن ينقلب الى العدم بعد الوجود ، و اذا كانت الدنيا قد خلقت لنا و خلقنا لها فلا أقل من أن نبقى خالدين فيها.

أحد الفلاسفة القدامى كان يقول : أنا مستعد أن يضعوني في جوف حمار ميت ، و أظل أتنفس من دبره في مقابل أن أبقى حيا في الدنيا!!

هذا الكلام غير منطقي ، و لكن يعبر عن نزعة حب البقاء عند الانسان.

و لكن هل بقي أحد في الدنيـــا ؟ كلهم أرادوا البقاء و كلهم ماتوا ، اذن فالدنيا ليست لهم ، و طموحهم هذا لن يتحقق فيها.

و بعيد عن حكمة الله و رحمته أن يخلق في كيان الانسان رغبة لا تتحقق ، أو حاجة لا تلبى ، انه عندما خلق العين خلق في مقابلها شيئا يرى ، و عندما خلق الأذن خلق في مقابلها شيئا يسمع ، و عندما خلق الجهاز الهضمي ، خلق في مقابله شيئا يؤكل ، و هكذا قل في سائر الحواس و الأعضاء و الغرائز ، و كذلك حينما خلق طموح الخلود ، و الحصول على ملك لا يبلى ؟ خلق وراءه حقيقة مناسبة له ، فما

هي تلك الحقيقة.

انهـا جنة الفردوس في الدار الآخرة ، و هذا هو أبسط دليل وجداني على ضرورة البعــث.

كلمات الله

[109][قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي و لو جئنا بمثله مددا]

لو تحول الماء الموجود فوق الكرة الأرضية الى حبر لكتابة آيات علم الله و قدرته و حكمته ، و آثار فضله و نعمته ، لجف هذا البحر و لما يكتب الا النزر اليسر منها.

ترى أنهم في مجال الفضاء فتشوا عن أحدث الوسائل الالكترونية التي تساعدهم على رؤية النجوم و الكواكب ، فاكتشفوا بعض المجرات ، ثم عادوا و صنعوا أجهزة أحدث فاكتشفوا مجرات جديدة ، و هكذا الى أن قال قائلهم : ان الله لا يزال يخلق ، فكلما صنعنا مراصد أضخم لرؤية ما تحويه السماء ، خلق الله في تلك الفترة مجرات جديدة لم تكن موجودة من قبل ، و لعل هذا هو مصداق الآية الكريمة : " و السماء بنيناها بأيد و انا لموسعون " (الذاريات / ٤٧).

و خلــق الله أسرع من صنع الأجهزة التي نرى بها هذا الخلق ، فكيف تنتهي كلمات اللــه ؟

هذه المجرات الواسعة في الفضاء المتناهية في الضخامة و تلك الذرات المتناهية في الصغر ، كلما درسوها و بحثوا حولها وجدوا فيها خصائص غير مكتشفة سابقا ، و آخر خصيصة اكتشفوها في الذرة استفادوا منها في صنع القنبلة النيوترونية.

ترى كم مجلد كتبوا حولها ، في طريقة صنعها ، و الأسرار المرتبطة بها ، و المعلومات الخاصة باستعمالها ؟

هــذا بالنسبة للذرة المتواضعة التي لا ترى بأقوى المجاهر و هي واحدة من كلمات الرب ، اذن فكلمات الله لا تنتهي ، و لهذا يجب أن يتحدد غرورك أيها الانسان ، و لا تظن أنك قد وصلت الى نهاية الحقيقة ، و انك على الطريق الصواب ، دائما ضع علامة استفهام أمامك، و ابحث عن الحقيقة ولا ترى نفسك اكبر منها أبدا.

[110][قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي]

ان الرسول ليس سلطانا ذا صولجان ، و لا ثريا ذا كنوز ، إنما هو بشر مخلوق مثل الآخرين ، و ميزته الوحيدة أنه يوحى اليه من السماء ، و هذا الوحي يتلخص في جملة واحدة هي:

[إنما إلهكم إله واحد]

لذلك اسقطوا الأصنام في أنفسكم و مجتمعكم ، و اعبدوا الله وحده.

[فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا و لا يشرك بعبادة ربه أحدا [انهما شرطان بسيطان ، و لكنهما يمثلان مسؤولية الانسان في الحياة ، و يشكلان سفينة نجاته ضمن مسيرته في خضم الأمواج المتلاطمة ، و الأعاصير العاصفة ، نحو الله الذي هو منتهى أمل العارفين ، و غاية آمال الطالبين.